٤٧١

مبعوث الحسين

دراسة تحليلية لأول مراحل الثورة الحسينية

في الكوفة من خلال الطلائع المسلمة من عقيل (ع)

تأليف

محمد علي عابدين

مؤسسة المنار الإسلامي

للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع

Princeton University Library

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

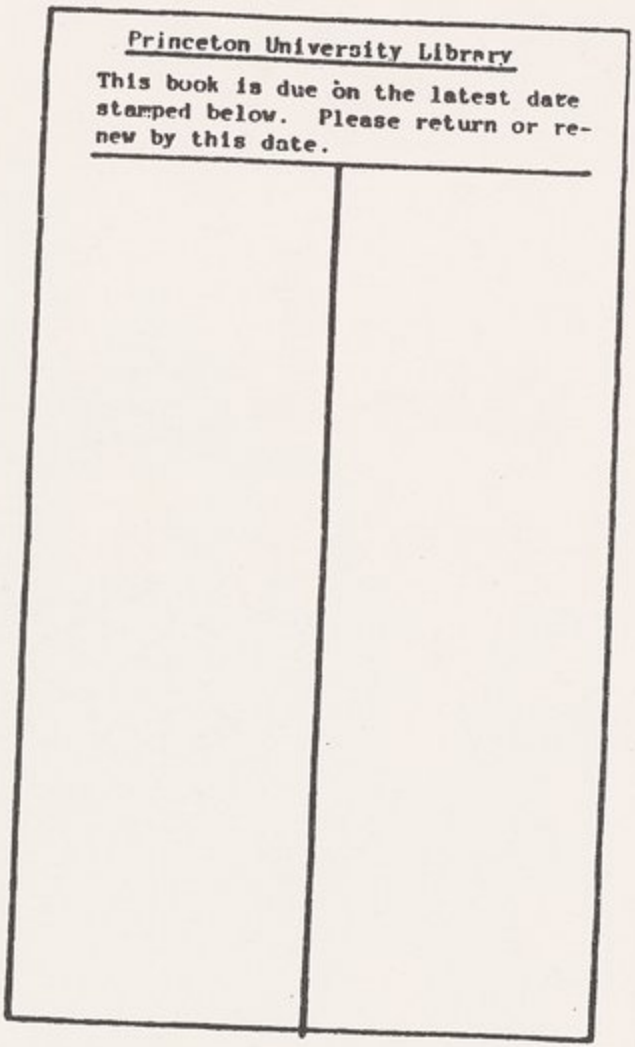

'Abidin
Princeton University Library
32101 058336189

٤٧٦

مبعوث الحسين عليه السلام

دراسة تحليلية لأول مراحل الثورة الحسينية في الكوفة بقيادة البطل الجليل مسلم بن عقيل (رض)

تأليف

محمد علي عابدين

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

((DLC/AP))
BP193
.13
.A243
1987

الكتاب: مبعوث الحسين «عليه السلام»
المؤلّف: الأستاذ محمّد علي عابدين
الناشر: مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة
المطبوع: ١٠٠٠ نسخة
التاريخ: محرّم الحرام ١٤٠٨

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAID

3819 .P6M5 1990-26-90

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمدلله ربّ العالمين و الصلاة و السلام على أفضل رسله و خاتم أنبيائه محمّد و آله الطيّبين الطاهرين.

إنّ حياة مسلم بن عقيل سلام الله عليه لم يطّلع عليها إلاّ القليل. و لم تكتب في هذا المضمار كتب كثيرة على عكس سائر الحقول، فقد أُلّفت كتب و افرة جدّاً مع أنّ لمسلم بن عقيل منزلة جليلة و مكانة سامية عند الحسين بن عليّ و عند كلّ موالي لأبي عبدالله صلوات الله عليه، كيف لا و هو أوّل شهيد في طريق كربلاء و قد تحمّل ما تحمّل من تلك المصائب و المحن و الغربة و الغدر من قبل السلطة الأمويّة المعادية لأهل البيت، و قد أفدى نفسه في سبيل إعلاء كلمة الله و طاعة وليّه.

ولأ جل التعرّف على هذه الشخصيّة الفذّة قام فضيلة الأخ الأُستاذ محمّد علي عابدين دام عزّه ـ و قبل اكثر من عشر سنين ـ بهذه المهمّة و ألّف كتاباً في هذا المجال و استعرض فيه تاريخ الكوفة ـ بصورة عامّة ـ و حياة مسلم بن عقيل و جهاده ضدّ السلطة الحاكمة و استشهاده على يد الشجرة الخبيثة و بتلك الفاجعة ـ بصورة خاصّة ـ.

و في الوقت الذي تقوم المؤسّسة ـ بعد تأخّر طبعه لأسباب سياسيّة، و هو من جملة الكتب التي منعتها سلطة البعث الكافرة في العراق ـ بطبع و نشر هذا الكتاب تقدّم جزيل شكرها للأخ المؤلّف على ما قام به من بحث و تحقيق حول حياة ابن عمّ سبط الرسول سلام الله عليهم سائلةً الله سبحانه التوفيق له و لها لخدمة الإسلام و المسلمين و إحياء تاريخ الرجال الخالدين إنّهُ خير مسدّد و معين.

مؤسّسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي هذا الكتاب الىٰ سيّد الكائنات نبيّ الهدىٰ والنور خاتم المرسلين صلوات الله عليه وآله أجمعين.

وإلىٰ أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا.

وإلىٰ من غرس بذرته في عمق وجداني منذ الصبا وهو لايدري.

واليوم أُنبئت بأنّ أبي يمضي في سجون الظالمين بتهمة تعليم الأولاد الولاء للرسول والحبّ لآلهِ المجاهدين.

إلى والدي الذي طالما حدّث صغاره عن البطل العظيم مسلم بن عقيل، وكان يصطحبهم الى رحاب ضريحه وفناء مثواه الشريف.

وإلى كلّ الآباء الذين علّموا أولادهم الولاء واعتقلوا أو طوردوا بسبب أبنائهم المهاجرين والمجاهدين.

وأهدي ثواب هذا الجهد الى الوالدين، أبي وأُمّي برّاً بهما، لأنهما علّماني حبّ سبط سيّد المرسلين.

حبّ الحسين بأبي هو وأُمّي.

محمّد علي

دار الهجرة ١٤٠٦هـ

تقديم

لسماحة العلّامة المحقّق
الشيخ باقر شريف القرشي

- ١ -

لا أعتقد أن مدينة في الشرق الأوسط لعبت دوراً خطيراً على مسرح السياسة العالمية كالكوفة، فقد كانت مصدر الوعي السياسي والاجتماعي لجميع شعوب العالم الاسلامي، وكان من أبرز فعالياتها أنها أطاحت بحكومة عثمان بن عفّان عميد الأُسرة الأُموية، وأبدت نشاطاً ملحوظاً في انتخاب الإمام أمير المؤمنين عليّ ابن عمّ النبيّ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» وترشيحه للخلافة.

لقد كانت الكوفة أقوىٰ حامية عسكرية في الاسلام، فقد تحشّدت فيها الجيوش المسلّحة التي تغزو العالم الخارجي للفتح والتحرير، وتمدّ الثغور بما تحتاجه من القوىٰ العسكرية، بالاضافة الى مكانتها الاستراتيجية، وواردتها الاقتصادية التي كانت تشكّل أعظم دخل للخزينة المركزية، ممّا جعلها موضع اهتمام الخلفاء، وقد اتّخذها الإمام أمير المؤمنين عاصمة له، فانتقلت إليها خزينة الدولة.

و فجّر الإمام أمير المؤمنين - رائد العدالة الاجتماعية - سياسته المشرقة في الكوفة، السياسة الهادفة الى بسط المساواة العادلة، وإلغاء التمايز العنصري، وإبادة الفوارق بين أبناء المجتمع الاسلامي، وتحقيق الفرص المتكافئة للجميع،

وقد خلقت هذه السياسة البنّاءة رصيداً شعبياً هائلاً للإمام وأوجدت في الكوفة وعياً أصيلاً، كما نشرت روح التمرّد والعصيان على الحكم الأموي طيلة بقائه على العراق.

- ٢ -

و أُصيبت الكوفة بنكسة أليمة و خطيرة، عَقِبَ الحروب المؤلمة التي أثارها النفعيّون على حكومة الإمام أمير المؤمنين «عليه السّلام» ـ الرائد الأول لحقوق الانسان ـ فكانت: حرب الجمل، وحرب صفين، والنهروان، وقد أوجدت هذه الحروب شللاً فكرياً وتمرّداً اجتماعياً، وأحدثت منعطفات في سلوك المجتمع. مما سبّب خذلانه وعدم تقريره لحقّ مصيره في الفترات الحاسمة من تاريخه. فقد أعلن التمرّد على حكومة الإمام وأجبره على إيقاف عمليات الحروب في الساعة التي بدأ فيها الظفر واضحاً جلياً للامام على خصمه العنيد معاوية بن أبي سفيان، وفي تلك الفترة ـ التي هي من أبشع ما مرّ في تاريخ العالم الاسلامي ـ أُصيبت الأمّة بنكسة مروعة وتدهور خطير لجميع قيمها ومكتسباتها الاسلامية، فقد تغلّب باطل معاوية وجوره، على حقّ الامام أمير المؤمنين وعدله

و منذ ذلك الوقت ظلّ في أرباض الكوفة يأمرُ فلا يُطاع، ويدعو فلا يُستجاب له، قد خَلُدَ جيشه الى الراحة، وسئم الجهاد في سبيل الله، وظلّ «عليه السّلام» يعاني الآلام المرهقة، ويتجرّع الغصص حتى اغتالته يدٌ آثمة ومجرمة... وقد انتهت بذلك حكومة الامام، التي هي ألمع حكومة مرّت في دنيا الاسلام، فقد تبنّت بصورة إيجابية حقوق المظلومين والمضطهدين، ومحاربة الاستغلال والآثرة، ومناهضة الغُبن الاجتماعي، وقد فتحت آفاقاً كريمة لشعوب العالم بأسره.

لقد كان الامام «عليه السّلام» هو الرائد الأول لهذه الأمّة في مسيرتها النضالية، وكفاحها المستمرّ في تحقيق ما تصبو اليه من العزّة والكرامة.

- ٣ -

و آل الحكم الى معاوية بعد صلح الامام الحسن «عليه السّلام» الذي حقن به دماء المسلمين، وقد أنكره كلّ من لا يملك وعياً سياسياً، ولا إحاطة بالظروف القاهرة التي ألجأت الامام الحسن الىٰ الصلح، على مافيه من قذىٰ في العين وشجىٰ في الحلق، ولولا الصلح لواجهت الأُمّة سيلاً من المشاكل الاجتماعية لا يعلم مدىٰ خطورتها إلا الله سبحانه وتعالىٰ.

و استسلمت الكوفة لحكم معاوية و هي مُهانة ذليلة، قد خسرت جميع آمالها، وقد عمد معاوية الىٰ قهرها وإذلالها، فسلّط عليها شرار الولاة كالمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، الذي سَمل العيون، وأخذ البريء بالسقيم، والمُقْبِلَ بالمُدبر، وقتل علىٰ الظنة والتهمة، وأخذ الكوفيّون ـ بعد فوات الأوان ـ يندبون حظّهم التعيس، ويندمون كأشدّ ما يكون الندم، علىٰ ما فرّطوا في امورهم، وما اقترفوه من الاثم تجاه الامام أمير المؤمنين و ولده الحسن «عليهما السّلام».

و خفوا الىٰ الامام الحسين يطلبون منه أن يعلن الثورة على معاوية، و تتزعّم بلدهم الحركة الثورية، إلا أنه «عليه السّلام» لم يستجب لهم، نظراً للظروف السياسية القاسية المحيطة به، ومن أهمّها ما يتمتّع به معاوية من القابلية الدبلوماسية الماكرة، والتمويه علىٰ الأُمّة، وأن بيت المال كان تحت قبضته يشتري به الضمائر ويُسخر أعظم قوّة لمقابلة أي تمرّدٍ عليه.

- ٤ -

و لمّا هلك معاوية ـ و قد عَهِد بالخلافة الىٰ ولده يزيد ـ تنفّس العراق الصعداء، ووجد أنه قد انكسر باب الجور، فبادر زعماء الكوفة تحت قيادة الزعيم الكبير «سُليمان بن صرد الخزاعي» فعقدوا مؤتمراً شعبياً عرضوا فيه ما أصاب بلدهم من الجور والاضطهاد أيام معاوية، وأنه لا يمكن بأيّ حال أن يتحقّق الاستقلال لبلدهم، وتعود له مكانته الاجتماعية، إلا في ظلّ حكومة

الامام الحسين «سلام الله عليه»، فرفعوا إليه آلاف الرسائل، و عشرات الوفود، وهم يحثّونه علىٰ المجيء لبلدهم.

و قد رأىٰ «عليه السّلام» -قبل كل شيء- أن يوفد لهم ممثّلهُ، يختبر الأوضاع و يُعرِّفه بها، وقد أوفد ممثّلهُ العظيم «مسلم بن عقيل» وهو من أفذاذ البيت النبوي، تقوىً وعلماً وتحرّجاً في الدين... ولمّا أطلّ عليهم قابلوه بمزيد من الفرح والسرور، وأظهروا له الدعم الكامل، و قد بايعه منهم «ثمانية عشر ألفاً» علىٰ الطاعة والتضحية بأموالهم وأنفسهم، من أجل تحرير بلدهم من الحكم الأموي، وإعادة الخلافة الاسلامية إلىٰ أهل البيت، الذين هم العصب الحسّاس في جسم هذه الأمة.

و لمّا عَلم يزيد بخطورة الأمر، و إعلان الكوفة رفض بيعته، عَهد بولايتها الى الجَلّاد ابن مرجانة،وفور وصوله إليها أعلن الأحكام العرفية فيها، ونَشَر أوبئة الفزع والارهاب، وأعدم كلّ من يرتاب منه، ممّا اضطرّ الكوفيين أن يتخلّوا عن جميع مطاليبهم الوطنية والدينية، وقبعوا أذلّاء تحت وطأة حكم ابن مرجانه.

و من المؤسف حقّاً، أنه قد جنّدهم لمحاربة محرّرهم العظيم «مسلم بن عقيل» كما زجّ بهم لمحاربة ريحانة رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم» وسيّد شباب أهل الجنّة الامام الحسين «عليه السّلام»، فارتكبوا بوحشية قاسية قتل الامام وإبادة عترة النبيّ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» بصورة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في جميع مراحله.

- ٥ -

و يعرض هذا الكتاب بصورة موضوعية و شاملة، الىٰ دراسة الأحداث دراسة متسمة بالعمق و التحليل، ويقف على كلّ بادرة فيلقي عليها الأضواء، ويُبرز واقع قضية الشهيد مسلم «عليه السّلام» كأنه قد شاهدها، وحضر فصولها، وقد أخذني الاعجاب بروعة العرض، و بداعة الاستنتاج والتحليل.

أمّا مؤلّف الكتاب فهو ولدنا الاستاذ «محمّد علي عابدين» ممّن قد أوقف نشاطه الفكري علىٰ خدمة أهل البيت «عليهم السّلام» وإني أتوسّم له مستقبلاً زاهراً، والتوفيق بيد الله، يهبه لمن يشاء من عباده، وهو تعالى وليّ القصد.

باقرشريف القرشي

النجف الأشرف

١٣٩٧هـ-١٩٧٧م

المقدّمة

تتزايد أهمّية دراسة البعثة الحسينية الى الكوفة (في أواخر عام ٥٩ للهجرة) بازدياد أهمّية ثورة أبيّ الضيم سبط سيّد المرسلين الحسين بن عليّ... سيّد «الموقف المقدّس» إزاء الأزمة العقائدية والفكرية والسياسية، التي عاشتها أُمّة جدّه المصطفى «صلّى الله عليه وآله وسلّم».

إن سبط النبيّ في موقفه المتفجّر بكربلاء، وفي دوره المدوّي في دنيا الثورات قد أحدث تحوّلاً عميقاً باتجاه نقد الواقع السياسي القائم، ونقد الواقع السياسي الذي سيقوم على مدىٰ المستقبل اللاحق لزمن الثورة التي ألهب نارها وأشعل أوارها بدمه الزكي.

فقد شكّلت حياته الدامية منعطفاً حاسماً في مسار الاسلام، وحركة مسيرة المسلمين، وستبقىٰ تؤدّي بالغ التأثير على صنع الأحداث الاسلامية والوقائع الانسانية لِما انطوت عليه قرارات حياته الدامية من أسرار تساهم في تركيب مواد القانون الأزليّ الأبديّ المتحكّم بالانسان والاسلام.

و الحسين السبط ـ يوم أدّىٰ تكليفه ـ حسبه أنه حقّق الواجب من وجوده، وكشف سرّاً من أهمّ أسرار شأنه الشريف، وأعلن لكلّ البريّة عن «معناه النبويّ» المخلّد، فأفسد بذلك كلّ التدابير الأُموية الرامية الى تحويل «النبوّة»

الىٰ أُسطورة مرّت خلسة في فترة من فترات غياب أو غفلة بنى أُميّة عن الساحة «العربية».

ولا نحسب أن هذه المقدّمة تتسع للافاضة بالحديث حول حقيقة كون الحركة الأُموية المُجدّدَة للجاهلية قد قطعت علىٰ نفسها عهداً، متحمّلة على عاتقها نهجاً يلغي بالتدريج نبوّة خاتم المرسلين «صلّى الله عليه وآله» ـ كما اعترف بذلك معاوية نفسه في حديثه الحاقد مع صديقه وعامله على الكوفة المغيرة بن شعبة ـ ولا يجعل هذا النهج الأُموي التدريجي كتاب الله المنزل سوىٰ أساطير للسخرية السياسية والعسكرية يُرفع فوق الرماح، عند الحاجة للّعب واللهو والمزاح، فلا يعود القرآن سوىٰ أوراق قمار بأيدي المقامرين القوميّين الطلقاء... وحسبنا هذا التنويه الىٰ كون حركة ابن رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم» لم تكن مجرّد ثورة لإبطال نظام إداري وإلغاء صيغة حكم فحسب، وهو ما درج علىٰ فهمه الكثيرون قديماً وحديثاً... إنما كانت حركة سبط حبيب الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم» لتدمير محاولة «احتواء النبوّة» واستخلافها ثم تحويلها الىٰ اسطورة لاغية، ولنسف محاولة الوصاية علىٰ القرآن الذي دوّنه معاوية «بدعواهم» تمهيداً لاحتكار تأويله والمقامرة به وانهاء اعتباره.

كانت الحركة الأُموية تنتظر من «يزيد» انعطافاً جديداً بالاسلام والمسلمين أشدّ جرأة علىٰ الله ورسوله من انعطاف أبيه معاوية، ولكن الحركة نكصت نكوصاً فاضحاً مخزياً، ولم تستطع أن تباشر تطبيق منهاجها الجاهليّ الكافر، يوم نهض القرآن الناطق بقرار مواقف العقيدة، إذ برز إليهم سليل الرسالة وسيّد المرسلين «صلّى الله عليه وآله وسلّم» فكان دمُ السبط مصداقاً مقدّساً للقرآن الكريم في واحدة من آياته البيّنات: «إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون».

تبعاً لذلك فنحن ضمن المقياس الكوني لفهم الحسين وثورته الكبرى...

إذن فلنطوي كشحاً عن المقاييس الضيّقة في فهم النهضة الحسينية، ولسنا مضطرّين إليها وأمامَنا الأُفق السماوي الفسيح... ففي المقياس الكوني، تُعَدُّ الثورة حدثاً عِلْوياً عظيم الشأن، حدثاً متّصلاً بالسماء موصولاً بالإرادة المطلقة، ومُستَلهماً من رغبة الملأ الأعلىٰ.

* * *

إن أهمّ مراحل التحرّك الحسيني التي سبقت التفجير المجيد بكربلاء هي مرحلة «مبعوث الحسين عليه السّلام الىٰ الكوفة» التي تعكس إحدىٰ صور الحكمة لإمام النهضة، والوقوف عليها ببصيرة وإمعان نظر يصحّح تصوّرات المخطّئين للحركة بدعوىٰ كونها ارتجالية أوأنهاعفوية!!

إن الحركة لم تنطلق فوراً بلا رؤية ولا منهاج محنّك يكفل نجاح نتائجها، ولم يستجب الامام فوراً بتأثير الرسائل الكوفيّة كما توحي التدوينات العابرة... إن التحرّك يسموعلىٰ الارتجالية وهوفوق العفوية... والأحاطة بفصول هذه المرحلة يعطي دليلاً مشرقاً على روعة التخطيط قبل الشروع، ويفنّد أوهام عفويّة التنفيذ.. من هنا إذن تتضاعف أهميّة دراسة موضوع مبعوث الحسين «عليه السّلام».

و بالرغم من اهتمام مؤلّفي المسلمين ـ السنّة والشيعة ـ بدراسة الامام الحسين «صلوات الله عليه»، غير أنهم غالباً ما يمرّون بهذه المرحلة مرور الكرام، كما يتجاوزون المجتمع الكوفي ولا يقفون عليه طويلاً، فلا يتوفرون على دراسة جمهور دائم الوثبات عظيم الاضطهاد، شديد الحماس. ويكتفون بإطلاق تعابير وتصوّرات مسبقة تستهدف الإعتبارات النفسية لأبناء البلاد قديماً وحديثاً، الأمر الذي تسبّب في حرمان الانسان المسلم ـ حتى اليوم الحاضر ـ من وضوح الرؤية عن واقع قضية الأُمّة والكوفيين.

هذا، ولا نخال أن عامل قلّة عناية الدارسين للمرحلة، كامن في قِصَر مدّة

البعثة وعُمْر تحرّك إقليم الكوفة، إذ لا تناط الأهميّة هنا بطبيعة المدّة الزمنية، وإنما تناط بما لها من صلة وثيقة بالثورة الاسلامية الحسينية، كما تناط أيضاً بما لها من دور فاعل في بلورة الأحداث عبر التاريخ... ونعزوقلّة العناية تلك الىٰ طبيعة الدوافع النفسية والأهداف الدراسية للمؤلّفين، ومستوىٰ الروح التغييرية الحريصة علىٰ استيفاء شروط النشاط وأسرار الاحباط... فنتوصل الىٰ أن أغلبهم لم يُقدم علىٰ بحثه إلا بعد استبعاد ضرورة إدراكه الأُمّة عموماً وأهل الكوفة خصوصاً، كأنما يليق بالكاتب دراسة الثورة والامام بمعزل عن واقع الجمهور يومذاك ، وهذا ما حفلت به أكثر الكتب السنّية والشيعية، معتمدة نهجها الروائي مقتصرة علىٰ وقائع الثورة، وسيرة الامام وأقواله ومواقفه، واستشهاده العظيم ببطحاء كربلاء.

و عليه فإن الجوانب الهامّة المرجو التوصّل إليها ضمن هذا البحث توجز فيمايلي:

١ ـ جانب من أهم جوانب ثورة سبط محمد العظيم «صلّى الله عليه وآله وسلّم».

٢ ـ أهم جوانب جهاد بطل العصبة المحمدية مسلم بن عقيل، وإدارته للتحرك الكوفي.

٣ ـ أبرز جوانب الجور الواقع على المسلمين ـ كالكوفيين ـ وشدة المعاناة والتطلّع للتحرير.

٤ ـ أوضح جوانب الارهاب الأُموي المرعب... إذ سيظهر الدليل على أن السياسة الأُموية مارست شتّىٰ الأساليب وانواع الوسائل لصرف الفرد المسلم والجماعة الاسلامية عن الالتزام الصحيح بمبادئ الدين الأصلح، وسلب الاستعدادات الشعبية لجماهير الأُمّة وانتزاع مقوّماتها الجوهرية، وصولاً للاكتفاء بمجرد الانتساب الاسمي للاسلام دون التمسّك العملي بهداه العظيم،

توفيراً للزمن الأُموي في البقاء الأطول تحت عنوان خلافة الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم».

* * *

خضعت الدراسة الىٰ منهج حَرصَ علىٰ تيسير البحث التفصيلي للقضية، مع توخّي وضوح الرؤية لكل رواية من الروايات المعتمدة، المأخوذة من أوثق المصادر التاريخية المعتبرة لدىٰ كافة علماء المسلمين... فتمّ البحث وفق أبواب، كانت كل منها مقسمة الىٰ فصول ثلاث، للفصل الواحد ثلاث مواضيع تقريباً، حسبما يفصح عنه فهرست الكتاب الذي يغنينا عن الحديث بشأن التبويب في هذه المقدّمة الوجيزة.

راجين من الله عزّوجلّ أن يتقبل منا هذا القليل و يزيدنا من فضله لإحياء اعلام دينه ومعالم هداه.

«قل هذه سبيلي أدعو الى الله علىٰ بصيرةٍ أنا ومن اتّبعني».

محمّد عليّ عابدين

١٣٩٦هـ-١٩٧٦م

الباب الأول

مسلم والكوفة

قبل الدخول في البحث التفصيلي للحدث، علينا أن نحمل تصوّرات ضرورية، ترافقنا أثناء التنقّل من فصل الى آخر من الفصول المتسلسلة زمنياً...

فلنحتفظ بتصوّر واضح حول نسب المبعوث ابتداءً، ثم نتعرّف علىٰ سرّ شخصيّته من خلال التعرّف علىٰ أبيه عقيل فـ«الولد علىٰ سرّ أبيه» ثم نطّلع علىٰ لمحة خاصّة حول شخصيّته هو بالذات...

و لنحتفظ أيضاً بصورة عن المبعوث اليهم، هذا المجتمع الحديث التكوين والمعقّد التركيب الذي نشأ جديداً يحمل ارهاصات العصر يوم تمّ تمصير الكوفة... فهذه ثلاث فصول يسبقها تمهيد، ضمن هذا الباب الأول، المدخل الىٰ خضمّ الحدث التاريخي الخالد.

تمهيد

النسب الهاشمي لمسلم

يوم أعلنت إرادة السماء طبيعة تصنيف الجنس البشري، ويوم أُوحىٰ الله «نبارك و تعالىٰ» حقيقة التباين الانساني بما تضمّنه النصّ الواقعي القرآني: «إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثىٰ وجعلناكم شُعوباً وقبائل لِتعارَفوا» بجعل المقياس الثابت للتفاضل: «إنَّ أكرَمَكُمْ عِنْدَالله أتقاكُمْ»(١).

يومها كانت الأرض فعلاً شعوباً متناثرة، وأُمماً متباينة وقبائل متفرّقة... ومن تلك الشعوب كان الشعب العربي العريق، المتشعب الىٰ عشرات العشائر والقبائل، حيث تفرّعت منه وتبرعمت فيه.

تقف علىٰ قمّة تلك القبائل، قبيلة «بني هاشم» الخالدة، إذ تبرز كشمس ساطعة من وسط قريش، لتسمو في المجد وتُحلّق في فضاء العزّ والسؤدد، ممثّلة ذروة سنام الكيانات العربية والانسانية القائمة آنذاك، بتفاوت تبنّيها للقيم الصالحة والمعتقدات الصحيحة... فهم الأفضل والأكرم في عصري الجاهلية والاسلام الزاهر، وهم بين البيوتات أتقاها وأنقاها، وبين القبائل أرقاها قيماً وأقواها عقيدة... ولا غرو أو عجب، إذ كان فيها ـ وخرج منها ـ أفذاذ هذا

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

الشعب وأقطاب هذه الامّة، بل هم أعاظم كل الشعوب والأُمم، وهم قدّيسو سائر الانسانية، وحسبك بأوّلهم «الحبيب» سيّد العرب والعجم:

«أنا محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني من خير خلقه. وجعلهم فرقتين، فجعلني في خير فرقة. وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة. وجعلهم بيوتاً، فجعلني في خيرهم بيتاً. فأنا خيركم بيتاً وأنا خيركم نَفْساً»(١).

أُنيطت بهم مسؤولية صيانة الاسلام و الحرص على الامّة، لِما أولاهم الله من كبير الكفاءات وجليل الجدارات، فأضمر لهم الكفّار والمنحرفون كيداً وكرهاً دفيناً، فحذّر الحبيب محمد «صلّى الله عليه وآله وسلّم» من سوء الطوية والحقد الذي يكنّه الجاهليون والطلقاء ضدّهم، مؤكّداً على اصطفاء السماء لهم، إذ قال «صلّى الله عليه وآله وسلّم»:

«قال جبريل «عليه السّلام»: قلَّبتُ الأَرضَ مشارقها ومغاربها، فلم أجد أفضلَ من محمدٍ «صلّى الله عليه وآله وسلّم»، وقلَّبتُ الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد أفضلَ منْ بني هاشم»(٢).

لقد أكّد النبيّ على الاصطفاء السماوي له ولآلهِ «صلوات الله عليه وعليهم»، بالرغم من كونه معروفاً لدى قريش، فهو ـ وباقي شبّان بني هاشم ـ معروف بلا غموض أو إبهام «يعرفونه كما يعرفون أبناءهم»(٣) لكنه «صلّى الله عليه وآله وسلّم» كرّر تأكيداته كثيراً:

«إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم واتخذه خليلاً، واصطفى من ولد

---

(١) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، لمحبّ الدين الطبري: ص١٠. والعِقد الفريد لابن عبد ربّه الأندلسي، ج٥ ص٤ ط٢ مصر ١٩٥٣م.

(٢) ذخائر العقبى، للطبري: ص ١٤ طبعة دار الكتب العراقية، ١٣٨٧هـ.

(٣) سورة البقرة: ١٤٦.

إبراهيم إسماعيل، ثمّ اصطفىٰ. من ولد إسماعيل نزار، ثمّ اصطفىٰ من ولد نزار مُضر، ثمّ اصطفىٰ من مُضر كَنانة، ثمّ اصطفىٰ من كنانة قريشاً، ثُمَّ اصطفىٰ من قريش بني هاشم... ثمّ اصطفىٰ من بني هاشم بني عبدالمطلب، ثمّ اصطفاني من بني عبدالمطلب»(١).

أجل، «أنا ابن عبدالمطلب»... «شيبة الحمد» الذي يظنّه البعض مجرّد جدّ للنبيّ فحسب... ولقد كان «شيبة الحمد» من أوصياء الخليل إبراهيم «عليه السّلام»، وكان يعلم يقيناً بأن حفيده من نجله «عبدالله» سيكون له شأن مبارك وعظيم، حتىٰ أوصىٰ لوصيّه «أبوطالب» بوجوب الحرص على مواصلة مباشرة الاشراف علىٰ نشأة الحفيد المبارك حتىٰ يشبّ ليصدع بما يأمره الربّ.

لو كان «عبدالمطلب» أباً عادياً و جدّاً جاهلياً ـ كما يفهم البعض ـ لما كان يليق بالنبي الأعظم «صلّى الله عليه وآله وسلّم» أن يشير إليه في أحلك الساعات وأحرج اللحظات، ففي أثناء حروبه كان «صلّى الله عليه وآله» يرتجز ويتحدّىٰ: «أنا النبيّ لا كذب... أنا ابن عبدالمطلب»... إن الذي لا ينطق عن الهوىٰ يشيد بمجد جدّه، ويستمدّ من الاشارة إليه معنوية عالية في ساحة القتال... لقد كان «عبدالمطلب» الجد و«أبوطالب» العم أوصياء السماء كابراً عن كابر(٢) مستحفظون على أسرار النبوّة من لدن إبراهيم خليل

---

(١) ذخائر العقبىٰ للطبري: ص١٠.

(٢) كان جدّه وعمّه يُعظمانه لما يعلما من شأنه الأقدس، كونهما ليسا من الناس العاديين، بل إنهما «أعرف العلماء وأعلمهم بشأن النبيّ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» وكانا يكتمان ذلك عن الجهّال والكفرة». خشية الكيد به كما أورد الصدوق في كتابه: إكمال الدين، ص١٠٢. حتىٰ أنّ صاحب السيرة الحلبية روىٰ في ١٣٩/١ ماقاله عمّه أبوطالب بخطبته عند تزويجه من خديجه: «وهو والله ـ بعد هذا!ـ له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم» أوردها أيضاً صاحب تذكرة الخواص، والمبرد في الكامل، ←

الرحمان «عليه السّلام». وهذا ما يجب أن نفهمه بقلب بصير لأن فهمه من الدين والايمان.

ما كان محمدٌ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» عصبياً ولا «نرجسياً» حينما يتحدث عن عائلته، أو عن ذاته، حينما يعظّم عترته ويقدّس نفسه الزكيّة، كاشفاً عن سرِّ التلازم بين اصطفائة وإصطفاء بني هاشم، وانتخاب السماء له ولرهطه الطيّبين... بل كان «صلّى الله عليه وآله وسلّم» يستهدف جعل الناس على بيّنة من الأمر، وأمام الأمر الواقع، كي لا يُستهان بأهل بيته، وكي لا يُقاتلونهم بحجّةٍ أو بأُخرى... لم يكونوا مغمورين، بل خشي النبيّ عليهم أن يكونوا مغبونين مغدورين، فألقى على الجميع الحجّة، فما أعظم عِلم النبيّ وأسلم حسّه وأدقّ حدسه.

وعلى الرغم من التأكيدات الكثيرة و التحذيرات المتكرّرة للحفاظ على الرسول في أهله وولده وذرّيته سلامةً للرسالة، فإن الواقع شَهِدَ بغدرهم، ونطق التاريخ بتتابع الاعتداءات عليهم، وإقامة المجازر لهم ولأتباعهم، وبناء السجون لخنقهم...نطق بما جنته أيدي الأجلاف من قريش من التشويه والتشكيك والملاحقة والنفي والتصفية الجسدية، والى مادوّنه التاريخ «القاصر» وأحصاه ربّهم القاهر في ملفٍّ ضخم «في كتابٍ لا يَضلّ ربّي ولا

والباقلاني في إعجاز القرآن.

ورواها صاحب الغدير الذي روى أيضاً، حديث عمّه له -للنبيّ- قائلاً «... ولقد كان أبي يقرأ الكتب جميعاً، ولقد قال: إنّ من صلبي لنبيّاً، لوددت أني أدركت ذلك فآمنت به، فمن أدركه من ولدي فليؤمن به».

كان عمّه «أبو طالب» وصي جده «عبدالمطلب» أميناً على وصايا الأنبياء حتى سلّمها الى نبيّنا الأعظم. مرآة العقول ٣٦٢/١ وأجمع المؤرّخون أنهما ما عبدا وثناً أو صنماً، بل كانا يعبدان الله على دين إبراهيم الخليل عليه السّلام.

ينسى»(١).

أمّا أهون أساليب الظلم بحقّهم فقد تمثلت بالتدليس عليهم والسعي الدؤوب لطمس معالم معناهم ـ ولن تطمس ـ فطالما سعى معاوية سعيه المحموم لتشويه شأنهم الرفيع... وفي مرّة بلغ «عائشة بنت عاثم» ثلب معاوية و عمرو بن العاص لبني هاشم، فوقفت خطيبة على أهل مكة لتعلن قائلة:

«أيّها الناس، إن بني هاشم سادت فجادت، ومَلكَتْ ومُلِّكَتْ، وفضَلَت وفُضِّلَت، واصطَفت واصطُفيت، ليس فيها كدر عيب ولا إفك ريب، ولا خسروا طاغين ولا خازين ولا نادمين، ولا هم من المغضوب عليهم ولا الضالّين. إن بني هاشم أطول الناس باعاً، وأمجد الناس أصلاً، وأعظم الناس حلماً، وأكثر الناس علماً وعطاء...» وراحت تعدّد مناقبهم القيّمة وقضاياهم العظيمة، مستدلّة ببعض أسماء أعلام هاشم، وعطفت لتقارن بهم غيرهم من أهل المثالب والمخازي، ثمّ ختمت بذمّ معاوية وهدّدت بكشف حقيقة سمعته الفاسدة وأصلهِ المُلَوَّث، كما قابلته ـ فيما بعد ـ وجهاً لوجه فأماطت عنه نقابه وحسّرت لثام وجه ابن العاص وسفّهتهما معاً(٢).

ليس في أمجاد بني هاشم مبالغة أو خروج عن الحدّ الطبيعي في التقييم، بدليل ماورد في الرواية التالية: يمرُض الامام الحسن سبط الرسول، فيمضي عمر بن الخطاب لعيادته وفي الطريق يلتقي بالزبير فيدعوه، فيتردّد، فينبري عمر ليقول: «أما علمت أن عيادة بني هاشم فريضة، وزيارتهم نافلة»(٣). وفي رواية أُخرى: «... أن عيادة بني هاشم سُنة وزيارتهم نافلة».

و هناك الكثير الكثير مما يدلّل على علم الجميع و عدم جهلهم بالأمر، غير

---

(١) سورة طه: ٥٢.

(٢) المحاسن و الأضداد، للجاحظ: ص ٨٨ ـ ٩٠، بيروت ١٩٦٩م.

(٣) ذخائر العقبى، للطبري: ص ١٤ و ١٥.

أن تقلّب الأمزجة لدىٰ الطموحين بالدنيا، مع تباين درجات الجدّية بالتزام كلام الرسول العظيم قد حال دون مراعاة منطق الاصطفاء والمفاضلة. وحسبه «صلّى الله عليه وآله وسلّم» أنه قد بلّغ بكلّ ما أمره به ربّه بلا نقص أو تقصير، وحسبه أنه أشاد بالوجود الهاشميّ المجيد بغية التمهيد للأهداف الالهية وأداء الوظائف الحضارية، كما أشاد بنفسه الشريفة وكفىٰ به شرفاً: «أنا سيّد البشر ولا فخر». «كذلك أرسلناك في أُمّةٍ قدخلت من قبلها أُمم»(١).

إنه و ابن عمّهِ عليّ كانا عميدا العائلة والعقيدة، وعمودا العترة والأُمّة، وجذور الشجرة الطيّبة الباسقة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، فضلاً عن باقي أعلام هاشم ذوي الأسماء التي لا تُغفل أو تُنسىٰ: كالشهيد حمزة، والعبّاس عمّ النبيّ، وذوالجناحين جعفر، وعقيل الذي هو بيت القصيد هنا، لأنه منجب البطل الطالبي «مسلم» هذا العَلَم اليعربي المتمتع بخصائص الشجرة الهاشميّة، وأحد الذين أتحفوا التاريخ بالقيم والمواقف وملأوا الصفحات البيضاء بأمجاد الوجود، ومجد الرجولة التي لا جدارة لغيرهم بالحظوة بها.

يقول شاعر الرسول الاعظم «حسّان بن ثابت الأنصاري» أثناء رثائه جعفراً:

وما زال في الاسلام من آل هاشم ... دعائم عِزٍّ لا تُرام و مفخرُ
بهاليلَ منهم: جعفرٌ، وابن امّهِ ... عليٌّ، ومنهم أحمدُ المتخيّرُ
و حمزة والعبّاس منهم، ومنهم ... عقيلٌ، وماء العود من حيث يُعصر

---

(١) سورة الرعد: ٣٠.

الفصل الأول

المجاهد عقيل بن أبي طالب

«لقد مررت بعسكر أخي، فأذا ليل كليل رسول الله، ونهار كنهاره، إلا أن رسول الله ليس فيهم، وما رأيت فيهم إلا مصلّياً، ولا سمعت إلا قارئاً (للقرآن). ومررت بعسكرك، فاستقبلني قوم من المنافقين...».

عقيل في جوابه لمعاوية

الخبير الاجتماعي:

فطاحل العرب نادرون، و فطاحل أهل الفضائل معدودون.

و أذا عُدَّ عقيل لكان المبرز اللامع نجمه فيهم... تميّز ابن شيخ البطحاء عنهم باختصاصه كعالِم بالأنساب، شديد الحرص علىٰ الصراحة برأيه، جريئاً بإعلان معلوماته، شهماً في مواقفه، شجاعاً في مواجهاته، فبزَّ أقرانه بشخصيّته النادرة الصفات... أنه أحد أهمّ أهل الفضائل الفطاحل العرب من بني هاشم العُلىٰ.

و لا يخفىٰ، أنه ليس كلّ عالم بالأنساب هو عارف بالانسان، يؤدّي التكليف عن الشرف والشريعة كما يؤدّيه عقيل سيّد المواقف الصعبة، علماً أن

هذا الاختصاص كان يومذاك حقلاً إرشادياً خطيراً يُميِّز رجالات الفضيلة عن روّاد الرذيلة ممن تشبّثوا بأُمور الأُمّة وتلاعبوا بمصيرها وهم يوحون للعوام أن لهم الفضل على غيرهم... فهو امتياز سام ومسؤولية كبيرة موفّقة، سيّما إذا تحمّل تبعاتها شجاع صريح قاطع وجريء، ليس بمزيّف ولا مُدلّس أو مداهن، نظراً لما تتطلبه المواقف من قرارات ملحّة تستوجب الاعلان ـ كأن يفضح طاغية أو مغتصب أو حاكم بأمره ـ فيستلزم نجاح دوره أن يكون صريح القول قويَّ القلب ثابت القدم، وليس لعقيل في ذلك منافسٌ يوم كان يمارس إجراء ندواته الواعية في مسجد الرسول العظيم محمد «صلّى الله عليه وآله وسلّم» ليميط اللثام عن سوءات بني أُميّة، وأصل أعوانهم، كبني العاص وبني معيط، وغيرهم.

كان العالم الجهبذ عقيل، رجلاً سياسياً و اجتماعياً و نفسانياً ـ بحكم اختصاصه وفطنته وذكاء فؤاده ـ فضلاً عن كونه تاريخياً ضالعاً بحوادث الأيام ووقائع الليالي، إذ استوفى العشائر والقبائل، بيوتهم وأُسرهم، رجالهم ونساءهم، سلبياتهم وإيجابياتهم، واستوعب مناقب الأشراف ومثالب الأجلاف.

أحاط بالقبائل علماً: أديانها و معتقداتها، أصنامها وعاداتها، أفخاذها وبطونها، رؤساؤها وزعماؤها، شعراؤها وبلغاؤها، تنقلاتها ورحلاتها، قوّتها ومقدرتها، حجمها وتعدادها ومدى سيادتها، حروبها وغزواتها، صراعها وتحالفاتها في سلمها وحربها، دواعي معاركها وضحاياها ونتائجها، ماقيل فيها: رثاءً أوهجاءً أو مديحاً... الى آخر تفاصيل قضاياها. ونعتقد أنه كان موسوعة تتسع لكلّ ما يجهله الجمهور من خفايا هؤلاء وأُولئك. كما امتاز عقيل بسعة معرفته حتى بخفايا المرأة وأسرار النساء، وهو أمر يَعِزُّ على أغلب الرجال، إذ سبر الأغوار فخبر الصالحات في خدورهن، والطالحات في فجورهن. يقول الجاحظ:

«وكان عقيل بن أبي طالب ناسباً عالماً بالأُمّهات، بيّن اللسان سديد الجواب، لا يقومُ له أحد»(١).

لذلك كلّه لم يعد لأكبر رجل الجرأة في أن يفخر بمحضر الخبير بالمفاخر وأهل الفخر، بينما ساد في ذلك العصر نزوع نحو الزعامات بحجّة مفاخر معيّنة لا أصل لها ولا أساس، بل أنها كانت مصنوعة موضوعة بثمن بحس.

لقد خاف الرجال عقيلاً في زمن الجاهلية لنبله وإنسانيّته بمواقفه، فكيف يجرأ أحد أمامه في زمن يُحَمِّلُهُ الاسلام تكليفاً شرعياً ليقول كلمة الموقف صادقة صريحة وصارمة.

هذا ما يلاحظه كلّ من يدرس التاريخ ليلمس بنفسه أن معاوية بن أبي سفيان ـ أوّل ملوك الحركة الأُموية بعد عثمان ـ كان شديد الحيطة من أحاديث عقيل التي تفسد كلّ الاشاعات الأُموية الرائجة في فضائل ومفاخر من لا نصيب لهم في فضيلة، ولا حصّة لديهم بمضمار الفخر، السرّ الذي جعل معاوية يخشاه محاولاً مداراته وعدم الضغط عليه متمنّياً منه أن يطلب مايشاء ليحقّق أغراضه، عساه أن يكسب ودّه ولايثيرغضبه، لكن عقيل... البصير القلب الذكيّ الفؤاد يغتنم دوماً فرصة أداء التكليف ـ كما سيأتي بصفحات لاحقة إن شاء الله ـ.

و أنّى لمن يروم التفاخر و يعبث بالفضائل ـ كمعاوية و أمثاله ـ بمسمع عقيل العالم بامّهاتهم، كعلمه بآبائهم!!

و هذا ما يذكّرنا بطلب أخيه الامام عليّ منه أن يختار له زوجة «ممّن ولدتها الفحول» بعد فقده الصدّيقة البتول بنت رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم».

بينما تقودنا عبقرية عقيل الاجتماعية، وعلمه الغزير في حقل اختصاصه

---

(١) البيان و التبيين، للجاحظ: ١/٢١٥.

«الأنساب»، الى إدراكه لِكُنْهِ نسبهِ هو، وانحداره من شرف شجرة الخليل إبراهيم «عليه السّلام»، فهو يُدرك من هم الصفوة في الأرض وانتسابه السامي لهم بالتالي فإنه يُدرك ابن عمّه «محمَّد»، أليس عقيلاً هو ابن المكلّف بحماية «محمَّد»، أبوطالب الذي رأوه أولاده جميعاً كيف يحرص عليه كأشدّ مما يحرص عليهم آحاداً ومجتمعين؟ أجل، يدرك ابن عمّه محمَّد الصادق الأمين يوم كان شاباً قديساً مُدَّخراً لأمر عظيم، ويُدركه فيُصدّقه رسولاً نبيّاً يوم بِعثته «صلّى الله عليه وآله وسلّم» تبعاً لذلك فإن الاتجاه اليقظ لعقيل كفيل بقيادته الىٰ التصديق بالحق ابتداءً، والتسليم بالداعية المحرر بداهةً.

لقد كان الرجل واثقاً من نفسه، قويَّ الشخصيّة صريح الرأي، شديد المواقف، سريع الاجابة، لا يخشىٰ أحداً ولا يتلعثم أو يتلكّأ، ولو وجد فيه البعض نقيصة، أو عيباً في رأي أو موقف لتكرر تعييره به، في وقت كان تقييم الانسان رائجاً بأرقام مواقفه إزاء الدعوة للاسلام، وبالرغم من ذلك، فلم يحدث أن عيب عليه تأخره عن الاسلام، أو احتجّ عليه أفراد أو انتقصه البعض، أو عاتبه غيرهم، سيّما والرجل اتخذ دوراً في الحياة يثير نقمة وحنق خصومه عليه ليبحثوا عن كلّ ما يحرجه وجهاً لوجه، أو يجلب عليه الوقيعة والطعن بسلوكه ومواقفه.

و بعد، فهو من المسارعين للدعوة المحمَّدية، بتكتم ملحوظ لظروف أمنية تقتضيها أجواء الكفر بمكة... فعقيل بن أبي طالب أقرب الناس للداعية السماوي وأوعاهم بشأن شخصه، كما كان من أُولي الألباب بشواهد سيرته «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكّر أُولوا الألباب»(١).

---

(١) سورة الزمر: ٩.

المجاهد الصلب:

حاربِ تحت لواء النبيّ العظيم «صلّى الله عليه وآله» جنباً الىٰ جنب أخيه عليّ فارس الرسالة وسيفها... حتىٰ أن رسول الله صرّح بحبّه لعقيل حبّاً مضاعفاً -في حديث سنورده بصفحةٍ لاحقة إن شاء الله تعالىٰ-.

بينما يتوهّم البعض أنه حضر بدر مع المشركين هو والعبّاس عمّ النبيّ «صلّى الله عليه وآله وسلّم»، واذا صحّ وقوع ذلك فلا يعدو عن كونهما تحت قوة الاكراه... إذ قيل أنهما -عقيل والعبّاس- حضرا مع المشركين مجبرين مكرهين(١)، ثمّ يتضح الاضطراب الروائي ليزداد التشويه عمقاً حينما تقرأ ما قيل عن أنهما تأخّرا عن إعلان الاسلام حتىٰ فتح مكّة، فأسلم العبّاس بعد أن كان يكتم إسلامه(٢). والحال أنهما أسلما قبل ذلك بكثير وقبل بدر أيضاً، علىٰ كتمان من المشركين لعدم استتباب السلامة لهما، ثمّ اكرها على حضور بدر بتقدير صحّة حضورهما.

كان عقيل -حسبما أفادت أخبار يوم حنين- علىٰ درجة عالية من الشجاعة والبأس، قوياً شديداً في ذات الله، بدليل يوم انهزم من انهزم وهرب من هرب: «ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم، فلم تُغن عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ، ثُمَّ ولّيتم مدبرين»(٣). تاركين نبيّهم نهباً لنبال العدو ورماحه، فما ثبت سوىٰ نفر رابطوا حول النبي في قتال عنيف أدهش الكفّار، حدّدهم التاريخ وشخّصهم، فكان-فضلاً عن صاحب ذي الفقار والعبّاس-

---

(١) ذخائر العقبىٰ، للطبري: ص٢٢٢.

(٢) إسعاف الراغبين، للصبّان، مطبوع على حاشية نور الأبصار للشبلنجي، الطبعة الثامنة: ص٨٨ مصر ١٩٦٣م.

(٣) سورة التوبة: ٢٥.

عقيل بن أبي طالب صامداً صلباً في المواجهة يجالد الأجلاف بسيفه، كما سَجَّل البلاذري(١) مثلاً... وحضر مع رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم» عدة حروب اخرىٰ، فروي أنه شهد خيبر ومؤتة، نوّه الى ذلك المحقق المرحوم المظفر(٢).

لم يَكُفَّ عن الجهاد رغم كفاف بصره، فبعد أن كان علىٰ خطّ النار من فرسان سلاح الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم» نجده صلباً غير هيّاب للموت مع فوات الأوان ـ بذهاب بصره ـ يجتهد في خوض غمار الحروب ضدّ المناوئين للاسلام الصحيح المتمثل بشخص مجسّده الكبير عميد العدالة عليّ أميرالمؤمنين فقد كتب(٣) من المدينة المنورة الى الامام عليّ في الكوفة يُنبّئه عن كامل استعداده لتلقّي توجيهاته المناسبة لاتخاذ الاجراءات اللازمة، بغية التصدي للعدوّ الأموي، وذلك أيام تأزّم أوضاع الامّة وتعكير الحياة العامّة... يحدوه الىٰ ذلك اهتمامه بتكليفه مع شدة تتبّعه لواقع الامّة بقيادة الامام الذي يمسك بزمامها، فيما تشقّ عصاها من جانب آخر عناصر سافرة البغي يسوقها معاوية بن أبي سفيان زعيم التصدّي للاسلام النقي.

فبعث له الامام برسالة(٤) تقدير يهدؤه بها و يطمئنه فيها ويطيب خاطره ويعذره أيضاً، شاكراً صدق همّته واهتمامه وقوة موقفه.

هذه العلاقة العقائدية الراقية بين الأخوين لم تُعجب خصومهم والناصبين لهم العداء، الأمر الذي جعلهم يحاولون تصوير العلاقة بأنها دنيوية واهية قائمة

---

(١) أنساب الأشراف: ٣٠١/١ طبعة مصر.

(٢) سفير الحسين: ص ٦.

(٣) و (٤) أنساب الأشراف للبلاذري: ٧٤/٢، ٧٥ تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي، بيروت ١٩٧٥ بصدد الرسالتين المتبادلتين، أمّا بشأن رسالة الامام الجوابية فقد وردت بنهج البلاغة، شرح الشيخ محمّد عبده: ص٤٩٣، ٤٩٥.

علىٰ مدىٰ المنفعة المادية التي يجنيها عقيل، مستفيدين ذلك من شدّة صرامة الامام علي ازاء أموال الامّة ببيت المال، ومن عدم إتاحته لأيٍّ كان أن يطلب ما ليس له، ممّا حدىٰ بمعاوية الى أن يُسخِّر أموال المسلمين ويستثمرها لشراء الذمم الرخيصة، ومستفيدين ذلك من فقر عقيل نسبياً، ومن حادث «الحديدة الحارة المحماة» التي أدناها منه الامام علي «عليه السّلام».

و أول من حاول تشويه العلاقة الأخوية العقائدية هو معاوية نفسه حينما أخذ يموّه على الناس صورة بخل علي حتىٰ علىٰ أخيه، ويموّه حاجة عقيل له ـ لمعاوية ـ وتعلّقه به لكثرة إعطياته، وتفضيله للدنيا على الدين بزعمهم، وهكذا حبكوا الأكاذيب علىٰ أساس من تلك المقدمات.

يقول محبّ الدين الطبري: «فزعموا أن معاوية قال يوماً بحضرته ـ بحضرة عقيل ـ لولا علمه بأني خير له من أخيه ما أقام عندنا وتركه، فقال عقيل: أخي خير لي في ديني، وأنت خير لي في دنياي، وقد آثرت دنياي!»(١).

قول لا يليق بالعاقل العادي، فكيف يصحّ صدوره من عبقريّ فذٍّ يعيش حرارة المعارك المبدئية وهي في ذروتها مع الجاهلية المستجدّة بشكلها الأموي، وكان لعقيل قصب السبق في وعي عمق النزاع ودخول حلبة الصراع. فإذا صوّره الوضّاعون في فقر وفاقة تقوده نحو خصمه الأصيل، فقد فات المفترين أنه عمّ أبرز الأسخياء، كرماء آل محمّد «صلّى الله عليهم أجمعين» كالحسن والحسين وعبدالله بن جعفر سادة أهل الجود طرّاً من العرب والعجم، الذين عَمّتْ سمعة سخائهم أطراف الجزيرة، فيجيء الرجل لهم طالباً حاجته فلا يخرج إلا بما يفيض عن احتياجه وفوق مقدار مراده والذين طالما قاسموا الله عزّوجلّ ثروتهم، أين كان عقيل منهم؟ وأين كانوا هم من عمّهم؟ ولا يفوتنا

(١) ذخائر العقبىٰ: ص ٢٢٢.

كما فات المفترين أنه عاش في زمن حياة كرماء أهل البيت «عليهم السّلام» ليس قبلهم ولا بعدهم.

شاء المفترون تصويره أيضاً بضعف الايمان، وعدم الاحتياط في المواقف، وتصويره بالازدواجية الشخصيّة، وفقدان الإتزان، وتساهله بالالتزام المبدئي، وتسامحه بالسلوك السياسي، وأوحوا الىٰ كونه عاجزعن التماسك أمام صعاب الحياة بدون دعم معاوية، والحقّ الذي لابدّ أن يقال: هو أن ما ألصقوه به يُعدّ عيباً من جملة عيوب جسيمة كان عقيل بطل الميدان في حربها وسيّد الساحة في حرب أصحابها.

أجل، إن الشمم الهاشمي من شأنه، و الإباء المبدئي من جبلّته، والنبل والنزاهة من صفاته، جليل القدر، عزيز النفس، سامي المقام، رفيع المنزلة، حتىٰ أضحىٰ رمزاً من رموز الفخر والتفاخر لما في سيرته من مزايا فريدة نادرة، كباقي أقطاب العقيدة من بني هاشم. كما يشيد شاعر النبيّ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» «حسّان بن ثابت الأنصاري» بأمجادهم الجمّة:

و ما زال في الاسلام من آل هاشم ... دعائمُ عزٍّ لا تُرام و مفخرُ
بهاليلَ منهم: جعفرٌ، وابن أُمّهِ ... عليٌّ، و منهم أحمد المستخيّرُ
و حمزةَ و العبّاس منهم، و منهم ... عقيل، و ماء العود من حيث يُعصر

و إذا افتخر بهم حسّان بن ثابت، فيحقّ الافتخار لمن لهم أخوال في بني هاشم، كـ«قُدامة بن موسىٰ بن قُدامة بن مظعون الجمحي» الذي يقول:

و خالي بغاة الخير تَعلم أنّه ... جديرٌ بقول الحقّ لا يتوعّرُ
وجدّي عليٌّ ذو التقىٰ، وابن أُمّه ... عقيل، وخالي ذوالجناحين جعفرُ
فنحن ولاة الخير في كلّ موطنٍ ... إذا ما ونىٰ عنه رجال وقصّروا

بينما نجد «جعدة بن هبيرة المخزومي» ابن «أُمّ هاني» ـ اخت عقيل ـ وكان من الأشراف، يفتخر بحق إذ يقول:

أبي من بني مخزوم إن كنت سائلاً ... و من هاشمٍ أُمّي لخير قبيل
فمن ذا الذي يبأى عليَّ بخاله ... كخالي عليٌّ ذو العلا و عقيلِ

عقيل و أعداؤه:

الطلقاء و أصدقاؤهم الذين أولعوا بالكيد للرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم» والاساءة للاسلام، وقف لهم عقيل بالمرصاد يحصي عليهم عيوبهم ويعدّ عوراتهم أيام الجاهلية وأيام الاسلام، كاشفاً أبرز مشركي قريش، لئلّا يستبدّ الخداع فيتحكم الزيف، سيّما أنه يحسّ بمسؤوليته الكبرى لأنه الأعلم بالنسب كما أجمع المؤرّخون:

«... و كان عقيل أنسب قريش و أعلمهم بأيامها، ولكنه كان مُبغَضاً إليهم، لأنه كان يَعد مساوءهم»(١).

كيف لا يَعِد مساوئ الطلقاء الذين حاربوا الاسلام حرباً لاهَوادة فيها، ثم هاهم قد أُجبروا على إلقاء السلاح بقوّة عزة النصر السماوي لخصمهم الإلٰهي محمد الأعظم «صلّى الله عليه وآله وسلّم» نبيّ السلم والسلام، حاقن دماء كفّار قريش بمكّة المفتوحة بيده دونما دماء، يوم أعطاهم الأمان فاستسلموا خُضَّعاً خانعين، ثم هاهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، أسلموا وآمنوا طبق مناهج كيد ومكر بهذا الدين والنبيّ وأهل بيته الكرام، إذ أولعوا بالتقرّب نحو الامارة والحكم بالحيلة والغدر، فكان التميز لزاماً، إنطلاقاً من المعيار القرآني الذي يوحيه بتساؤله: «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون»(٢).

---

(١) نكت الهميان للصفدي: ص ٢٠٠، و ذخائر العقبى للطبري: ص٢٢٢.

(٢) سورة السجدة: ١٨.

إنه كان حجّة في وظيفته و دوره، لا لأنه كان أنسب قريش وأعلمها بأُصولها وفروعها وحسناتها وسيّئاتها فحسب، بل لما أولاه الله تعالىٰ من مواهب أكّدت مهمته الموجود لأجلها، فهو حاضر البديهة سريع الرد، مسدّد الجواب، ذلق اللسان، دع عنك أنفتهُ وعزة نفسه وشعور علوٍّ شرفه علىٰ الطبقاء وأصدقائهم الذين لا يخشاهم أو يهابهم... فما عجز عن جواب ولا وَهَنَ عن حجّة، كما قال الجاحظ سابقاً عنه انه «... لا يقوم له أحد» ويقول الطبري: «... و كان،رضي الله عنه، أسرع الناس جواباً، وأحضرهم مراجعة في القول، وأبلغهم في ذلك»(١).

و لعقيل الأولوية علىٰ أربعة علماء ـ بشهادة التاريخ طبعاً ـ هو أشدّهم شكيمة، وأقواهم عزيمة، وأصلبهم إرادة، وأنفذهم إدراكاً، وأمضاهم في ذات الله. يقول الصفدي:

«كان الذين يُتحاكم اليهم، و يوقف عند قولهم في علم النسب هم أربعة: عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل الزهري، وأباجَهم بن حذيفة العدوي، وحويطب بن عبدالعزىٰ... ثمَّ عَقَّب الصفدي بالقول: وعقيل أكثرهم ذكراً لمثالب قريش ـ أي طلقاؤها وانتهازيّوها ـ فعادوه لذلك وقالوا فيه بالباطل، ونسبوه الىٰ الحُمق، وأختلقوا عليه أحاديث مزوّرة»(٢) ونجحوابذلك نسبياً نظراً لاستبدادهم بالسلطة واستحواذهم علىٰ مقدّرات الامّة.

فمن اليسير على اللبيب تفسير اختلاف عقيل عن الثلاثة ـ الزهري، العدوي، العزىٰ ـ باختصاصه برسالية منطلقاته وحسّاسية أهدافه السماوية لكشف أقنعه الكفر الملثم لوجوه التجديد الجاهلي الذي بلغ ذروته أيام الحركة

---

(١) ذخائر العقبىٰ للطبري: ص ٢٢٢، و نكت الهميان للصفدي: ص٢٠٠.

(٢) نكت الهميان للصفدي: ص ٢٠٠.

الأُموية... إنه كان متميّزاً مبرزاً في زملائه الثلاثة ـ علماء النسب العاديين غير الرساليين ـ منعزلاً عنهم لأنه يأبىٰ الانعزال عن ساحة الوجود العقائدية التي يجول فيها كلّ أعضاء بيت آل محمّد «صلّى الله عليه وآله وسلّم» فامتيازه عن الثلاثة دليل إمعانه في تلبية نداء إيمانه... كافراً بعلم النسب إذا كان خادماً للطغاة والأشقياء «محرّفي الكلِم عن مواضعه».

«و كانت له قطيفة تفرش له في مسجد رسول الله «صلّى الله عليه [وآله] وسلّم» يصلّي عليها ويجتمع اليه الناس في علم النسب وأيام العرب»(١).

لوحده و بمفرده، يخوض غمار معركة الكلمة والمعتقد، منتصباً بوقاره صلباً في صراع الأصالة والنسب، لا يستوحش أو يخشىٰ إلا الله في هجومه علىٰ قريش مشركة بالربّ مستهزأة بالنبي كافرة بالتنزيل، أو هجومه عليها أُموية تشكك بخبر الوحي مقاتلة لعليّ عابثة بالتأويل،ومثل هذا العنصر العنيد لا يتركه خصوم الأصالة بلا تشويه أو تزوير أو اختلاق، غيرأن من سمات الرجولة الجليلة أن تكون موضع بغضٍ وكراهةٍ ممن ليس لهم حظّ في فضيلة من الفضائل الضرورية للانسان السوي... كان الرجل سلطة مستقلّة بما يمثله من حجّة في علومه المدعومة باعتبارات الاسلام وقيمه ومفاهيمه النزيهة حول طهر المنبت وطيب الارومة والمحتد... يعطي أهل الحق حقهم من مناقبهم، ويفضح أهل الباطل من باب مثالبهم، بواقعية لا يملك أحد أن ينفيها وذلك من وسط مسجد الرسول الأعظم «صلّى الله عليه وآله وسلّم» حيث اتخذه مركزاً لعقد ندواته الموضوعية العامّة.

رافضاً التشبّه بعلماء الأنساب الذين اتخذوا النسب سبيلاً لعقد جلسات السمر الناعمة طوال السهرات اللامسؤولة حين لا يعملون خيراً ولا يقيمون

---

(١) نكت الهميان للصفدي: ص ٢٠٠، و ذخائر العقبىٰ للطبري: ص٢٢٢.

حقاً أو يدفعون باطلاً، بكلمة واحدة ضدّ شبهة شائعة.

عقيل ومعاوية:

نُقدم -فيما يلي- صوراً مختلفة متفرقة تنفي أقاويل خضوع عقيل للدنيا، وتفنّد كونه يميل الىٰ معاوية، وتلغي أنه طلب منه أموالاً، خلال اللقاءات الجارية يومها بينهما بمكة أو المدينة أو دمشق -كما قيل أنه لقيه بها-. أسفرت تلك اللقاءات المتعددة عن تصريحات هامّة لعقيل ضدّ معاوية، حتى ظهر رأيه واضحاً جليّاً في خصمه وسائر بني اُمية، بمحضر حاشيته وبمسمع الناس، وبشكل علني ونطق واضح، دون استعمال الرموز أو التلميحات والكنايات.

في مرة تورّط معاوية حينما حاول التعريض بسلوك رهط الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم» بقوله لعقيل: إن فيكم لَليناً يا بني هاشم! فكان جوابه: أجل، فينا ليناً من غير ضعف، وعزّاً من غير عنف... وان لينكم يا معاوية غدر، وسلمكم كُفر (وبرواية اخرىٰ وعزّكم كفر) فتألّم معاوية وحاول أن يسعف الموقف ويغيّر مجرىٰ الحديث، لكن عقيل أضاف:

لذي اللُبّ قبل اليوم ما تُقرع العصا وما عُلِّم الانسان إلا ليعلما(١)

و كان مكفوف البصر يوم قال له معاويه: «أنتم يا معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم» فبادره ببداهة الجواب: «وأنتم يا معشر بني اميّة تصابون في بصائركم»(٢).

بينما أشاع الأُمويون كون الهاشميين مصابون بالشبق الجنسي، وطالما يتبرع

---

(١) العِقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي: ٤/٧٩.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

معاوية بنفسه فينال منهم ويُعرِّض بهم، فيجد نفسه متورّطاً مفضوحاً، فقد تظاهر ـ كعادته ـ بالمزاح مع عقيل إذ يقول له: «ما أبين الشبق في رجالكم يا بني هاشم» فأسمعه جواباً سريعاً حاضراً: «لكنه ـ أي الشبق ـ في نسائكم أبين يا بني أُميّة»(١) ويسكت معاوية مضطرّاً مبهوتاً... أو ليس هذا هو «العالم بالأُمّهات»؟!

في أحد الحالات حاول أن يسخر من عقيل لأن(٢) عمّه «أبو لهب»!! علماً أن «أبالهب» عمّ النبيّ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» أيضاً... متجاهلاً أن زوجة أبي لهب هي عمّته هو ـ معاوية ـ والاخت الحميمة لأبي سفيان يوم كانت تشاطره نشاطه في إيذاء رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم» ففي ذات يوم أقبل عقيل، فالتفت معاوية لعمرو بن العاص قائلاً: لأُضحكنك من عقيل، فلما دخل رَحّبَ به معاوية: مرحباً، مرحباً بمن عمّه أبولهب! فردّ ترحيبه بقوله: وأهلاً بمن عمّته حمّالة الحطب في جيدها حبل من مسد... فلم يكترث لعار عمّته وراح يتساءل: ماظنّك بعمك أبي لهب؟ فأجابه بلباقه دون تأخير: إذا دخلت النار، فخذ على يسارك تجده مفترشاً عمّتك حمّالة الحطب»(٣).

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري: ٧٢/٢ تحقيق الشيخ المحمودي، ورواه ابن عبد ربه الأندلسي وغيره.

(٢) كان معاوية يأمر أهل الشام بشتم الامام عليّ لأن عمّه أبولهب، لهذه العلّة ولهذا التشجيع والتشويق يأمرهم فيلبّون، علماً أن علّة الشتم يشترك بها النبي محمد العظيم «صلّى الله عليه وآله وسلّم» أكثر من ذلك، إن النبي نصّ على كفر من يسبّ علياً، ففيما قال «صلّى الله عليه وآله وسلّم»: «من سبّ علياً فقد سبّني، ومن سبّني فقد سبّ الله» وهذا ما تستهدفه «عبقرية» معاوية، الذي جعل سبّ عليّ سُنّة جارية. الحديث رواه صاحب مستدرك الصحيحين: ١٢١/٣. وكنزالعمال: ٤٠١/٦ وذخائر العقبى: ص٦٦، والرياض النضرة: ١٦٦/٢ ورواه النسائي في خصائصه، وأحمد بن حنبل في مسنده ٣٢٣/٦

(٣) رواه ابن عبد ربه الأندلسي بغير هذا اللفظ المنقول عن كتاب «الحسين و بطلة كربلاء» لمحمد جواد مغنيّة ص١٤٨و١٤٩.

و يروي المسعودي سؤال معاوية: «كيف تركت عليّاً؟»-أي كيف خلّفته حتىٰ آخر أيامه-أجابه بكلمة الحق الصراح: «تركته على ما يحبّ الله ورسوله... وألفيتك علىٰ ما يكره الله ورسوله»(١).

كما أنه يعلن عن مواصفات رجال الامام علي أمير المؤمنين وإيمانهم، مع إقصاء جند معاوية عن الدين والايمان، حينما سأله متفكّهاً: «أخبرني عن عسكري، و عسكر أخيك» فلم يبادله فكاهته بل أجابه بجدّ رصين: «لقد مررت بعسكر أخي، فاذا ليل كليل رسول الله، ونهار كنهاره، إلا أن رسول الله ليس فيهم، وما رأيت فيهم إلا مصلّياً، ولا سمعت إلا قارئاً (للقرآن)... ومررت بعسكرك، فاستقبلني قوم من المنافقين، ممن نفّروا برسول الله ليلة العقبة ناقته...»(٢).

فالذي يطلب المال من معاوية لا يخاطبه بلغة الحقائق الدامغة، وبكلمة الحقّ الفاصلة المرّة. ولم يكن معاوية المعترف الوحيد بقوة شخصية هذا العَلَم الاسلامي الهاشمي صاحب المجد الذي صرح به خصمه، إذ قال لعقيل بعد حوار معه: أنتَ والله كما قال الشاعر:

و إذا عددت فخار آل محرّق فالمجد فيهم في بني عَتّاب

«فحلّ المجد من بني هاشم منوط فيك، ما تغيّرك الأيام والليالي». فقد عُرف عنه كونه ثابت الشخصية غير متذبذب، لا تأثير للزمن علىٰ مواقفه الصلبة، حريصاً على الصرامة في الاجابة، كما قال لمعاوية:

اصبر لحرب أنتَ جانيها لابدّ أن تصلىٰ بحاميها

فاغتاض جانيها بمجلسه قائلاً: «فإني لم أجلس لهذا، و إنما أردت أن

---

(١) مروج الذهب للمسعودي: ٣/٤٦.

(٢) الغارات للثقفي: ١/٦٤، ٦٥، وأُسد الغابة: ٣/٤٢٣.

أسألك عن أصحاب عليٍّ، فإنك ذو معرفةٍ بهم». فلم يعارض لأن في ذلك منفذ لإعلان الحقائق، لذلك أبدىٰ استعداده قائلاً واثقاً: «سل عمّا بدا لَكَ» قال معاوية: «ميّز لي أصحاب عليٍّ، وابدأ بـ«آل صوحان» فإنهم مخاريق الكلام». فشرع عقيل يقول عمّن ادهشوا العدو وأعجبوه خلال قتالهم العقائدي الشديد، خصوصاً يوم صفّين:

«أمّا صعصعة (ابن صوحان) فعظيم الشان، عضب اللسان، قائد الفرسان، قاتل الأقران، يرتق مافتق، ويفتق مارُتق، قليل النظير... وأمّا زيد وعبدالله، فإنهما نهران جاريان، يصبّ فيهما الخلجان، ويغاث بهما البلدان، رجُلا جدٍّ لا لعب معه... وبنو صوحان كما قال الشاعر:

إذا نزل العدو فأن عندي أُسوداً تخلس الأُسد النفوسا(١)

فالذي يطمع بأموال السلطان يفترض به أن لا يُشيد بأعدائه المبدئيين، وإنما يُشيد بالسلطان وجنوده، إنتظار للمال الوفير، لكن العكس هو الواقع الشاخص هنا، فأين أدلّة مادية لقاءاته ودنيوية علاقاته بمعاوية.

لنقرأ الرواية التالية: دفع معاوية «مائة ألف درهم» لعقيل دون أن يطلب منه ذلك، وقال معاوية كأنه يَمُنّ عليه: «والله إن عليّاً غير حافظ لكَ، قطع قرابتك، وما وصلك، ولا اصطنعك». يُلاحظ منطق التمويه الذي بنىٰ عليه أئمة التدليس ـ على سُنّة معاوية ـ أقاويل التشويه، فردّ عليه عقيل بلهجة شديدة يتبين فيها التعنيف والتوبيخ:

«والله لقد أجزل العطية و أعظمها، ووصل القرابة وحفظها، وحَسُنَ ظنّهُ بالله إذ ساء به ظَنّكَ، وحفظ أمانته وأصلح رعيّته، إذ خنتم وأفسدتم... فاكفف لا أباً لك، فإنه عمّا تقول بمعزل». والتفت الىٰ الحاضرين بمجلس معاوية وهم

---

(١) مروج الذهب للمسعودي: ٤٦/٣، ٤٧. وثمة تتمة للرواية.

من الشاميّين ليستطرد بدون توقّف كما في الرواية:

«وصاح: يا أهل الشام لقد وجدتُ أخي قد جعل دينه دون دنياه، وخشي الله على نفسه، ولم تأخذه في الله لومة لائم. ووجدت معاوية قد جعل دنياه دون دينه، وركب الضلالة واتبع الهوى، فأعطاني ما لم يعرق فيه جبينه، ولم تكدح فيه يمينه. رزقاً أجراه الله على يديه، وهو المحاسب عليه دوني، لا محموداً ولا مشكوراً». ثم التفت الى معاوية المخفق في عملية المتاجرة والتمويه، وقال له مازاد من بياناته المكرّسة لمصادرة شخصية معاوية، ومصادرة خلافته، وطمس إمرته للمؤمنين المغصوبة: «أمَ والله يا ابن هندٍ ماتزال منك سوالف يَمُرها منك قول وفعل، فكأني بك وقد أحاط بك ما الذي منه تحاذر...».

فاستشاط معاوية، و دار بينهما كلام غاضب. ورمى عقيل بـ«المائة ألف درهم» وغادر المجلس الملكي، فيما ندم معاوية لماجرى، وحاول إرجاعه للمجلس، فترجّاه واستعطفه، مخافة مخاطر لسانه لو تركه عظيم الغيض عليه، فكتب خطّياً اليه:

«أمّا بعد يا بني عبد المطلب: أنتم والله فرع قصي ولُباب عبد مناف وصفوة هاشم، ولكم الصفح الجميل، فإن أحلامكم لراسخة وعقولكم لكاسية، وحفظكم الأوامر وحبّكم العشائر... ولكم الصفح الجميل والعفو الجزيل، مقرونان بشرف النبوّة وعزّ الرسالة... وقد والله ساءني ماكان جرى، ولن أعود لمثله الى أن أُغيَّب في الثرى...».

فلم يستحب للرجوع، واكتفى بالردّ برسالة يأبى فيها الرجوع... لكن معاوية ناشده بالحاح في رسالة ثانية، وحينما عاد والتقيا كان الشمم الهاشمي واضح المعالم، فردّد عقيل هذا البيت:

و إني امرؤ منّي التكرم شيمة إذا صاحبي يوماً على الهون أضمرا

و استطرد قائلاً بقوة القَسَمْ «وأيم الله يا معاوية، لئن كانت الدنيا

أفرشتك مهادها، وأظلّتك بحذافيرها (سرادقاتها برواية) ومدت عليك أطناب سلطانها، ماذاك بالذي يزيدك مني رغبة...»(١).

أهذه هي الحادثة التي قام بتوظيفها أئمة التلفيق للاطاحة بخاصية عقيل في الثبات على المعتقد والمبدأ، وللأيحاء بتذبذبه في حياته باتجاه الدنيا والمادة؟!

أهذه هي الحادثة التي استلهم منها الوضّاعون ميله لمعاوية وتخلّيه عن أخيه؟!

لقد كان عارفاً تقياً متمسّكاً بدينه، لا يتردد لواجب في ميدان حرب، أو واجبٍ في ساحة سلم، لعلمه الجم وإحاطته بالمعارف المتعددة «ولعقيل يداً في الحديث والفقه والتفسير». كما قال المحقق المظفر(٢) رحمه الله تعالىٰ... لم يُرد أن يكون مثل نظرائه علماء النسب الذين يجهلون واجباتهم الرسالية، أو لا يمارسونها، ولَعاً بمجلسات الأنساب الساهرة... يقول النبيّ الأعظم «صلّى الله عليه وآله وسلّم» عن علم هؤلاء العلماء بالنسب: «... ذاك علم لا ينفع من عَلِمَه ولا يضرّ من جهله: إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، وفريضة قائمة، وسنّة متّبعة، وما خلاهنّ فهو فضل»(٣). ولوتتبعنا حياة عمل عقيل لوجدنا عنفوانه في تحدّي عمليات العبث بالتأويل، وباتباع السنّة، وملازمته التامّة للامام عليّ أمير المؤمنين الذي قاتل اتباعاً للسنّة ودفعاً للبدعة وإقامةً للفرائض الإلهية، وحرصاً على التأويل، كما ابتدأ عمره فارس معركة التنزيل... كان ملازماً للامام أمير المؤمنين، مكتسباً علومه منه، صائناً لسيرته بها، مدافعاً عن حقائق السنّة والقرآن من خلالها.

و هذا سرّ حبّ الرسول الأعظم «صلّى الله عليه وآله وسلّم» لعقيل ـ كما

---

(١) العِقد الفريد: ٤/٧٨، ٨٠.

(٢) سفير الحسين «عليه السّلام» ص ٦.

(٣) الكافي لثقة الاسلام الكليني: ١/٣٢ وما خلاهن من العلوم فهو فضل يعني زيادة أو فضيلة

سيأتي- والسبب الذي دفع معاوية للاعتراف بقوة شخصيّته: «... ما تغيّرَكَ الايام والليالي» -في رواية سابقة-. فالمجاهد الفذ «عقيل» عاش ثابت المواقف دوماً، شديد الثبات أبداً «يُثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويُضلّ الله الظالمين، ويفعل الله مايشاء»(١).

(١) سورة إبراهيم: ٢٧.

الفصل الثاني

مسلم بن عقيل

جهاده منذ ربيع عمره

كان مسلم جنديّاً وفيّاً من فرسان الفتوحات الكبرىٰ، وقائداً قويّاً في المعارك الضارية، ورائداً ربّانياً يخوض غمار التغيير السياسي لإحياء التحرّك الثوريّ الكوفي.

الوالدة و المولد:

حريّ بصاحب الخبرة الاختصاصيّة(١) والإضطلاع بقضايا النساء، أن يحظىٰ لنفسه باختيار المرأة المناسبة، حرصاً في أن تنجب له أنجالَ نجباء، يحفظون ذكر دوره الجليل الممتد في مجالات المجد... وليس ثمّة منافس لعقيل في قابلية تعيين هذه المرأة من بين النساء، وقد ألمحنا الىٰ كون الإمام أمير المؤمنين «عليه السّلام» خوّلهُ اختيار خليلة له «ولدتها الفحول» ثقة عزيزة منه بدقة عقيل في النظر النزيه والباصرة الفاحصة في ساحة النساء... وكما نجح تماماً في هذا التكليف التاريخي إذ انتخب التي أنجبت للامام عليّ «العبّاس وإخوته» سيوف رسالته. كذلكم نجح في انتخابه خليلته الخاصّة به، من بين

---

(١) كما رأينا في الفصل السابق الخاص بترجمه حياة عقيل.

اللواتي حظين بالشرف الرفيع وطيب الأُرومة، لأنه صاحب الاختصاص والامتياز بلا منازع، فألقىٰ بعينه بعيداً، طموحاً ـ ككلّ الهاشميين ـ بذرّية نموذجية فذّة.

أمّا ما إذا كانت امرأة عقيل، حرّة أو جارية، حجازية أو شامية أو يمنية، عربية أو رومية أو فارسية، قرشية أو نبطية، فليس مهماً بمقدار أهمية التحرّي عن طبيعة الأصل والتحقّق من مواقع المآثر، والتعرف علىٰ نوع المنبت ولا مراء أن نُبل المرأة المثلىٰ ـ أُمّ مسلم ـ يعكسها الزوج الجليل ذلك الأب العبقري العريق النسب والمحتد، ويؤكّدها الابن المبدئيّ المبجّل، الذي يعوضنا شخصه عن التقصير المتعمّد للمؤرخين في الاشارة اليها وتعريفها، إذ يعكس لنا شأنه الشريف، شأنها المنيف: كريمة البيت؛ زكيّة المنبت، نقيّة النفس، كفوءة التكليف بالنطف الطيبة، جديرة بمسلم واخوته سيوف الحسين ريحانة الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم»، جديرة بالمجد في: الحمل والرضاعة، والحضانة والتربية، وهذه أدنىٰ حدود معرفة فواضل النساء ومكرمات أُمّهات الكرام، حينما يمتنع المؤرّخ الخائف من حكّامه عن تدوين أمجاد امّهات الذين عارضوا وقاوموا وقاتلوا أنظمة السياسة الفاسدة الكافرة... فان أبسط جهود التحقيق تقود الى حقيقة تعمّد تجاهل امّهات المعارضين العظماء. فعن أُمّ مسلم بخل المؤرخون بغير هذا النص:

يقول ابن قتيبة «كانت أُمّ مسلم بن عقيل نبطية من آل فرزندا»(١). ومن الصعب تحديد كونها زوجة عقيل الاولىٰ أو الثانية، لعدم وجود تفاصيل في ذلك... والنبط هم من قدامىٰ سكان العراق، أقاموا به دولة امتدت الىٰ الجزيرة العربية، واستمرت طويلاً بتعاقب ملوكها ذوي الأسماء العربية، التي

---

(١) المعارف لابن قتيبة: ص ٢٠٤، ط ٢ مصر ١٩٦٩م.

ضربوا بها نقودهم كما سنّوا لهم القوانين والنظم.

إن الرأي الذي نقله ابن قتيبة غير مستبعد، ولا هو متعارض مع حقيقة أو قرينة... بينما توجد رواية أُخرىٰ متعارضة مع كثير من الحقائق وترفضها كلّ الشواهد وتنفيها أبسط القرائن، هذه «الرواية» أكّد التحقيق أنها ملفّقة مصنوعة، وأنها من «حكايات» رواة بني اميّة كالمدائني صاحب الحكايات الكثيرة في تحريف أذهان المسلمين بمدح حركة الامويّين أهل الحلم والجود والكرم والفضائل علىٰ الناس!! كالعدل والإنصاف وبسط المساواة واللطف! لما تميّزوا به من رجاحة العقل!! كما توحي حكايات المدائني وأصدقائه في الميل والاتجاه، بدليل ماتلمسه من أغراض التضليل في «موضوعة» المدائني القاضية بأن عقيل في آخر أعوامه وقد كفّ بصره أعجبته جارية لا يملك ثمنها فطلبه من معاوية الذي اشتراهاله بكلّ «سخاء» فأولدت له مسلماً، ولما مات عقيل وأصبح عمر مسلم ثمانية عشر عاماً، باع أرضاً ـ كانت لأبيه ـ لمعاوية وقبض منه الثمن، فكتب الامام الحسين «عليه السّلام» لمعاوية أنه غير راضٍ بالبيع والشراء، فاضطرّ معاوية «الحليم الكريم!» أن يرجع الأرض لهم ووهبهم المال، فعجب الامام الحسين لهذا الصنيع ليكتب له «شاكراً ممتناً» بقوله: «أبيتم يا آل أبي سفيان إلا كرما»(١) أرأيت كيف أنّ الحاكي يصوّر ريحانه الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم» يهش لأموال المسلمين التي يسرقها «آل أبي سفيان»!! وكيف يجعل من سليل القداسة أداة يستخدمها لتكريم سليلي الرجس والدنس أعداء الرسالة!! أرأيت كيف يصوّر صراع آل محمد العظيم «صلّى الله عليه وآله وسلّم» مع آل أبي سفيان على أنه خاضع لاعتبارات دنيوية مادية، فإذا ما ملأ معاوية كفّ الامام مالاً سكت مستأنساً وكتب

(١) رواها ابن أبي الحديد المعتزلي خلال شرحه لنهج البلاغة: ١١/٢٥١، ٢٥٢ ط ٢ مصر.

شاكراً لآل أبي سفيان وصفقات السرقات من الامّة، متناسياً علاقته بمبادىء السماء!! حاشا للذات القدسية الحسينية أن تكون بالمستوىٰ الذي يتخيّله من تسوّل لهم نفوسهم تضليل المسلمين.

إنها من حكايات محاولات تمييع جانب المواجهة، و تذويب طابع الصراع الصارم ضدّ بني اميّة، تقليلاً لظاهرة التحدّي القائمة طبق التحرّج الشرعي الملموس لآل محمد «صلّى الله عليه وآله وسلّم» وعموم بني هاشم عبر تاريخ سيرتهم المبدئية. فأنت ترىٰ فيها أيضاً اعتماد عقيل علىٰ معاوية في معيشته وزواجه ـ كما اتفق الملفّقون المشار إليهم في الفصل السابق حول حياة عقيل ـ.

ولو أن والدة مسلم جارية جاءت ـ كما قضت الحكاية ـ لاستغلّ ذلك خصومه كابن زياد والعناصر الامويّة التي تحيّرت بكيفية إحراجه وانتقاصه وغمزه والطعن به من حيث امّه، واضطرّ ابن زياد أن يتّهمه بأنه كان «يشرب الخمر بالمدينة» لأن الحوار إذا خلا من الطعن والغمز والانتقاص- ولو بالافتراء- لا يستذوق طعمه الطغاة، فامّه كانت تتحلىٰ بسمات الفضيلة، مما أعجز العدو عن النيل به من خلالها... وإلا لقيل له ـ علىٰ الأقل ـ بلهجة الاستنكار أنه يحارب خلافة معاوية الذي اشترىٰ امّه الجارية وزوّجها لأبيه عقيل، وهو منتهىٰ التوهين بمقاييسهم ومنطقهم المعروف.

فضلاً عن تلك الإعتبارات، فإن التحقيق العلمي ـ عن الروايات ـ يُلغي أهمّيتها لدىٰ علماء السنّة والشيعة، فالرواية مرسلة، منقطعة الإسناد، والمدائني لا يوثق بمروياته، ويشكّ بأحاديثه حتىٰ أهل السنّة «كابن عدي في الكامل»(١) إذ عدّه ضعيفاً، بينما أكّد «ياقوت»(٢) أنه مولىٰ للأمويّين. وهذا

---

(١) لسان الميزان لابن حجر: ٤/٢٥٣ وقد ألفت النظر الىٰ ذلك وقام بمناقشة الرواية بشكل ضافٍ العلّامة الجليل والبحّاثة المحقق المرحوم عبدالرزاق المقرّم «طاب ثراه» بكتابه «الشهيد مسلم بن عقيل».

(٢) معجم الادباء: ٥/٣٠٩. ط٢ مصر ١٩٢٨م.

كافٍ للحطّ من شأن الرواية حتىٰ لو كانت خالية من التناقضات الفاسدة في داخلها.

من جهة أُخرىٰ، و فيما يتعلّق بعمر مسلم، تصطدم الرواية «الحكاية» بالواقع وبشدة، فإن عمره الشريف يدلّ على كبر سنّهِ خلافاً لإيحاء الرواية بكونه ـ في أيام معاوية وتحت وصاية الامام الحسين «عليه السّلام» ـ في عقد عمره الثاني، وهذا ما تبطله تاريخياً بعض الأحداث، فإذا قلنا أن مولده المبارك كان في حياة النبيّ الأعظم «صلّى الله عليه وآله» تظافرت القرائن الدالّة كي تنهض بهذهِ النتيجة كما يلي:

أولاً: إشترك ـ و في أيّام خلافة عمر بن الخطاب ـ في الفتوحات الإسلامية، كفتح «البهنسا» بنصّ الواقدي(١).

ثانياً: إشترك في صفّين، و هو بمستوىٰ القادة الآخرين ضمن جيش الإمام أميرالمؤمنين عليّ «عليه السّلام»، نصّ على ذلك ابن شهراشوب(٢).

ثالثاً: إختاره الإمام الحسين ريحانة الرسول «صلّى الله عليه وآله» ليمثّله شخصياً بشتىٰ الشؤون في الكوفة أحد أهم الأمصار الإسلامية وأكثرها تعقيداً فلو كان عمره قريباً مما توحيه الرواية وسلوكه في المعاملات كذلك، لكان بغيره من الهاشميين الكفاية، لكن الإمام اختاره لكبره ولما في وعيه وعلمه وتصرفاته من الكفاءة.

رابعاً: إشتراك بعض أولاد مسلم في ساحة القتال بكربلاء يُصوِّر لنا سنّه الكبير بمقدار ـ مهما قُدِّر ـ يُبطل «الحكاية» ويطيح بمعطيات الحبكة غير الذكيّة.

هذه الدعائم الأربع التي تعكس صورة رجل رسالي مسلّح ناهز الخمسين

---

(١) فتوح الشام: ٢/٢٣٤. وفتوح البهنسا الغراء لابن المعز: ص١٣٥. وسنشير ثانية الى هذا المعنى بصفحة لاحقة ضمن هذا الفصل.

(٢) المناقب: ٣/١٦٨، والفتوح: ٣/٣٢، وسفينة البحار: ١/٦٥٣.

عاماً حين دخوله الكوفة، قائداً لحركة التغيير السياسية الشاملة.

إن حضوره في فرسان فتح «البهنسا» في زمن عمر بن الخطاب لا يسوّغ لنا غير اعتماد رأي مولده الأغر في حياة سيّد المرسلين(١) «صلّى الله عليه وآله» أو في أواخر حياته المقدسة... ونعتقد بنحو راسخ أن الفارق الزمني بين عمر الإمام الحسين «عليه السّلام» وعمر ابن عمّه مسلم لا يتجاوز البضع سنين، الأمر الذي يفسّر نوعية تعلّق أحدهما بالآخر، لما بينهما من المحبّة الرحمية والصداقة القديمة والصحبة الحميمة، حتىٰ أن الحسين «عليه السّلام» كان يعتمد عليه اعتماداً رسالياً تامّاً، كرجلٍ جليل القدر سديد الرأي، لا مجال لتصوّره غلاماً غرّاً قريب عهد بتصرفات الولد القاصر، يوليه الإمام كامل الإهتمام، كرجل عميق الفكرة خصب الخبرة، حتى عَبَّرَ عنه الحسين تعبيراً لم يحظ به سواه، يوم قال عنه: إنه «أخي، وابن عمّي، وثقتي من أهل بيتي»(٢). مفصحاً عن طول الصحبة، مجلياً قِدم الصداقة، وعمق الاخوة، وكان نجيّاً للحسين «عليه السّلام» ومحلّ أسراره وموضع رأيه، ثابت الثقة به موقراً إياه.

أجل، لقد ولد مسلم «سلام الله عليه» في رحاب بيوتات المجد والسؤدد، وفي كنف العوائل التي أنجبت العظيم محمد «صلّى الله عليه وآله» واحتضنت نبوّته، مستقبلة رسالة الصادق الأمين الذي سمّي في السماء بأحمد «صلّى الله عليه وآله».

و نشأ «مسلم» في أشرف بيوت قريش، بيت بني هاشم العلى، وترعرع في رحاب الأُسرة الهاشمية التي شكّلت امتداداً ذاتياً للمتبنّيات النبوية العظمىٰ، وقد نيطت بها الدعوة الإسلامية وحفظ الوحي، وحراسة الرسالة السمحاء،

---

(١) وهذا ما ذهب اليه المحقّق المرحوم المقرّم طاب ثراه.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٢٦٢، والإرشاد للشيخ المفيد ص٢٠٤ وغيرهما.

فكان ابن الأطايب والأماجد من صفوة الصفوة لآل المصطفىٰ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» كما أراد منهم ربّهم الذي اختصّهم فاختارهم: «وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ»(١).

فتىٰ الفتوح و رجل الجهاد:

الشجاعة الخارقة المشهودة لمسلم كسمة من أشهر سماته لم تأت من التدريبات البدنية فحسب، وإنما جاءت أيضاً من تعاطيه العلم والعرفان في مدرسةٍ وُفّقَتْ بنجاح بين دروسها والسلاح، مدرسة أفلحت بمعلّمين غير عاديين، وحظيت بأساتذة غير ضعفاء ولا نظريّين... فمن هم هؤلاء الذين علّموه ودرّسوه؟! إنهم معلّمو الامّة وأساتذة الإنسانية الذين كان سيّد الكائنات وأشرف البشرية قد خصّهم بعلمه وحكمته دون غيرهم من الناس، إنهم: أخو النبيّ وابن عمّه، وريحانتاه من الدنيا.

قد زاحم أقرانه و الصحابة و التابعين في وقوفه عند «باب مدينة العلم» عليّ أمير المؤمنين وريث علم خاتم النبيّين «صلّى الله عليه وآله» فتشرّب من عمّه التقوىٰ واليقين، وارتوىٰ من نمير علوم عليّ العظيم، مستلهماً منه الصفات والمزايا الحيدرية... انه شاطر الهاشميين الهيبة والشمائل وسائر السمات كالعلم والحلم والأناة، والسؤدد والإباء والشمم... يلتهب حماساً ليمتلئ وعياً وعرفاناً وعلماً جمّاً، حتىٰ صار يَصْدُق عليه قول أحد معاصريهم: «إنهم أهل بيت زقّوا العلم زقّا»، ويشمله حديثه «صلّى الله عليه وآله وسلّم» إذ قال للناس: «لا تعلّموهم، وتعلّموا منهم، فإنهم أعلم منكم».

هذه هي مدرسة «مسلم» تلميذاً فيها واستاذاً منها. أعظم مدارس الإسلام

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٤.

والإنسانية، التي كانت تلقي أيضاً دروس البسالة والبأس الشديد، ومعاني البطولة والرجولة. كان ابن عقيل بن أبي طالب «رضوان الله عليهم» عالماً ومقاتلاً وقائداً، من أجرأ الرجال، وأشدّ شجعان الهاشميين، وأحد أبرز أبطال الطالبيين، رجل سلم صادق ورجل حرب صارم -بمقتضى الظروف- كان أحد أقوى المتحمّسين المتخرّجين من مدارس مبادئ العقيدة والقتال، في الفوج المتقدم من الرعيل الأول، يشهد بشأنه بعض المؤرخين كالبلاذري القائل:

«و كان مسلم بن عقيل من أرجل ولد عقيل، و أشجعهم»(١).

لكن التفاضل هنا ضمن دائرة عائلية خاصة، نجد ابن قتيبة يوسّع دائرة التفاضل والقياس بالقول: «... وكان من أشجع الناس»(٢). ويبدو أن قول البلاذري لم يغبنه وابن قتيبة لم يبالغ به، وإنما نظر كلاً منهما الى بطولات مسلم في حدود لفتت انتباههما، فالمؤرّخ الأول لاحظ مسلماً من حيث فرسان بيته، بينما لاحظه الثاني من خلال فرسان الميدان بعبر صولاتٍ وجولات بأكثر من ساحة فتح وحلبة صراع، سواء سجلها المؤرّخون أو أهملوها، وهنا يتبرع الواقدي بذكر لمحة عن حضوره أحد الفتوح بمصر، فيقول:

«لما دخل المسلمون مدينة «البهنسا»(٣)، بعد حصار طويل، دخل مسلم بن عقيل في جملة الهاشميين(٤) وهو يرتجز:

---

(١) أنساب الأشراف: ٧٧/٢، تحقيق الشيخ المحمودي، ١٩٧٤م بيروت.

(٢) الامامة والسياسة: ٤/٢ طبعة مصر.

(٣) «البهنسا» يقول عنها ياقوت الحموي: «مدينة بمصر، من الصعيد الأدنى، غربي النيل وتضاف إليها كورة كبيرة على ضفة النيل، وهي عامرة كبيرة كثيرة الدخل، وبظاهرها مشهد يُزار، يزعمون أن المسيح وأمه أقاما به سبع سنين... ينسب إليها جماعة من أهل العلم... الخ» راجع (معجم البلدان) ٥١٧/١ طبعة دار صادر- بيروت.

(٤) فتوح الشام: ٢٣٤/٢، طبعة مصر ١٣٥٢هـ.

ضناني الهمّ مع حزني الطويل لفقد صاحبي مجد أثيل
فواثاراً لجعفر مع عليّ ليوث الحرب آل بني عقيل
سأقتل بالمهنّد كل قرم عسىٰ بالثأر أن يشفي الغليل(١)

يدخل الفارس الفتىٰ فاتحاً مع الفاتحين، ونراه يُعَبِّرْ بما ضاق به ذرعاً وصبر له طويلاً، إذ طال الحصار فطال به التربّص والإنتظار مرابطاً حول حصون البهنسا، ليقتحمها مُنشِداً أنشودة الظفر المؤزّر... كان ذلك في أيام عمر بن الخطاب... ويبدو أن «جعفراً» و «علياً» المعنيان هما أخواه وليسا عمّيه، فهما من جملة الهاشميين المشاركين هنا... قال الواقدي أيضاً: «إن جعفر بن عقيل شهد فتح البهنسا وكان من الأُمراء الشجعان وله رجز فيها(٢)، كما أن له أخٌ باسم عليّ يبدو أنه شهد الفتح وجُرحا فيمن جُرح مما أثار لدىٰ مسلم روح الحماس المتوثبة للثأر كما في الأبيات الثلاث التي يروي الواقدي ثانيها بهذا اللفظ:

فواثارات جعفر مع عليّ و ما أبدي جوابك يا عقيل(٣)

يبدو أنه رآهما جريحين و ليس قتيلين، لإتفاق سائر المؤرّخين والمحققين انهما فيمن قتل بين يدي ريحانة الرسول بكربلاء.

و إذا شهدت أرض مصر بواحدة من سياحات مسلم، فله سياحات(٤) بجزيرة العرب، كما ساح بأرض العراق، في البصرة وصفين والنهروان

---

(١) فتوح البهنسا الغراء، لمحمد بن محمد بن المعز، ص ١٣٥، طبعة مصر- ١٣٢٤هـ. والأبيات الثلاث رواها الواقدي مع تباين لفظي يسير.

(٢) فتوح الشام.

(٣) فتوح الشام: ٢/٢٣٤.

(٤) «لكل امّة سياحة و سياحة امّتي الجهاد في سبيل الله». كما قال نبينا العظيم محمّد «صلّى الله عليه وآله».

والكوفة... ليستوقفنا تنويه يسترعي الانتباه، هو أنه كان قائداً عسكرياً في صفين يعتمد عليه الإمام أمير المؤمنين بقيادة فيلق من الجيش على الميمنة، التي تضمّ قادة كبار مثل: سبطي رسول الله الحسن والحسين، وعبدالله بن جعفر كما سجّل ابن شهراشوب. ولا يوضع الشخص في مواقع قياديّة كهذه محاباة أو مجاملة، إنما ينطوي الموقف على الإقرار التام بقوة بأس ابن عقيل في قيادة فيلق الجيش المناط به والمرشّح له.

قال البياسي في الأعلام بسنده: «كان مسلم بن عقيل مثلَ الأسد، وقد كان من قوته أنه يأخذ الرجل بيده فيرمي به فوق البيت»(١) وليس البياسي كمؤرّخ مُعجب يعتبره مثل الأسد، وإنما حتى أعداؤه الألداء الذين دُهِشوا إعجاباً بشجاعته خلال تظافرهم بجموعهم لقتاله بالسلاح فنازلهم بمفرده وجهاً لوجه، حتى ضجّ قائلهم وهو قائدهم صائحاً بهم ـ مُحذِّراً ومؤلِّباً ـ انه: «... أسد ضرغام، وسيف حسام في كفّ بطل همام من آل خير الأنام »(٢). فشهادة خصومه القتلة أنه «أسد ضرغام» وشهادة المؤرّخين عامة انه «كان مثل الأسد» قد أكّدوا إجماعاً رجولته المجيدة... يقول الزركلي عنه انه كان من «ذوي الرأي والعلم والشجاعة»(٣) بينما قال أحد معاصري مسلم شعراً ينصّ على مدى مجد قوته:

فتى كان أحيى من فتاة حييّةٍ و أقطعَ من ذي شفرتين صقيل
و اشجع من ليث بخفان مصحر و أجرأ من ضار بغابة غيل(٤)

فهو فضلاً عن كونه متكامل التهذيب هادئاً مليئاً بالحيوية والحياء، شديد

---

(١) الإمام الحسين للسيد علي جلال الحسيني المصري: ٢/٩٤.
(٢) الفتوح لابن أعثم: ٥/٩٤.
(٣) الأعلام للزركلي: ٧/٢٢٢.
(٤) الخوارزمي ـ مقتل الحسين «عليه السّلام»: ١/٢١٥.

التأدّب راقي الأخلاق، يُشبّه الشاعر سكونه وحياءه بحياء الفتاة وسكونها، لكنه بالمقابل يشبه سيفاً صقيلاً قاطعاً بتّاراً من جانبي شفرتيه، بأي جانب يضرب العدو يقطعه... وهو أشد وأشجع من الأسد، فيتفق العدو والصديق على استعمال التشبيه بالليث والأسد... وأكثر جرأة من الضواري المتجوّلة بالغابات المخيفة وهي لا تخاف، تجوب الغابات المأهولة بالغيلان دون اكتراث... ولا تُوصف بطولة بطل بهذا الوصف، إلا حينما يوُقن الواصف قوة معاني الرجولة المتجسّدة بشخص الموصوف، كأندر نوعيات الرجال لأنه يخرج منفرداً تقبض كفه مقبض سيفه في مواجهة حشود متوحّشة من الغيلان البشرية الباغية المدجّجة بالسلاح والحديد حتىٰ الأسنان دونما اكتراث... عِلماً أن الواصف عاصر الموصوف وقال قصيدته في الكوفة في ظلّ حكومة الامويين.

و بعد، فالحديث عن روّاد الرسالة، حديث وعي ممتع و معاناة، لمافيه من مناقبية افتقرت اليها حياة غيرهم -إن صحّ أن يكون لغيرهم من المناقب نصيب-

مسلم واسرته:

كان الإمام عليّ «عليه السّلام» أكثر الناس معرفةً بعمق دواعي الحبّ المتولّد عند النبيّ الأعظم «صلّى الله عليه وآله وسلّم» ومعنىٰ الحبّ المتبلور فى نفسه المستقرّ في قلبه المقدّس «صلّى الله عليه وآله وسلّم» ذلك الحبّ المعبِّر دوماً عن الروابط القلبية الوشيجة بين النبيّ الأكرم «صلّى الله عليه وآله وسلّم» ومحبوبه من عترته ورهطه -وبضمنهم صفوة الصحابة المخلصين لعترته المجاهدة الطاهرة- وكان عقيل -وابنه مسلم- ممن هم في روع الرسول «صلّى الله عليه وآله»... والإمام عليّ يعلم بميزة المقام الوقور لأخيه الكبير في ضمير الرسول كما كان أكثر الناس يقيناً بأن النبي لا يحبّ للهوىٰ، فأراد إظهار حبّ محجوب بتساؤله مع الذي لا ينطق عن الهوىٰ، كما روىٰ حبر الامّة ابن عباس، قال الامام:

«يا رسول الله إنك لتحبّ عقيلاً! (صيغة إثارة موضوع) فقال «صلّى الله عليه وآله وسلّم»: إي والله! إني لأُحبّه حُبّين، حبّاً له وحبّاً لحبِّ أبي طالبٍ له... وإن ولده لمقتولٌ في محبة ولدك، فتدمع عليه عيون المؤمنين، وتصلّي عليه الملائكة المقربون». ثمّ بكىٰ الحبيب محمّد «صلّى الله عليه وآله» حتىٰ جرت دموعه على صدره ثمّ قال: «الله أشكو ما تلقىٰ عترتي من بعدي»(١). وطالما كان «صلّى الله عليه وآله» يشكو لربهِ بمعاناة مؤلمة حالما يتذكر فيتصور فجائع بيت النبوة والرسالة. انه حبّ التوثيق بين الماضي والحاضر، إذ عزىٰ النبيّ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» مضاعفة حبه لعقيل الىٰ الحبّ الذي كان يخصّه به أبوطالب فكم كان النبيّ «صلّى الله عليه وآله» يحبّ عمه إذا كان يراعي عواطفه لهذه الدرجة؟ وهو حبّ يوثق بين الحاضر والمستقبل كما يتضح بهذا الحديث وغيره من الأحاديث التي تحكي تنبّؤاته. ففي حبّه دوماً أكثر من بُعْدٍ لأكثر من اتجاه.

و الحديث روته المصادر السُنّية بلفظ مقتضب(٢)، كأنّ الراوي نسي الباقي، أوتناساه لأسباب ليست غامضة.

و الإمام عليّ أمير المؤمنين «عليه السّلام» معلّم الأُمة، وكمعلّم لمسلم يدرك في تلميذه ما لم يدركه الآخرون من نواحٍ شتّىٰ، كالجدارة الإجتماعية الزوجية، واللياقة بالمرأة التي يعطيها الإمام المعلّم منزلتها العالية، ولا يعطيها إلا لرجل يعي حقّ قدرها، سيّما وهو يُثمّن بناته الزاكيات الطاهرات،ومسلم هو

---

(١) أمالي الصدوق ص ١١٤، طبعة النجف الأشرف، ١٣٨٩هـ.

(٢) السيرة الحلبية: ٣٠٤/١. والمستدرك للحاكم: ٥٧٦/٣، وتذكرة الخواص لابن الجوزي ص٢٢ طبعة ١٤٠١هـ. ونكت الهميان ص٢٠٠، وذخائر العقبىٰ للطبري الذي رواه بهذا الوجه، قائلاً لعقيل: «أني أُحبك حبّين، حباً لقرابتك منّي، وحباً لما كنت أعلم من حبّ عمي إياك». عمه أبوطالب... ص٢٢٢.

الآخر لا يريد سوىٰ التي تُبادله هموم الأُمة والائمة، فكانت «رقية»(١) بنت عمه زوجته الفضلىٰ التي أنجبت «عبدالله»(٢) بطل من أبطال بطحاء كربلاء.

و قيل إن مسلم صاهر الإمام ثانية ـ عقب وفاة الأُولىٰ ـ برقية الصغرىٰ(٣) وقيل بامّ كلثوم(٤)، كما اختلف المؤرّخون حول أولاد مسلم، فقيل خمسة و بنت واحدة... وقيل أربعة و بنت واحدة، من رقية الأُولىٰ، أو أُختها بعد وفاتها... لكن المتفق عليه لدىٰ سائر المحققين أنه لم يبق لمسلم عقب... فقد أنجب «سلام الله عليه» من كانت دماؤهم زيوتاً لشعلة الإسلام الوقّادة تزيد توهجها نوراً ساطعاً من علىٰ صعيد الطف.

و لمسلم عشرة أو أحد عشر من اخوته الكرام الأماجد، يجودون بمهجهم من أجل القرآن والعقيدة والعترة، قد شكّلوا عصبة صارمة المواقف بين يدي ريحانة رسول الله «صلّى الله عليه وآله» كجعفر وعليّ وعيسىٰ وعبدالرحمن وسعيد وأبوسعيد وغيرهم، إذ شهدت بوجودهم الجليل ميادين الفتح والجهاد، كان آخرها ما شهدته كربلاء، ولنا بهم شرف اللقاء بدراسات اخرىٰ عن أنصار الإمام الحسين «عليه الصلاة والسّلام».

لقد كان مسلم جندياً وفياً من فرسان الفتوحات الكبرىٰ، وقائداً قوياً في المعارك الضارية، ورائداً ربّانياً يخوض غمار التغيير السياسي لإحياء التحرك الثوري الكوفي... ذلك هو عضو الهيئة النبوية المصطفاة للصراع مع خصوم الحقّ المقدّس المتمثّل بمبادئ السماء.

---

(١) المعارف لابن قتيبة: ص ٢٠٤، و مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني: ص٩٤.

(٢) مقاتل الطالبيين: ص ٩٤.

(٣) المُحبر لابن حبيب النسّابة البصري: ص٥٦.

(٤) عمدة الطالب: ص٣٢ط ٢، ١٩٦١م.

الفصل الثالث

التركيب المعقّد لمجتمع الكوفة

وطبيعة الواقع السياسي

كان معاوية متلهفاً للتنكيل بالجمهور الكوفي، متربّصاً للتفوق والإستعلاء عليهم... والكوفيون يأنفون منه.

تختلف الكوفة عن بقية الأمصار ذات الشعوب المتجانسة نسبياً في الجوانب الدينية والمذهبية والقومية، إذ انفردت الكوفة بخليط اجتماعي غير متجانس، وتركيب شعبي مُعقّد، شديد التعقيد. أفرز مزاجاً خاصاً وأعطاها طابعها المتميّز في التحرك والنكوص، في التقدم والتراجع... فإذا أُريد فهم مجتمع الكوفة يتحتم مراعاة مسألة التركيب الغريب الذي عكس تصرفات معينة طوال تاريخه، إن مراعاة هذا الجانب يُعين كل باحث أو متحدث في تكوين الآراء الأقرب الى الصواب... وفيما يلي إشارات لهذا الجانب الهام، كالتركيب الديني، والتباين المذهبي، والإختلاف القومي، والتنوع القبلي، والتفاوت الطبقي... ولنتذكر أنها ـ أي الكوفة ـ حديثة الانشاء جديدة البناء الاجتماعي.

التركيب الديني:

إستوطنت الطوائف الدينية المتعددة في الكوفه بشكل واسع، وقد اختلفت طرق وصولهم وكيفية مجيئهم: منهم من جاء بمحض اختيارهم... ومنهم من

وصل بصفة أسرىٰ حرب... ومنهم من جاءت بهم التجارة... ومنهم من أجلاهم عمر بن الخطاب من المدينة والحجاز.

و من عناصر هذا التركيب:

١ ـ اليهود: سيّما يهود المدينة و الحجاز الذين أجلاهم عمر بن الخطاب، علماً ان تخطيط الكوفة وتمصيرها كان في عهده، وبانتقال اليهود الىٰ الكوفة نقلوا معهم موروثات نفوسهم الخبيثة طبعاً، ولم يعظهم الجلاء.

٢ ـ النصارىٰ: يقسمون الىٰ طائفتين: النساطرة، واليعاقبة، لكلٍّ منهما أُسقف خاص بالكوفة، وهم نصارىٰ تغلب الذين استوطنوا أثناء تخطيط الكوفة، ونصارىٰ نجران، إستقاموا بمحلّة سمّيت باسمهم «محلّة النجرانية»... ولهم آثار سيّئة في أيام الولاة المنحرفين، كالوليد بن عقبة المعروف بـ«الفاسق» بنصّ القرآن الكريم والي عثمان على الكوفة الذي كان يشرب الخمر ويسقيها للنصارىٰ(١)، ويوفّر لهم لحم الخنزير، وقد اتّخذ أحد النصارىٰ موظفاً لإدارة شؤون مسجد الكوفة!! وجعل نصرانياً آخر مديراً للسجن! حتىٰ أن أبا موسىٰ الأشعري ـ الذي جاء بعد الوليد ـ اتّخذ له كاتباً نصرانياً! دون وازع شرعي أو أدنىٰ شعور ديني يوحي بضرورة إسلام النصراني قبل توظيفه، وقد نهىٰ عن ذلك حتىٰ عمر(٢).

٣ ـ الصابئة: و قد سكنوا الكوفة و كان لهم وجود فيها.

٤ ـ المجوس، و بعض الديانات القادمة مع أسرىٰ الحروب: كالزراد شتية والمانوية والمزدكية التي كان يعتقد بها البعض أو يعتنقها ولها أنصارها ومؤيدوها، ولا ريب أن وجود هؤلاء في مجتمع مسلم يؤثر علىٰ جميع شؤونه سيّما

---

(١) انظر أنساب الأشراف: ٥/٣٢ـ٣٥ ط مصر.

(٢) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري: ١/٤٣ ط مصر.

إذا كان المجتمع بحاجة الى تركيز فكر دينه وأُصول عقيدته، فكيف ـ والحالة هذه ـ أن التحقيقات والدراسات التاريخية تكشف لنا عن كون الولاة ـ عمال الخليفة ـ هم بأنفسهم يشجعون وجودهم ويطلقون لهم عنان الأعمال المتعددة، ابتداءً من عمال عثمان.

التباين المذهبي:

نظراً لعدم التزام الموازين المبدئية، تجاوزاً لامتداد النبوة، وخرقاً لآل رسول السماء «صلّى الله عليه وآله وسلّم» فقد تشتّت الأُمة ومجتمع الكوفة بتأثير التفرقة المذهبية التابعة من التباين المفاهيمي والتحزب السياسي الذي أقلق الواقع العام للمجتمع المسلم فضلاً عن واقع التركيب الديني في مردوده السلبي داخل الكوفة... وأبرز هذه الاتجاهات هي:

١ ـ الخوارج: الذين تنامىٰ عددهم ـ بعد النهروان ـ واتخذوا الكوفة قاعدة لهم، سيّما أنهم انبثقوا منها، وهم مستعدون ـ اذا ما رجحت كفة الأُمويين ـ أن يُعاضدوا الباطل، ليناهضوا الحق بمحاربة آل الرسول وأشياعهم، فالخوارج كانوا أشد علىٰ الرحمن عتيا.

٢ ـ النواصب: الذين كانوا ينصبون العداء للإمام عليّ «عليه السّلام» وآل رسول الله «صلّى الله عليه وآله».

٣ ـ الأُمويون: التكتل الذي زاد ثقله أيام معاوية و باشر نشاطه في عهد عثمان بن عفان، وهو تكتل يكرّس السلطة والحكم للأُمويين وحدهم.

٤ ـ الشيعة: الذين تعاظم شأنهم بعد اختيار الإمام أمير المؤمنين الكوفة عاصمة له، إذ لمس الناس منه العدالة واللطف والمساواة، فتزايد عددهم كثيراً قياساً للإتجاهات المذهبية الأُخرىٰ في نفس المدينة، التي أصبحت شيعية الطابع والعاطفة... الأمر الذي جعل معاوية ـ فيمابعد ـ يفكّر في تصفية هذا

الإتجاه بشتىٰ الأشكال الإنتقامية، كالإعتقالات الواسعة والقتل الفردي والجماعي، والقمع بالغارات العسكرية المباغتة علىٰ السكان الآمنين... كما قام بتبعيد أكثر من خمسين ألف من شيعة الكوفة الى خراسان(١) في أوسع محاولة لتفريغ الإقليم من خصوم الأمويين وكسر شوكة أتباع آل محمّد «صلّى الله عليه وآله».

٥ ـ و توجد إتجاهات اخرىٰ محدودة النطاق ذات التأثير الملحوظ في المجتمع، كالجبرية والقدرية والمرجئة والمفوضة، فضلاً عن الغلاة الذين غالوا بالإمام عليّ حتىٰ قطع دابرهم بيده بعد ما أبَوا الخضوع للموعظة... فالميول السائدة في الكوفة ـ رغم اختلافها كمّاً ونوعاً ـ قد أفقدت المجتمع وحدة الرأي وقوة الموقف.

الإختلاف القومي:

و بناءً على الموقع العسكري للكوفة، فقد كانت محطة للجيوش ومنطلقاً لها، وبالتالي فهي مأوىٰ جميع الأسرىٰ،فتكاثر عدد غير العرب بتكرار المعارك والحروب، فامتلأت بهم أسواق النخاسة، كما لم يُعاملوا المعاملة الإسلامية المقررة في الشريعة السمحاء، إذ أن من يُسلم منهم يبقىٰ إنساناً أدنىٰ من العربي الذي يُسلم، يشهد بذلك عصر معاوية الذي بلغ ذروة التعامل التعسّفي معهم، مما أثار النعرات القومية لتكون معول هدم للإسلام الحنيف، إذ فرض معاوية الجزية على كل من يُسلم، فأصبح بهذه السياسة وأمثالها يستحق عنوان «الدهاء» من قبل محبّيه.

وأبرز القوميات المتواجدة هي:

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان: ١٤٧/١ ط٣، ١٩٦٠م.

١ ـ الأتراك : و كان لهم وجود في الكوفة.

٢ ـ الأكراد: و كانوا من ضمن المجتمع الكوفي.

٣ ـ الفرس: و هم أعلىٰ نسبة بين القوميات، ورد عنهم: أنهم كانوا أكثر من نصف السكان، مما دفع بزياد بن أبيه أن يوزّع منهم في البصرة والشام(١).

٤ ـ الروم: و يشكّلون النسبة العددية الثانية بعد الفرس.

٥ ـ السريانيون: جاؤا من نصيبين و جنديسابور وحرّان، وذلك قبل الفتح الإسلامي للعراق.

و سكن الكوفة الآشوريون و الأرمن، و أقلّيات قومية أُخرىٰ ممن لها صفات خلقية خاصة بها، جاءت حاملة معها عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها ومجمل مردوداتها النفسية والسلوكية.

التنوّع القبلي:

إمتازت الكوفة في أول تخطيطها بتقسيم خاص، فاستوطنت القبائل ـ بشكل مقصود ـ وفق تقسيم سباعي، يَضُمّ كل سُبع قبيلة ـ أو أكثر ـ مع حلفائها، كالتالي:

١ ـ قبيلة كنانة و حلفاؤها من الأحابيش وغيرهم، كانوا يوالون السلطة.

٢ ـ قضاعة و غسان، و بجيلة وخثعم، و كندة و حضرموت والأزد.

٣ ـ مذحج، و حِمْيَر، و همدان و حلفاؤهم، وهم يعارضون السلطة.

٤ ـ تميم، و الرباب و حلفاؤهم.

٥ ـ أسد، غطفان، ضبيعة، تغلب، النمر ومحارب.

٦ ـ أياد، عبد شمس، و عك، أهل هجر و الحمراء.

٧ ـ طيّ اليمانية، إتخذت لنفسها الرقعة السابعة من التقسيم... إن لهذا التركيب القبلي أثر ملموس في موازين العمل السياسي، سيّما أن القبائل متباينة الميول حيال الحكومة المحلية والسلطة المركزية، علماً أن نفوذ الوالي على أغلب زعماء القبائل ملحوظ، كما أن تزلّف بعض الزعماء لخدمة الولاة على حساب الدين والمسلمين توفيراً لضروريات الدنيا الزائلة شهد به التأريخ.

التفاوت الطبقي:

نشير فيما يلي الى أهم طبقات المجتمع الكوفي التي ساهمت في التأثير عليه عبر التاريخ، أكثر مما لوحظ في طبقات الأقاليم والأمصار الأُخرى:

١ ـ طبقة الأشراف و الأعيان و الوجهاء، و هم ـعدا القليلـ متواطئون مع الوالي، أو مع القوة التي يحتمل أن تُمسِك بزمام الأُمور في الكوفة، كابن الأشعث ورفاقه الذين راسلوا الامام الحسين «عليه السّلام» لظنّهم بحتمية التغيير المرتقب، وسنذكرهم لاحقاً... أكثرهم رؤساء عشائر وزعماء قبائل، يتحكمون بقوى قبائلهم.

٢ ـ طبقة الموظفين التابعين مباشرة لقصر الأمير، كالشرطة والجلاوزة، والمناكب والنقباء والعرفاء، ممن بيدهم إحصائيات الناس حسب محلّات سكناهم، وقوائم أسمائهم ، يراقبونهم أو يلقوا القبض عليهم، وهي طبقة مسخّرة للسهر على أمن السلطة والسلطان، تحصي أنفاس الناس وحركات الانسان.

٣ ـ طبقة الكادحين و الكسبة من ذوي الأعمال الحرة والمهن المستقلّة، وأصحاب الدكاكين في الأسواق، الذين طالما يسوء حالهم لفساد الموظف الرسمي الخاص بالسوق، فيرشحوا أحدهم ليشكوا حالهم أمام الوالي، وسبق للمجاهد العظيم الشهيد ميثم التمار أن مثّلهم لهذا الغرض.

٤ ـ العبيد والموالي، الطبقة المسحوقة الواقعة تحت طائلة التحقير والاستغلال، كما قضت بذلك «الشريعة» الأموية على سُنّة معاوية.

٥ ـ المرتزقة، طبقة جمهور الجند الذين تُصرف لهم العطاءات من «بيت المال» لانصرافهم الى الغزو والقتال، طبق أوامر الولاة والحكام بلا معارضة أو نقاش حتى لو أمروهم بقتال المسلمين واستباحة المحرمات أو قتال الرسول في ولده، تحت طائلة التجويع والإعدام مع استباحة عائلة المرتزق.

و هناك القضاة، رجال الدين الأثرياء، كطبقة مترفة ـ إن صحّ اعتبارهم طبقة، لقلّة عددهم ـ أبرزهم «شريح القاضي» ممن كانوا يبيعون الفتوى بثمن بخس دراهم معدودة، تسويغاً «شرعياً» لبشاعة جرائم «آل أبي سفيان» في أوامرهم التي يبرء منها الإسلام.

طبيعة الواقع السياسي المعقّد:

كانت الكوفة أوحد أمصار الإسلام وعياً ثورياً يتجاوز حالات الحماس الساذج، الى إدراك أهمية الدور المناط بأهلها، خلافاً لضعف ذلك الادراك في بقية الأمصار القائمة آنذاك ... مما دفع بأعداء اليقظة السليمة والوعي الصحيح الى اتخاذ تدابير خبيثة للتخلص من نشاطاتها التي تهدد طموحاتهم الجاهلية ذات المبادئ الأموية... تلك التدابير الخفية والعلنية لبث الشائعات ونشر الشبهات وتوزيع عناصر النفاق لإشاعة الشكوك ، وصولاً الى فتّ عَضُدِ الإنسان بجعله متردّداً مرتاباً في تكاليفه، علماً أن الشيعة كانوا نسبة قليلة وسط الغالبية المتعاطفة مع الامام عليّ، ولم تكن الكوفة شيعية بأسرها أو نصفها يوم جاءها الامام أو يوم غادرها «عليه الصلاة والسّلام» الى ربه تبارك وتعالى.

أخذ المجتمع الكوفي يفقد تدريجياً خاصيّته الروحية، وميزته المعنوية،

وقيمته الرسالية، التي كانت أساس وجوده كساحة متحركة للفتوح ومحطة إستراحة للجيوش، وثكنة ثابتة لها، تقوم بتزويدها بكل ما تريد من إمدادات الغذاء والحديد.

و من بين كل الأقاليم و الأمصار المسلمة، إنفردت الكوفة بأنفتها من حكم معاوية، واستنكافها من ولاة بني أمية، ولم يشف معاوية غيضه بالإنتقام المتكرر بالقتال والغارات المباغتة على الضواحي الآمنة،وقد عجز عن تطويعها بأنواع وسائل الخداع والنفاق، كما يئس من كسر شوكتها أثناء قتال ميداني، حتى صارت الأُمور الى ما صارت اليه من الهدنة والصلح المعروف... وكان معاوية متلهفاً للتنكيل بالجمهور الكوفي، متربّصاً للتفوق والإستعلاء عليهم، أسير مشاعر العُقَد النفسية المتبلورة فيه من جراء مواقفهم، الأمر الذي يفسّر لغة الغرور ومنطق الكفر حينما وقف عليهم معلناً بأن شروط الصلح يضعها تحت قدمه وأنه لم يقاتل أهل الكوفة لإقامة الفرائض «... وإنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم! وقد أعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون!». كاشفاً عن عمق معاناته من جمهور الكوفة، وكاشفاً عن عميق حقارة كامنة بنفس «أميرالمؤمنين» المكروه... ولم يشتف أو يتشفّ منهم، إذ نصب على الكوفة أقسى الولاة وأغلظهم، آمراً إياهم بالتنكيل بالكوفيين طبق سياسة السوط والسيف.

فضلاً عمّا تضمّنته قصة الواقع السياسي من عبث علني بعقول العوام، وميل متعمد في الدعوة للتحلل وتجاوز الإلتزامات، فالوليد يشرب الخمر ويصلّي بالناس في المسجد، ويقيء -مرة- في المحراب وقد صلى بالناس الصبح أربع ركعات ثم هو يلتفت قائلاً «هل أزيدكم؟!» وتنطلق النخبة الخيّرة من الكوفيين لإسعاف كرامة دينهم، لكن عثمان يتوانى مشفقاً على أخيه!! أما «أبو موسى الأشعري» فقد عَبَث بآراء الناس وتباطأ عن أخذ البيعة للإمام أميرالمؤمنين علي الذي بايعته الأُمة، كما راح الأشعري يشوّه عدالة الإمام

ويشكّك الكوفيين بأحقّية عليّ بالخلافة ويمنعهم من نصرته فخذلهم عن الإستجابة له، حينما خرج عليه «أصحاب الجمل» رغم إرسال الإمام النصائح والأوامر للأشعري.

و استمر طابور الأمويين يعبث بزرع النفاق في أيام الإمام عليّ و الإمام الحسن «عليهما السّلام» في نفس الوقت الذي ينمو فيه الولاء والتشيّع لعليّ وأهل البيت النبوي وحينما استبد معاوية فقد كان أعجز من أن يرى الكوفة عامة والشيعة خاصة دون أن يفصل بينهما، رجاء إخلاء الكوفة من الشيعة وتوسيع الولاء الأموي... ممّا حدى به الى تشريد اكثر من خمسين ألف منهم الى خراسان، متمنّياً إخماد التحركات الخطيرة المتوقعة من الكوفة... لكن عمليه تفريغ الكوفة من المتشدّدين في الولاء للإمام أميرالمؤمنين، لم تطمئن بال معاوية، مما دفعه لإجراء تصفيات، جسدية لأبرز رجالات الجهاد كالصحابي «حجر بن عدي الكندي» ورفاقه.

غير أن أخطر ما تركته السياسة الأموية في جرائم جيوش معاوية التي جردها على الآمنين، هي هاجس الخوف من الجيش المتوحّش الذي يسحق المسلمين باسم الإسلام، وينتهك الكرامات ويسفك الدماء ويسرق الأموال دون حساب لاصول الحرب وقوانين القتال ونظام المعركة الذي طالما التزمت به الكوفة في فتوحاتها الرسالية، فشعرت أنها تُباغت بجيوش لا علاقة لها بالأخلاق العسكرية والقيم القتالية، وهذا هو سرّ الخشية من جيش الشام الذي أضحى دوماً هاجساً لأهالي الاقليم عامة.

و في آخر أيامه ـ أي معاوية ـ وضع على الكوفة والياً ليّن الجانب موسوم بالتسامح ـ بعد سنين من القهر تحت سطوة ابن شعبة وابن أبيه ـ عسى أن ينسى الناس ما كان من ظلم وتقتيل، تمهيداً لمجيء خليفته الجديد ـ يزيد ـ الذي قد «مَنَّ» به على المسلمين.

رغم كل ذلك لم ينس معاوية التحذير من مخاطر الكوفة وأهلها، والنسبة القليلة للشيعة الباقين فيها، الذين يمكنهم أن يحركوا عموم الكوفيين باتجاه التمرد الشامل، رغم ما يلازم الناس من هواجس قلق رهيب، خلقته سياسة الخضوع للأحكام العرفية والقوانين الكيفية التي خصّ بها معاوية وعمّاله الكوفه دون سواها، خلال السنين الطويلة الماضية.

الباب الثاني

بدء الحركة الكوفية

وطبيعة تجاوب الامام

عشرون عاماً رهيبة، عاشتها الأمة تحت التسلط، وعاشها المعارضون تحت هيمنة إرهابية ماشهدتها الساحة السياسية من قبل، مارسها معاوية بنفسه دون رادع من قوة تشريعية أو رقيب من قوة قضائية. حتى قضى بالموت على صفوة من رجال العقيدة الأشداء على الكفار، فيما اضطر آخرون التربص به انتظاراً للفرصة المواتية. وقد سبق للامام ريحانة الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم» أن قال لبعضهم: «ليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته حتىٰ يهلك هذا الطاغية...».

وقد هلك بالفعل بعد عقدين من السنين التعسفية العجاف. أردىٰ فيها جيلاً كبيراً من جمهور الاسلام، وبهلاكه تحرك الامام نحو مكة، فتوالت عليه رسائل الكوفيين -خاصتهم وعامتهم- وهو «الفصل الأول» من هذا الباب، لم يجبهم الامام فيذهب اليهم، لكنها أزمة تستحق العلاج بحزم، فان لم يذهب اليهم فما هي طبيعة تجاوبه معهم «الفصل الثاني» اما «الفصل الثالث» فهو يتضمن وقفه ضرورية لاضاءة جانب غامض اثناء رحلة المبعوث في الطريق.

الفصل الأوّل

كثافة الرسائل الملحّة

إن الأقلية الشيعية (إذ بدأوا يراسلون) قاموا بافتتاح ساحة التحرك وبدور التحريض للأكثرية الكوفية، فالتهبوا حماساً على صعيد المراسلة.

أول ندوة للثورة:

«إن معاوية قد هلك، و إن حسيناً قد تقبَّض (أي امتنع) على القوم ببيعته، وقد خرج الى مكة، وأنتم شيعته وشيعة أبيه، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه، ونقتل أنفسنا دونه، فاكتبوا إليه وأعلِموه، وإن خفتم الفشل والوهن فلا تغرّوا الرجل في نفسه... فقالوا: لا بل نقاتل عدوّه ونقتل أنفسنا دونه... قال: فاكتبوا اليه»(١).

هذا جانبٌ من الندوة، و مقطع من كلام خطيبها المفوّه المجاهد الكبير «سليمان بن صرد الخزاعي» الذي دعا لعقد هذا الإجتماع في داره بالكوفة، وكان هو على رأس الحاضرين الذين هم صفوة الشيعة المتشدّدين ممن أفلتوا من سيف الجلّادين معاوية والمغيرة وزياد بن أبيه خلال التصفيات الجسدية

---

(١) الإرشاد: ص ٢٠٢، و تاريخ الطبري: ٤/٢٦١ وغيره...

للرجال المعارضين للأُمويين، المؤيدين لامتداد النبوة المتجسد بآل محمَّد «صلّى الله عليه وآله وسلّم» وهم البقية الباقية بعد عمليات التهجير لجمهور الشيعة الىٰ خراسان، بأمر معاوية وتنفيذ عامله على الكوفة زياد بن أبيه.

أعلن خطيب الندوة عن هلاك معاوية الذي سبق أن فرض ابنه يزيد ليرث ملكه داعياً لمبايعته بالقوة تحت ظلال الرماح والسيوف باسم خلافة رسول الله!! وأعلن أيضاً عن امتناع الإمام الحسين «عليه السّلام» عن بيعته اليوم كما امتنع عنها بالأمس بحضور أبيه ورماح أبيه وسيوف أبيه، وأخبر الخطيب الكبير عن كون الإمام قد غادر المدينة المنورة الى مكة تعبيراً عن الرفض وإعلاناً للمعارضة وشروعاً بالمقاومة الصارمة.

جاعلاً مستمعيه أمام الأمر الواقع، ضمن مجريات الأحداث، عِلماً بأن النخبة التابعة لآل الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم» علىٰ موعد مع سبطه وريحانته، حينما وقفوا يتوسّلون له أن يخوض بهم جولة معركة ضارية ضد معاوية، فأعلمهم بانعدام ضمانات نتائج الجهاد المرجو، حينما طلب منهم أن يتريثوا حتىٰ «يهلك الطاغية» سيّما وأنّ لهم معه مواثيق يحترمونها وإن لم يحترمها هو -أي معاوية-، فأمرهم بانتظار إتاحة الفرصة... وخلال ما يقرب من عشرين سنة كانت الأُمة تعيش حكماً تعسّفياً سافراً في سياسته المنحرفة عن الإسلام الصحيح، وطوال تلك السنين كان سبط الرسول ساكتاً سكوتاً على مضضٍ، متلفعاً بالصمت السليم والصبر الجميل، أمام بؤس السياسة الإستبدادية الغاشمة.

أعلن لهم عن وجود الإمام بمكة، مهيباً بهممهم مقوّياً عزائمهم، طالباً منهم إبداء رأيهم الصريح في اتخاذ موقفهم الواضح، كفرصة لابدّ من اغتنامها، وهم بقية شيعة أهل البيت «عليهم السّلام»، معهم أغلب أهل الكوفة الذين ذاقوا مرارة العهد الأموي، فهم يؤيّدون إجراء أي تغيير جديد... كما أن نخبة الشيعة

لم يتعاملوا مع والي معاوية لحدّ الآن، تربّصاً به للتخلص منه... ثُمَّ إن الندوة قررت مراسلة الإمام بمكة، وإرسال وفود اليه... وفيما يلي النصّ الكامل للرسالة التي كتبت بمحضر تلك الجلسة:

«بسم الله الرحمن الرحيم: للحسين بن علي «عليهما السّلام» من سليمان بن صرد، والمسيب بن نجبة، ورفاعة بن شدّاد، وحبيب بن مظاهر، وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة... سلام عليك، فإنّا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد: فالحمد لله الذي قصم عدوك وعدو أبيك من قبل، الجبّار العنيد، الغشوم الظلوم، الذي انتزىٰ علىٰ هذه الأُمة، فابتزّها أمرها، وغصبها فيأها، وتأمّر عليها بغير رضاً منها، ثمَّ قتل خيارها واستبقىٰ شرارها، وجعل مال الله دُولة بين جبابرتها وأغنيائها، فبُعداً له كما بَعُدت ثمود... إنه ليس علينا إمام، فأقْبل لعلّ الله أن يجمعنا بك علىٰ الحق، والنعمان بن بشير في قصر الإمارة، لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه الى عيد، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه، حتىٰ نُلحقه بالشام إن شاء الله تعالىٰ... والسلام عليك ورحمة الله وبركاته يا ابن رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم» وعلىٰ أبيك من قبلك. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»(١).

و بانتهاء أعمال أول ندوة تُعقد للشروع بالحركة، إبتدأت أعمال جماهير الإقليم، إذ تتابعت رسائل الشيعة، كما بادر الكوفيون للكتابة إلىٰ السبط بمكة... أي أن الأقليّة الشيعية قاموا بافتتاح ساحة التحرك وبدور التحريض للأكثريّة الكوفية، فالتهبوا حماساً علىٰ صعيد المراسلة والتوقيع في الكتب.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٦١، ٢٦٢، والإرشاد: ص ٢٠٣، والإمامة والسياسة: ٢/٤، وأنساب الأشراف بلفظ آخر، والكامل في التأريخ: ٣/٢٦٦ وغيرها.

تكثيف الرسائل:

كان لطبيعة شخصية يزيد بن معاوية، عامل فعّال في إثارة الناس، إذ أنّه ساقط الإعتبار سيّء السمعة، الأمر الذي جعلهم يستخفّون به أيُّما استخفاف، ويتجرّؤن على خلعه دونما تردّد أو خوف، وبتعبير الطبري: «أرجف أهل العراق بيزيد» لعلمهم بعدم لياقته، وافتقاره للكفاءة، وما توليته ومنحه ولاية العهد بعد أبيه إلا تحت طائلة الطغيان، القاضي بتثبيت أوتاد الحكم المنحرف على كيان الأُمة، سخريّةً بالخلافة واستهزاءً بالشريعة، وليس هناك أوضح من ابتياع الضمائر والأديان لترميم عرش الملك الأموي بالدراهم والدنانير، إبّان عملية تنصيبه وليّاً للعهد(١)... وقد بذل معاوية كل ما أُوتي من حيلة ليأخذ البيعة لابنه، مستعملاً التمويه على الناس، حتى أنه تكلم عن نضوج يزيد وكمال عقله! بمحضر أهل المدينة والصحابة وبحضور الإمام الحسين «عليه السّلام» الذي قام إليه مستنكراً التمويه القبيح والتزييف الساخر، معلناً للحاضرين الحقيقة وموجّهاً حديثه الصارم لمعاوية في كلام طويل نقتطف منه قوله عليه السّلام:

«... تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنّك تَصِفُ محجوباً، أو تنعتُ غائباً، أو تُخبِرُ عمّا كان مما احتويته بعلم خاص، وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه...»(٢).

---

(١) يقول العقّاد عن يزيد: «لايرجى له صلاح ولا يرجى منه إصلاح، وكان اختياره لولاية العهد مساومة مكشوفة، قبض كل مساهم فيها ثمن رضاه ومعونته جهرة وعلانية من المال أو الولاية أو المصانعة، ولو قبضوا مثل هذا الثمن ليبايعوا ولياً للعهد شراً من يزيد لما همهم أن يبايعوه، وإن تعطّلت حدود الدين وتقوضت معالم الأخلاق». «أبو الشهداء» ص١١٤ ط٢ - ١٩٦٩م.

(٢) الإمامة و السياسة: ١/١٦٠ ، ١٦١.

أجل، إن يزيد و ولايته كأبيه و خلافته، مخالف لطبيعة الأشياء،الأمر الذي يفسّر حصول الإجماع الجماهيري، ووقوع الا تفاق الشعبي في الكوفة على خلعه علناً، بينما حصل تيّار عفوي واسع لمراسلة الإمام، واستمر الناس يكتبون ويستكتبون بما شكّل موجة جماهيرية غطّت على الساحة الكوفية، وأضحى همّ الفرد الواحد أن يكتب أو يشارك بكتاب أو يُساهم بإمضاء في ختام كتاب جاهز للبريد، ساد ذلك في الإقليم بشكل علني واضح، سواء بين أوساط الشيعة أو عامة الكوفيين المتعاطفين معهم، كما يفيد خبر البريد الثاني: فبعد تلك الرسالة الأولى بيد عبدالله بن سبع الهمداني وعبدالله بن وائل اللذان وصلا مكة في العاشر من شوال ـ حسب الرواية ـ إنطلق المجاهد الجليل قيس بن مسهر الصيداوي، وعبدالرحمن بن عبدالله الأرحبي، وعمارة بن عبدالله السلولي، يحملون ثاني رسالة للشيعة... ولكنّهم «حملوا معهم نحواً من ثلاثة و خمسين صحيفة، من الرجل والا ثنين والأربعة...»(١) وفي رواية «نحو من مائة وخمسين صحيفة»(٢). مما يصور جانباً من اتّساع نشاط المكاتبة خلال يومين فقط ، وبعد يومين آخرين انطلق هانىء بن هانىء السبيعي، وسعيد بن عبدالله الحنفي بالرسالة التالية:

«بسم الله الرحمن الرحيم... للحسين بن علي، من شيعته والمسلمين. أما بعد: فحي هلا، فإن الناس ينتظرونك ولا رأي لهم في غيرك ، فالعَجَل العَجَل والسّلام عليك »(٣).

و روى ابن الجوزي نصّ الرسالة التالية: «إنّا قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولسنا نحضر الصلاة مع الولاة، فاقدم علينا فنحن في مائة ألف، فقد فشا فينا

(١) تاريخ الطبري: ٢/٢٦٢.

(٢) تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ص ٢٢٠.

(٣) تاريخ الطبري: ٢/٢٦٢.

الجور وعُمِلَ فينا بغير كتاب الله وسُنّة نبيه، ونرجو أن يجمعنا الله بك على الحق، وينفي عنّا بك الظلم، فأنت أحق بهذا الأمر من يزيد وأبيه، الذي غصب الأُمة، وشرب الخمر ولعب بالقرود والطنابير، وتلاعب بالدين»(١).

و في غمرة الحماسة العامة تحرّك حتى الذين لم يكن لهم رأي في الحق وقدم صدق في الولاء لآل رسول الله «صلّى الله عليه وآله» فكاتبوا ريحانة الرسول... بل إنّ الأجواء السائدة المتحكّمة بمشاعر الأفراد وأحاسيس الناس استبدّت بالشارع الشعبي، لتجرف بموجتها الكاسحة حتى المنافقين، وأشهر منافقي الكوفة ممّن لا ينكرون هزال هيبة الملك الجديد وانحطاط رصيد شخصية يزيد... فكتبوا هم أيضاً، مخافة فوات فرصة تسجيل الموقف النفعي الذي تقتضيه الظروف، كالمدعو: شبث بن ربعي اليربوعي، وحجّار بن أبجر العجلي، ويزيد بن الحارث، ويزيد بن رُوَيم، وعزرة بن قيس، ومحمد بن عمير، وعمرو بن الحجاج الزبيدي، وغيرهم من الإنتهازيين الوصوليين الذين يدركون خطر المرحلة المقبلة على إجراء تغييرات حاسمة في دنياهم ودنيا الناس، فعجّلوا بتقديم رأيهم مع سائر المضطهدين، كتبوا ـ ممّا كتبوا ـ للإمام يقولون: «أمّا بعد: فقد اخضرّ الجناب، وأينعت الثمار، وطمّت الجمام ـ أي الآبار ـ فاذا شئتَ فأقدم على جندٍ لك مجند، والسلام عليك»(٢).

و الإمام يدرك روّاد الدنيا من نظائر هؤلاء الذين لا يستحقون جواباً... بَيد أنه يعلم مدى البؤس الذي بلغه عموم الجمهور المسلم، ومبلغ انسحاق أبناء الأُمة تحت ضغط كابوس بني أُميّة... وهم يتوجّسون خيفة أن لا يجيبهم الإمام السبط، فيعرض عن دعوتهم الملحّة، ممّا حداهم لتشديد الدعوة إليه: «ثم إن

---

(١) تذكرة الخواص، لسبط ابن الجوزي: ص ٢١٥ طبعة بيروت.

(٢) تاريخ الطبري: ٢٦٢/٤. و تذكرة الخواص: ص٢٢٠.

حسين كثرت عليه كتب أهل الكوفة، وتواترت إليه رسلهم: ان لم تصل الينا فأنت آثم!»(١). حكاية البؤساء عن سعة التعاسة، التي دفعتهم للكتابة ليل نهار بمنطق الإستغاثة، ففي يوم واحد فقط تصل إلىٰ يد الإمام «٦٠٠»(٢) رسالة، لتتراكم بين يديه خلال ثلاث أسابيع تقريباً «١٢٠٠»(٣) إثناعشر ألف كتاب بريدي، لتوحي الىٰ تتابع الإستغاثات المُرة في إصرارها على إنقاذ رقابهم من التسلّط الأموي... إن كمّية الكُتب كانت خارج الحدود الطبيعية المألوفة في المراسلة، فهي ظاهرة فريدة من نوعها، إذ يحمل البريد -لأول مرة عبرالتاريخ- هذه الإحصائية العالية من الرسائل العاطفية، انسياقاً ضمن موجة حماسة عارمة للتحرر والإنعتاق، شارك فيها المؤمنون والمنافقون والهمج الرعاع بمختلف مذاهبهم وميولهم وماتركته التعقيدات النفسية الناجمة عن مجريات الأحداث السياسية الماضية من آثار كثيرة الأضرار.

قيل إن آخر رسالة وصلت الإمام بعد شهرين أو أكثر من تاريخ التحرك كانت بهذا النص: «عَجِّل القدوم يا ابن رسول الله، فإن لك بالكوفة مائة ألف سيف فلا تتأخّر»(٤) لكنه تأخّر عنهم ولم يُعَجِّل.

موقف الإمام من زخم البريد:

لم يكن الإمام بحاجة إلىٰ حثّ أو حوافز لكي يمارس مسؤولياته، كما لا ينتظر إيعازاً من الآخرين للقيام بمهمّاته، لأنه باشر التحرك منذ تمرّد علىٰ البيعة، وغادر حرم جدهِ المصطفىٰ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» المدينة التي تركها مستنكراً، مولّياً وجهه شطر المسجد الحرام، ليقيم بمكة معلناً سخط

---

(١) تذكرة الخواص: ص ٢١٦.

(٢) و(٣) أعيان الشيعة للأمين: ج٤ ق١ ص ١٥٩، ط١ دمشق - ١٣٥٦هـ

(٤) بحار الأنوار للمجلسي: ٤٤/٣٣٤.

السماء، منتظراً ردود فعل الأُمة المسلمة، ويقظة باقي الشعوب، وتحرّك الأقاليم والأمصار الأُخرىٰ... فالإمام السبط يأبىٰ أن يسبقه الىٰ دوره غيره، وهذا ما يفسّر مبادرته المبدئية للشروع بإعلان الرفض والإقامة المؤقّتة بمكة، ليكون حجة علىٰ سائر المسلمين، وهاهم الكوفيون عامّتهم وخاصّة الشيعة يكاتبونه بلهفة وحماس، وهو يتأمّل مليّاً في طلبهم، مستغرقاً بأمر دعوتهم الموجهة اليه.

درج بعض المؤرخين و المؤلفين علىٰ ذكر استجابة الإمام للكوفيين حالما راسلوه فوراً، وهو خطأ واضح نجم عن مرورهم السريع بأحداث الثورة، وتغاضيهم عن بعض وقائعها الحساسة...(١) فقد أحجم الإمام، كما أنّ الكوفيين أحسّوا منه ذلك الإحجام، وتوقعوا عدم التعجيل لهم بالجواب الإيجابي وهو سرّ تكثيفهم للكتب التي أخذت تترا:

«و هو مع ذلك، يتأبّىٰ ولا يجيبهم»(٢).

«و هو مع ذلك، يتأنّىٰ ولا يجيبهم»(٣).

بينما تقودنا الإحصائية العالية للرسائل الىٰ حالة من اليقين تقضي بنفي كون الإمام أجابهم سريعاً، فالمدة الزمنية التي تستغرقها الرسائل لا تساعد علىٰ قبول ذلك الخطأ الذي وقع به البعض.

أضف الىٰ ذلك أنّ الإمام الحسين «عليه السّلام» رأىٰ أن يتّخذ خطوة تمهيدية، كإسعاف أوّلي للمضطهدين البؤساء الذين أحسّوا بالحرية المؤقّتة بموت معاوية ـ إذ تنفسوا الصعداء، وتجاهلوا شأن الوالي الذي يحكمهم باسم الأُموية ـ هذه الخطوة تمثّلت بإرساله من ينظر في الواقع نيابة عنه، كما سنرى في الفصل التالي

---

(١) مثلاً، يذكر الشبلنجي أن الإمام استجاب لهم فوراً بعد أن راسلوه بتلك الرسالة الاولى، انظر (نور الإبصار...) ص١٢٧ مصر ـ ١٩٦٣م.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ٤٤/٣٣٤ ـ ١٣٨٥هـ.

(٣) أعيان الشيعة للأمين: ج٤ ق١ ص١٥٩.

الفصل الثاني

الإمام ينتدب ممثلاً عنه

كانت مهمته مطلقة في شتّى الشؤون الدينية والدنيويّة، واسعة الصلاحيات متفرعة المسؤوليات، بفعل ما تقتضيه ظروف المرحلة والقضية.

تجلّت حكمة تعامل ريحانة الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم» في هذا الظرف العصيب لعلاج أحرج مرحلة قائمة، في كونه لم يذهب هو بنفسه إليهم، ولم يجب الكوفيين جواباً نهائياً... وتجلّت حنكته السياسية بتروّيه وهدوء تخطيه للطريق الطويل، دون تَعَجُّلٍ أو إسراع. إذ راح ينظر بمسألة تمثيل شخصه من قبل أحد رجاله، تحقيقاً تمهيدياً لمطالب المظلومين.

أما أن يطلب الحسين «عليه السّلام» ممثّلاً عنهم هم، فهذا خلاف الغرض والأهداف، نظراً للفرق بين المهمّتين والشخصيتين، سيّما أنهم أرسلوا للإمام رسلاً من أهل الفضل في الجهاد والوثاقة والصدق، بما يكفي لإعطاء صورة صريحة نسبيّاً عن جدّية استعداد الإقليم... بيدَ أنّ الممثّل الشخصي للحسين مؤهّلُ لمهام قد لا يستطيع التوصل إليها سواه، فثمة وظائف قد لا ينهض بها غير عضو من أعضاء عصبة الحسين السبط كالبيعة مثلاً، وباقي شؤون المسيرة التي تقتضي وجود رجل يدير تحركها بوحي استيعابه الكامل للنحو الذي يريده الإمام، ويندر تحقق هذا في أشخاص خارج أجواء القائد أو من غير خواص

الإمام، حيث يمتاز بمواصفات قلّما توجد في الرجال المؤيّدين أيضاً والمخلصين.

خصائص الممثّل العادي:

قبل الوقوف على شخص ممثّل سبط رسول الله «صلّى الله عليه وآله» وقبل أن نفهم خصائصه الراقية كمبعوث «فوق العادة»، علينا أن ننظر في أهم شروط إرسال الممثّل العادي وما ينبغي توفّره من صفات لديه كي يليق بشأن وظيفته، مقدّمة أولية للإحاطة بعظمة شخص المبعوث الحسيني.

فقد اعتادت الشعوب و الأُمم، و ملوك العرب و العجم، على اشتراط مواصفات خاصة بالرسول العادي الذي يرسلونه الىٰ الملوك والأقوام و البلدان الأُخرىٰ، بمهام رسمية عسكرية ومدنية... فمثلاً يقولون:

«يحتاج الرسول من الحلم و كظم الغيظ، ما يحتاج اليه من الصبر على طول المكث وتراخي المقام. فإن الرسول ربّما وُجّه الىٰ سخيف ودُفع الىٰ طائش، فبدرت إليه منه الكلمة البذيّة، فيلحقه من سَوْرة الغضب، ويتملك عليه من سلطان الغيظ ما يتخوّن عزمه ورأيه، ويقطعه عن استيفاء حُجَجه وإيفاء كل ما في رسالته (البريدية التي يحملها). وهو مع الحلم والكظم أخْلَق بالنجاح وبلوغ المراد. واذا لم يكن متأنّياً صبوراً، مكيناً من عقله، فَمنّي بالملك الحازم المُخَمِّرْ لرأيه المُراجع لنفسه، الذي لا يُمضي إلا الرأي المتعَقَّبَ المُنَقَّح، لم يَخلُ الرسول من أن يهجم به الغُلق والعجلة علىٰ إحدىٰ خلّتين لا ثالث لهما: إمّا أن ينقاد الىٰ مؤآتاة مَنْ أُرسل اليه علىٰ ما أُوتي له فيه الحظ، وعلىٰ مرسله الغُبن حرصاً على سرعة الكرّة وتعجُّل الأوبة، وإمّا أن يعود بأمر لم ينفصل، ورأي لم ينبرم، فيرجع كما بدأ»(١).

---

(١) رُسُلُ الملوك لابن الفراء: ص٤٠، ٤١ تحقيق د. صلاح الدين المنجد، ط٢ سنة ١٩٧٢م.

يقول آخر بشأن العمل السياسي و الرسائل الدبلوماسية أيضاً: «إختَر لرسالتك في هدنتك وصلحك، ومهماتك ومناظراتك والنيابة عنك، رجلاً حصيفاً بليغاً، حولاً قُلَّباً، قليل الغفلة، منتهز الفرصة، ذا رأي جَزْل وقول فصل، ولسان سليط وقلب حديد، فَطِناً للطائف التدبير، ومستقبلاً لما ترجو أو تحاول بالحَزامة وإصابة الرأي، ومتعقباً له بالحذر والتميز، سامياً الىٰ ما يستدعيه إليك ويستدفعه عنك. إن حاول جَرَّ أمرٍ أحسن اعتلاقه، وإن رام دفعه أحسن ردّه، حاضِرَ الفصاحة مبتدر العبارة، ظاهر الطلاقة، وثاباً علىٰ الحجج، مُبرماً لما نَقَضَ خصمك، ناقضاً لما أبرم.... وليكن من أهل الشرف والبيوتات ذا همة عالية، فإنّه لابد مُقْتَفٍ آثار أوليته، محبّ لمناقبها، مساوٍ لأهله فيها. فمتىٰ ما اجتمعت لك فيه هذهِ الخصال فاجعله من بطانتك، وأطلعه طِلْعَ أمرك خطيرهُ وحقيرهُ، واستشره في بَداتك لطيفها وجليلها(١)... الخ.

بينما نَظم الشعراء قصائد متعددة في ذلك المعنىٰ، إمعاناً في الإهتمام الشديد بهذا الحقل السياسي، كقولهم مثلاً:

إن الرسول مكان رأيك فالتمس ... للرأي آمن مَن وجدت وأنصحا
تأبىٰ الأُمور علىٰ الغبي،فإن سعى ... فيها الذكي، فبالحرا أن تصلحا
فإذا تخيّرت الرسول فلا تكن ... متجوّزاً في أمره متسمِّحا
وتوخ في حسن اسمه وروائه ... قول النبيّ تَيَمُّناً و تنجحا
واجعله إمّا ماضياً أو نافذاً ... أو ياسراً أو منجحاً أو مفلحا(٢)

يقول شاعر آخر:

اذا أرسلت في أمر رسولاً ... فأفهمه و أرسله أديبا

---

(١) رُسل الملوك : ص ٣٣، ٣٤.

(٢) نفس المصدر: ص٨٩.

ولا تترك وصيته بشيء و إن هو كان ذا عقل لبيبا
فان ضيَّعت ذاك فلا تلمه علىٰ أن لم يكن حَفِظ الغيوبا(١)

فالشاعر يعتبر الوصية المفصلة أساس العمل، يخالفه من يقول:

إذا كنت في حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً و لا توصه

ومنهم من يقول:

تخيَّر رسولك إن الرسول يدل علىٰ عقل من أرسله
تراه إذا كان ذا حكمة يبلّغ أحسن ما حُمّله
فيبرم منتقضات الأُمور و يفتح أبوابها المقفله
و يرجع إن كان ذا غِرةٍ عليه الأُمور التي هُنَّ له(٢)

و أخيراً قال أحدهم هذه الأبيات:

إني انتدبتك للرسالة بعدما دبّرت أمري مُبدياً ومُعاودا
إعلم بأنك إن أضعتَ وصيتي وأصبت،لم أكُ للإصابة حامدا
و إذا أجدت بها فعاقك عائق عمّا أردت بسطت عذرك جاهدا
إنّ الرسول إذا استبدّ برأيه وعصى وليّ الأمر كان معاندا(٣)

نجد هنا البيت الثاني يؤكد علىٰ الطاعة بشكل دقيق، في سياق المطلب الملح بالمراعاة الواجبة لجوهر الوصية وأصلها، التي لو أضاعها وأصاب الطلب لما رضي الولي عن رسوله ولما كان عنده محموداً أو جديراً بالثناء والإطراء.

تلك توجيهات اجتماعية و سياسية، أملتها التجارب وفرضها العقل والعرف، كما عززتها الأخلاق الإسلامية محاولة إصلاحها وتهذيب أهدافها.

فبناءً علىٰ تلك الإعتبارات المكرّسة للرسل والمراسلين السياسيين والسفراء

---

(١) رُسل الملوك : ص ٩٠.
(٢) نفس المصدر: ص٣٨.
(٣) نفس المصدر: ص٣٢.

الرسميين، كيف إذن ينبغي أن تصبح خصائص من سيكون رسولاً للحسين وسفيراً لسبط سيد المرسلين «صلّى الله عليه وآله وسلّم» ومبعوثاً شخصياً منه الىٰ شعب مضطهد ـ لا الى مَلِكٍ أو جهة رسمَية محدودة ـ انه مجتمع زاخر بالأضداد في مدينة هي عاصمة حافلة بالتناقضات، تعجّ بالمظالم والمشكلات، لابد إنه سيكون مبعوثاً معبّراً عن شخصه الكبير، مجسّداً لشأنه العظيم... يقول الإمام أمير المؤمنين عليّ:

«رسولك ترجمان عقلك، و كتابك أبلغ ما ينطق عنك»(١).

تشخيص الرجل الأليق:

ليست رغبة سياسي ساذج، ولا خاطرة قائد عادي، فخاض دراسة القضية، وترشيح الشخص المناسب سيسفر عنه انعكاس تام لشخصية الإمام في وقوفه الجادمن الأزمة القائمة، وفي قراره النافذ إزاء الطلب، ولذلك فقد وقع اختيار الحسين «عليه السّلام» على أحد أرقىٰ أقطاب الطالبيين، وأحد ألمع نجوم البيت النبوي، مستعيناً بربه، مستلهماً تسديد السماء له، حينما تكدّست الكتب الكوفية متراكمة بين يديه: «عندها قام الحسين «عليه السّلام» فصلّى ركعتين بين الركن والمقام، وسأل الله الخيرة في ذلك. ثمَّ طلب «مسلم بن عقيل» قدس الله روحه، وأطلعه علىٰ الحال، وكتب معه جواب كتبهم»(٢).

إذن فإن اختيار المجاهد الكبير «مسلم بن عقيل» ممثّلاً شخصياً ونائباً خاصاً ومبعوثاً معبّراً عن سيرة الحسين وسياسته، يفصح عن مدىٰ ما لدىٰ «مسلم» من امتيازات كامنة في روحيته وعلمه وجدّيته وشجاعته، وباقي

---

(١) نهج البلاغة: ص ٦٢٧ رقم النص ٣٠١ طبعة بيروت ١٩٦٣م.

(٢) نفس المهموم للقمّي: ص ٥١.

مؤهلات المهمة من الصفات التي شبّ عليها شُبّان بني هاشم.

إن الدور المنوط به ليس محدوداً، لم يكن رسولاً بسيطاً، ولا سفيراً مقيّداً، أو نائباً دنيوياً، فقد كانت مهمته مطلقة في شتّى الشؤون الدينية والدنيوية، واسعة الصلاحيات متفرعة المسؤوليات، بفعل ما تقتضيه ظروف المرحلة والقضية، وبفضل مايتمتع به مبعوث الحسين «عليه السّلام» من فضائل الفقه والتُقىٰ واليقظة، والورع والعز والعمل، وباقي مظاهر العظمة ومقوّمات المجد والسؤدد.

لا غرو أن يُمثّل الحسين «عليه السّلام» رجل يحمل هموم تقرير المصير، قد توفّرت فيه كافة الكفاءات، وتجمعت لديه معالم الجدّ والجدارات، ليكون خليقاً بنيابة سبط رسول السماء «صلّى الله عليه وآله»، متكامل اللياقة في الولاية المطلقة لإدارة حركة الكوفة بقابلية نادرة. إذ كان هذا الرجل واعياً للواقع المرير، معاصراً للآلام التي اعتصرت الشعوب المسلمة، مواكباً لمسار الوقائع ومجريات الأحداث ونكبات الأمة، محيطاً بالحكم القائم والنحو السياسي الذي ينحوه، مشاطراً الإمام في أهم آراء علاج الأزمة، ملمّاً بمنهج الحسين في القضايا المهمة، فهو عَضُدُ ابن عمه السبط ونجيّه في تبادل وجهات النظر المصيرية الحاسمة. يتداول معه مظالم المسلمين، ومشكلاتهم التي تنتدبهم للثأر لدين الله باعتبارهم أُمناء الرسالة وأحوط الناس على الإسلام الحنيف.

أمّا سبب اختياره دون غيره من الرجال الهاشميين، فيعود الىٰ حيازته على قصب السبق في مضمار أو عدة مضامير، ولا نستطيع التماس مقارنة مقوّمات الشخصيات الهاشمية، لفقدان ما نركن إليه من روايات مفصلة أو فاصلة، بيد أن الواضح كون «مسلم بن عقيل» من كبار علماء وفقهاء بني هاشم، ويُعدّ الهاشمي النموذجي جهاداً وإجلالاً بالإعتماد على صريح رأي الإمام الحسين القاضي بامتيازه عن سائر رهطه الطاهر، فيُقيّمه بكلماتٍ غير خافية الدلالة،

حين قال عنه: «أخي» «وابن عمي» «وثقتي من أهل بيتي»(١) وفي رواية اخرىٰ قال: «والمفضّل عندي من أهل بيتي»(٢) طيّ الرسالة التي كتبها للكوفيين... ولا مراء في أن ما لمسلم من قدسيّةٍ إنما هي مستمدة من قدسيّة سبط رسول السماء «صلّى الله عليه وآله وسلّم» الذي وقف يصلّي «بين الركن والمقام» مستلهماً من ربه الصواب في اصطفاء نائبهِ لنوائب أيام الأُمة.

الوصية و الكتاب:

«أوصاه: بتقوىٰ الله، و كتمان أمره، واللطف»(٣).

هذا هو كل ما أوصاه به مما دوّنته المصادر التاريخية، وكأن الإمام لم يوص مبعوثه بشيء، أو أنه أوصاه بكل شيء علىٰ الإطلاق، مما استبطنه النص الشريف وانطوت عليه الوصية المختصرة! فما أوجز تلك العبارة وأعظمها بنفس الوقت؟ ولربما هي أوجز ما حفل به التاريخ من وصايا جوهرية بليغة، في أعقاب الأزمات السياسية، وأثناء معالجة القضايا المصيرية.

إنّ اللبيب البصير، لا يفوته أن يستشفّ من نصّ الوصية الوجيزة، كون الباعث والمبعوث علىٰ سابق اتفاق حول سائر مسائل المسلمين، وأنهما علىٰ وفاق تام حيال الاطروحات والحلول المطروقة من قبلهما سلفاً، مما يجنبهما الإكثار والإطالة في مختلف الأُمور. لا ننسىٰ أن مسلماً لم يستقدمه الإمام من بعيد، ولم يقرّبه إليه بعد تباعد، ولم يدنه منه بعد تناء... تجاوزت علاقتهما «القربىٰ» الىٰ وثاق متين من مسؤوليات الإسلام والمستقبل.

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٦٢/٤، والإرشاد: ص ٢٠٤، وغيرهما.

(٢) المنتخب للطريحي: ٨٣/٢.

(٣) الإرشاد: ص ٢٠٤،وتاريخ الطبري: ٢٦٣/٤، وتاريخ ابن الأثير: ٢٦٧/٣، وبحارالأنوار: ٣٣٥/٤٤،وأعيان الشيعة: ج٤، ق١، ص١٦١.

إنّ الذي شارك الحسين «عليه السّلام» أيامه و عاش معه آلامه، يساهم في رسم خطوط المسيرة بيده، متصدّياً لِدَمل جراح الأُمة النازفة والذي كانت آراء الإمام العلنية والسرية، الواضحة والغامضة في حوزته، وهو في غنى عمّا تعارف عليه الناس من توصيات سائدة... ولا يحتاج الى أخذ العهود منه ولا إبرام المواثيق معه، ولا يحتاج الى قَسَم أو يمين، بحكم أنه الثقة الأمين.

أوصاه بتقوىٰ الله: كقوةٍ تتحكم بالسعي، و أهم ضابطٍ من ضوابط المضيّ وفق منهاج مبادئ المجاهدين... تقوىٰ الله: كضمان لكل قول أو فعل، صغيراً كان أو كبيراً، فيهيمن علىٰ خفايا النفس ونوازعها ليكون الحبّ والكره كله لله، والسلم والحرب والتحرك والتوقف، بالنوايا النزيهة والدوافع البعيدة والمقاصد الصالحة... تقوىٰ الله حتىٰ علىٰ حساب السلامة الشخصية، أو علىٰ حساب النصر الآنيّ الدنيوي الطارئ، فالمهمة ليست في طلب رئاسة أو زعامة، ولا سيطرة علىٰ مقدرات، أو مدّ نفوذ علىٰ بعض الولايات، انما المهم والأهم هو رسالة الله تبارك وتعالىٰ، دين الله وشريعته، امّة نبي الله المغلوبة علىٰ أمرها، ورضا الله الذي لا يتحقق بمعزل عن تقواه.

أوصاه بكتمان أمره: خضوعاً لمقتضيات الحكمة السياسية الموفقة بإدارتها في خضم الخداع والسياسية الشيطانية. والكتمان أمرٌ يتطلبه العمل الناجح والسعي الذكي خلال كل مرحلة أو قضية... ويبدو أن الأمر بقي طيّ الكتمان في دوائر الحجاز والمدينة تجنّباً لعبث الإنتهازيين والمنافقين الذين ينتفعون من هذه الفرص، أو الأخبار ليرسلونها الى الحكام قبيل بلوغ المبعوث أهدافه. وظلّ مكتوماً في نطاق الكوفة قليلاً، وقد تفشّىٰ بفعل اتساع الحماس الجماهيري اللامنضبط.

أوصاه باللطف: مراعاةً لفئات المجتمع، و مداراةً لطبقات الشعب المضطهد، واستقطاباً لجميع الجمهور، وإتباع أمثل الأساليب معهم، وخفض

الجناح لهم وأخذهم باللين والعطف والشفقة «وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ»(١). فثمة نفوس مختلفة، ومستويات متباينة، ومفاجئات إجتماعية متوقعة، وغير ذلك مما يحتم اللطف ويوجب التجاوز «خُذِ الْعَفْوَ، وَ أْمُر بِالعُرْفِ وَ أعْرِضْ عَنِ الجاهِلِينَ»(٢).

حسبنا هذا التعقيب المقتضب، فلسنا بمعرض دراسة هذا النصّ النفيس للوصية الحسينية... أما الكتاب الذي كتبه الإمام السبط، فخير ما نذكر عنه هو التعبير الحسيني الذي يميط فيه اللثام عن التفكير الإسلامي الخاصّ بالولاية والإمامة، فيحدّد بمنطق بليغ: إن الإمام هو يَدٌ عاملة بكتاب الله، منفذة أوامره، ممتنعة عن غيره، والإمام هو ذلك الحابس نفسه في ذات الله، لا في ذاته أو ذاتيات الآخرين من الولاة الطغاة. ويندر أن نظفر بتعريف أبلغ مما ختم به الحسين «عليه السّلام» كتابه معرّفاً الإمامة في رحاب الوظيفة العظيمة. وهذا هو النصّ الكامل لكتابه التاريخي الخالد:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن عليّ، الى الملأ من المؤمنين و المسلمين.

أما بعد: فإن هانئاً و سعيداً قَدِما عليَّ بكتبكم، وكانا آخر من قَدِم عليَّ من رُسُلكم. وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم، ومقالة جُلّكم: أنه ليس علينا إمام، فأقبل لعلّ الله أن يجمعنابك على الهدىٰ والحق.

و قد بعثتُ إليكم أخي و ابن عمّي و ثقتي من أهل بيتي، وأمرته أن يكتب إليَّ بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب اليَّ أنه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجىٰ منكم علىٰ مثل ما قدمت عليَّ به رُسُلكم وقرأت في

---

(١) سورة آل عمران: ١٥٩.

(٢) سورة الأعراف: ١٩٩.

كتبكم، أقدم وشيكاً إن شاء الله.

فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه علىٰ ذات الله، والسلام»(١).

تجدر الإشارة ـ تمشّياً مع عادة المرويات التاريخية المتضاربة ـ الىٰ أن هذه الرسالة لم يحملها هانئاً وسعيداً ـ كماروي ـ، بل لقد حملها المبعوث نفسه بدلالة قراءته هو لنصّها على الكوفيين، وبدلاله قول الخوارزمي: «ثمَّ طوىٰ الكتاب وختمه، ودعا بمسلم بن عقيل فدفع اليه الكتاب»(٢).

هذا، و قد توجه الإمام الحسين «صلوات الله عليه» بكلمة ثمينة ونفيسة الىٰ مبعوثه الكبير عقب تسلّمه الرسالة الخطية... كلمة غالية ملؤها الزهد واليقين والعرفان، عميقة الدلالة بعيدةُ الغرض والمرمىٰ، تنطوي على حسّ القديسين من الشهداء العظماء حين قال له:

«إنّي موجّهك الىٰ أهل الكوفة، و سيقضي الله من أمرك ما يحب ويرضىٰ. وأرجو أن أكون أنا وأنت في درجة الشهداء، فامضي ببركة الله وعونه... ـ وأضاف قوله: ـ فاذا دخلتها فانزل عند أوثق أهلها»(٣).

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٦٢/٤، والإرشاد للمفيد: ص ٢٠٤.

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي: ١٩٦/١.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

الفصل الثالث

أضواء في الطريق الىٰ الكوفة

و مسلم بن عقيل كان من أمر تكليفه الحسيني في أعلىٰ درجات اليقين، ليس قلقاً في قناعته، قوياً في تقدمه... (خلافاً لرواية ترددة أثناء الطريق).

تجهّز المبعوث بما يناسب قطع المسافة بين مكة المكرمة والكوفة، وانتهىٰ من توديع الإمام السبط وأبناء عمومته وإخوته وعائلته وصحبته المؤمنين... وانطلق بمعيّة نماذج من أجلّاء المجاهدين الكوفيين أتباع آل محمَّد «صلّى الله عليه وآله» سبق لهم أن مثلوا بين يدي الإمام برسائل من خاصة الشيعة وعامة مسلمي الكوفة وهم: المجاهد قيس بن مسهر الصيداوي، والمجاهد عمارة بن عبدالله السلولي، والمجاهد عبدالرحمن بن عبدالله الأرحبي.

كان وقت الإنطلاق من مكة هو ليلة النصف من شهر رمضان المبارك سنة ٥٩ للهجرة، «مستخفياً ليلاً، لئلّا يراه أحد من بني أمية»(١) فنزل في المدينة حيث دخل ورفاقه الثلاثة المرقد النبوي الشريف... يقول الخوارزمي: «فلمّا دخل (مسلم) المدينة، بدأ بمسجد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فصلىٰ ركعتين، ثم خرج في جوف الليل وودّع أهل بيته»(٢) المقيمين بالمدينة...

(١) مقتل الحسين «عليه السّلام» للخوارزمي: ١٩٦/١.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

وواصل مع صحبهِ سيرهم الحثيث نحو هدفهم المنشود وهم خارجون من المدينة المنورة.

و نحن هنا نضطرّ أن نتوقف قليلاً قبل أن نتابع رحلة فرسان الرسالة، لننظر فيما رُوي عن الدليلين اللذين قيل أن مسلماً استأجرهما من المدينة ليدلّاه علىٰ الطريق، فضلّا الطريق وماتا عطشاً، فتشاءم مسلم كما زعموا وسنقدّم رأينا وردودنا علىٰ هذه الرواية.

رواية الدليلين:

تفيد الرواية أن المبعوث قام باستئجار دليلين من المدينة... الدليلان انحرفا عن الجادة «ذات ليلة، فأصبحا وقد تاها وأشتد عليهما العطش والحر، فانقطعا فلم يستطيعا المشي، فقالا لمسلم وقد اتّضح لهما سنن الطريق: عليك بهذا السمت فالزمه لعلك أن تنجو، فتركهما مسلم ومضىٰ على ذلك السمت، ولم يلبث الدليلان أن ماتا عطشاً»(١).

توحي كلمة «ذات ليلة» الى أنهما ضلّا الطريق بفعل ظلام الليل، فيما قيل -في رواية- أنهما تعمّدا تنكّب الطريق «خوفاً من الطلب»(٢) أي خشية مطاردة المبعوث من قبل أعدائه، وهنا لابد أن نذكر بأنهما -إن وجدا- فهما لا يعلمان بطبيعة المهمة ولا ينبغي أن يعلما.

ترتب علىٰ هلاك الدليلين أثر قضىٰ بتوقف المسير -حسب مضمون الرواية-، ونحن نضيف هنا ما أملاه الراوي من أن مسلماً كتب للإمام بأنه «تطيّر»، وهذا نص رسالة مسلم:

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري: ص ٢٤٤. طبعة ليدن.

(٢) حياة الإمام الحسين للشيخ القرشي: ٣٤١/٢.

أما بعد: فإنّي أقبلت من المدينة، معي دليلان لي، فجارا عن الطريق وضلّا، واشتد علينا العطش، فلم يلبثا أن ماتا، وأقبلنا حتىٰ انتهينا الىٰ الماء، فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا، وذلك الماء بمكان يدعىٰ المضيق من بطن الخبت، وقد تطيّرت من وجهي هذا، فإن رأيت أعفيتني منه، وبعثت غيري، والسلام»(١) أرسلها بيد المجاهد قيس بن مسهر الصيداوي - كما قيل - وأجابه الإمام برسالة حملها نفس الرسول، تقول:

«أما بعد: فقد خشيت ألا يكون حملك علىٰ الكتاب إليّ في الإستعفاء من الوجه الذي وجهتك له إلا الجبن، فامض لوجهك الذي وجهتك له، والسلام عليك»(٢). فقال مسلم لمن قرأ الكتاب:«هذا ما لست أتخوّفه علىٰ نفسي»(٣). -وسنقف علىٰ هذه العبارة لاحقاً- لنستطرد تسجيل بقية الرواية القاضية بأنه «أقبل كما هو حتىٰ مرّ بماء لطيء فنزل بهم، ثم ارتحل منه، فاذا رجلٌ يرمي الصيد، فنظر اليه قد رمىٰ ظبْياً حين أشرف له فصرعه، فقال مسلم: يُقتل عدونا إن شاء الله»(٤).

إن رفضنا للرواية ليس بسبب ورود مفردة «التطيّر» أو مفردة «الجبن» في تضاعيف الرواية، وإنّما لأسباب متعددة أُخرىٰ، فالتطيّر ليس من المفاهيم المتبنّاة لدىٰ أهل البيت النبوي، حتىٰ يليق أن ينسب لأحد علمائهم وأبرز فقهائهم وأشهر شجعانهم الذي يواجه الخوف ويصارع الموت غير هيّاب(٥)...

---

(١)و (٢) تاريخ الطبري: ٤/٢٦٣، ٢٦٤ والإرشاد: ص ٢٠٤ وابن الأثير: ٣/٢٦٧.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/٢٦٤.

(٤) نفس المصدر.

(٥) شكّك المحقق المرحوم المقرّم بالرواية من حيث ورود مفردة التطيّر، لكنه لم يلبث أن استفاد من بقية الرواية القاضية بأن مسلم تفاءل بمشاهدته صيد الصائد... لقد فنّد السيد المقرّم نسبة التطيّر لمسلم وعامة البيت المحمدي، فدافع دفاع الرجل الرشيد الذاب عن حياض المفاهيم، والذائد عن رهط الرسول ←

أما كلمة الجُبن فبتقدير أن بعض المواقف لا تمنع استعمالها أدبياً(١)، فقد روي عدم وجودها أصلاً، إذ كتب الإمام الىٰ مسلم «مامِنّا مَنْ يتطيّر»(٢) وروي أنه كتب: «أما بعد: فقد خشيت أن يكون حملك علىٰ هذا غير ما تذكر، فامض لوجهك الذي وجهتك له، والسلام»(٣) إننا نجد جملة نقاط تسترعي الإهتمام، وتساعد علىٰ التقليل من شأن الرواية وتفنيدها.

الردّ علىٰ كل الرواية:

* : إنّ الإمام الحسين «عليه السّلام» هو الذي سرّح المجاهدين الثلاثة مع مسلم(٤)، فلم يُغفل أمر الطريق في مهمة كهذهِ، فرافقي مسلم ليسوا من المكّيين أو الحجازيين، بل من الكوفيين الذي لا يخفىٰ عليهم الطريق الىٰ مكة والعودة منها، فيمكنهم أداء دور الدليل سيّما وهم حريصون علىٰ الكتمان كما وصّىٰ الإمام.

* : بحكم مهنة الدليل في الطريق الطويل، يفترض بكل دليل توفير كافة مستلزمات السفر البعيد، فضلاً عن قابلية الصبر المكتسبة من ممارسته وبيئته الحارّة كمناعة لمقاومة الصعاب وضدّ الظمأ، وإذا ضلّا الطريق ليلاً ـ كما في الأخبار الطوال ـ فهل عجزا عن تحمّل العطش الىٰ نهار اليوم التالي؟!

في تنزيه نصوصهم وسلوكهم عن التناقض في بحث رائع حول الطيرة إستغرق عشرون صفحة تقريباً... انظر (الشهيد مسلم بن عقيل): ص٨٠،٩٧.

(١) فمثلاً، يعتبر المرحوم الشيخ المظفر أن ورود كلمة الجُبن في هذا المقام إنما جاءت «لأجل إثارة الحماس و بث روح النشاط... ولتهيّج الشعور الحفاظي وإشعال نار الحفيظة في الصدور...» (سفير الحسين عليه السّلام): ص٥٧.

(٢) سفير الحسين «عليه السّلام»: ص ٥٧.

(٣) وسيلة الدارين للزنجاني: ص ٢٣٥.

(٤) تاريخ الطبري: ٤/٢٦٣.

* : ثُمَّ ما مدىٰ العلاقة العضوية والرابطة المادية بين الدليلين، بحيث لعبت تلك العلاقة دوراً مدهشاً للغاية! إذ ضلّا معاً! وعطشا معاً! وبلغ ظمؤهما كلاهما درجة الموت حقاً! وفعلاً ماتا معاً! في وقت واحد ومكان سوى! ماهذه الآصرة بينهما وهذا الإتفاق على الموعد «الحزين»؟!...

* : لماذا استأجرهما من المدينة وليس من مكة؟ ثمَّ لِمَ لَمْ يهدد الظمأ أحد الأربعة ـ مسلم ورفاقه الثلاثة ـ وقد عانوا نفس المعاناة، وتاهوا بنفس الطريق تحت نفس الأجواء الحارة، وهل من المعقول والمقبول أن لديهم ماءً يبخلون به علىٰ أحد الدليلين...؟!.

* : ما هذهِ القابلية العالية لدىٰ الدليلين، فبالرغم من أنهما أشرفا على الممات لم يهملا تقديم الخدمات، إذ أشارا لمسلم الى سمت الطريق وسننه؟ فهل لمن يعاني سكرات الموت أن يعي ما حواليه؟ وهل لمن يُحتضر أن ينتبه وينبِّه غيره لطريق الحياة؟ أيّ مقدرة هذهِ، أم أيّ جفاء من قبل الأربعة الذين لم يحرّكوا ساكناً بشأن إنقاذهما أو أحدهما مثلاً؟

وثمّة ردود بصدد الرسالتين:

* : كيف ذهب المراسل ـ قيس الصيداوي حامل الرسالتين ـ الىٰ مكة و عاد منها؟ وكيف اطمأن الطرفان علىٰ قطع الطريق الذي راح ضحية الغفلة فيه خبراء المواصلات ومحترفي سلوك طريق السفر؟

* : طالما أنّ الإمام الحسين لم يرفق الدليلين معهم، و لم يعلم بهما ضمن الرحلة، فما دواعي إخطاره عمّا حدث؟ سيّما أن استمرار السفرة لم يكن مشروطاً بسلامة أحد مرافقيها أو أدلّائها.

* : إنّ لهجة صاحب الطلب ـ مسلم ـ في رسالته، توحي الىٰ إرادة العودة وقوة رغبة الرجوع لديه، متمنّياً إعفاءه أو استبداله بغيره، وصاحب هذهِ الرغبة

ـحسب إيحاء الرسالة ـ ينبغي ان يرجع بنفسه عائداً الى مكة ـ لطرح الموضوع ـ وهو ماينا سب الموقف.

* : «هذا ما لست أتخوفه علىٰ نفسي» هكذا عقّب مسلم علىٰ رسالة الإمام الجوابية ـ وفق ما روي ـ فمِمَّ كان تخوفه مسبقاً، وما داعي اطمئنانه؟ فإذا استحصل علىٰ الطمأنينة من الحسين في صوابية توجهه، فإن الإمام بنفسه ـ وليس غيره ـ الذي وجّهه ابتداءً، حتى يتعيّن التماس رأيه ثانية... إنّ تعقيب مسلم ـ المنسوب له ـ يبدو غامضاً أيضاً، سيّما إنّه لم يتوقف للاستفسار بل ينتظر استدعاءه لقبول الإستعفاء!.

* : كيف و اصلوا المضي قدماً، و أنّىٰ لهم معرفة ما تبقىٰ من مسافة الطريق، وهي أطول مما قطعوه من المدينة الىٰ حيث وقعت «الواقعة»... أليس من المناسب أن يطلبوا دليلاً جديداً؟ أو أنّ الإمام نفسه يبادر بإرفاق دليل محترف، أو مجاهد خبير بالطرقات ضماناً لإ تمام الوصول بسلام؟ وهو ما لم يحدث، وإذا كانت الكفاية بالرفاق، الفرسان الثلا ثة، فقد نوّهنا في النقطة الأُولىٰ عن أهمية حضورهم معه منذ البدء.

* : بالنسبة لمكان وقوع الحادث، مضيق «الخبت» يفترض أن يكون موقعه بين المدينة والكوفة، بينما ينصّ «الحموي» علىٰ أن «الخبت سهل في الحرة»، «وهو علمٌ لصحراء بين مكة والمدينة»(١).

* : بالنسبة للزمن الذي تستغرقه هذه الرحلة ـ كمدة طبيعية ـ عشرون يوماً فقط، فيفترض ـ عند التسليم بتلك الرواية ـ أن تتجاوز الرحلة المدة الطبيعية(٢)، الىٰ أطول منها بإضافة فترة ضلال الطريق والمراسلة والإنتظار...

---

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي: ٣٤٣/٢.

(٢) حياة الامام الحسين: ٣٤٣/٢ ، ٣٤٤.

لكنّ الروايات التاريخية أكدت أن الرحلة قطعت المسافة بنفس المدة الطبيعية المتفق عليها(١)، هذا يعني أنه لم يحدث أي تعويق يوجب التأخّر خلال الطريق.

* : إستهدفت الرواية تصوير المبعوث كرجل متشائم يتطيّر، وهو ما يتنافىٰ مع المفاهيم الراسخة لدىٰ أهل بيت الرسالة، وتوجيهات النبيّ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» للمسلمين الناهية عن الطيرة وضرورة وعي مفهوم القضاء، فضلاً عن اجتناب رهط الرسول «صلّى الله عليه وآله» للطيرة في حياتهم تأكيداً لطابع الثبات والقوة والإتّزان في الشخصية المحمدية المدركة لمعاني القضاء والقدر.

* : إستهدفت الإيحاء بأنّ تحرك المبعوث مسلم كان خاضعاً لهواجس نفسية مزيجة من الخوف والتردد والإقدام، فتارة يتشاءم وأُخرىٰ يتفاءل... وهو إذ يتشاءم لعله مصيب في حسّهِ فيعجز عن الرجوع بفعل الأوامر، وهو إذ يتفاءل بقتل عدوه ـ حينما رأىٰ قتلَ رجل ظبْياً ـ فيظهر أنه مُخطئ في حسه ـ طبق فهم العامة لهذا التفاؤل ـ، فلم يقتل مسلم عدوه وإنّما عدوه قتله... وهكذا نلمس حالة من التصرف بالمفاهيم السائدة الحساسة، بحبك حكاية تصب ضمن فلسفة مرتكبة تثير في أذهان المسلمين الريبة والتردد والإرتباك وتقدح الشك وتلغي اليقين لإضاعة التكليف، سيّما التكليف الأصيل من مصدره النقي، ذلك المصدر المعصوم(٢).

---

(١) خرج مسلم من مكة في ليلة النصف من رمضان، و دخل الكوفة في الخامس من شوال، مروج الذهب للمسعودي: ٦٤/٢.

(٢) قيل أيضاً أن مسلماً استعفىٰ الإمام بقوله: «يا ابن عم الناس كثير، فبالله لا تلقىٰ الله بدمي. فقال له: لابد من مسيرك، فسار». تذكرة الخواص: ص٢١٧. وسواء ما نسبوه كان بمكة أو في الطريق بالمراسلة؛ فهو تصوير لإجبار «مسلم» الذي يخشىٰ «كثرة الناس» والذي يُلقي بتبعة دمه علىٰ الحسين «عليه السّلام» كأنّ التعامل واقع طبق حسابات المصالح الشخصية.

لقد كانت هذهِ العصبة العقائدية المحمدية على يقين من أمرها موفورة التفاؤل والإيمان، تمسّكها الشديد بناصية التكليف دون اكتراث للقتل والموت في سبيل الله والمبدأ والامّة، ومسلم بن عقيل كان من أمر تكليفه الحسيني في أعلى درجات اليقين، ليس قلقاً في قناعته، قوياً في تقدمه لأنه من قومٍ عقائديّون جاءوا لمجد الوجود، أحدهم إذا عاش أو قُتل كان هو الظافر المنتصر.

و بعد: فمن المؤسف أن يتداول هذهِ الرواية أكثر الكتّاب والخُطباء بلا تأمّل لفساد معطياتها، فيوحوا للناس ولذوي الأذهان الطرية من الشبان والفتية، أن من التشاؤم ما قد يقع وأن من التفاؤل ما قد يُخطئ إيحاءً من هذه الرواية -عن وعي أو بدون وعي- فيتوهم الناس أن المبعوث مسلم سار بهدي هذا الفهم... إنّنا نعتبر هذهِ الرواية من «نتاج» شيوخ الكذب، ومن «ثمرات» أئمة التدليس، علماً أنها من مدونات العصور السياسية الحافلة بالتزوير والتشويه والتلفيق.

تطلّعات الكوفة: يواصل البطل الطالبي و رفاقه الفرسان الثلاثة، مسيرهم باتجاه الشمال نحو الكوفة... يواصلون المضي وهم يمتطون صهوات جيادهم يحثّون خطى السعي الى الإقليم، الذي بقي يترقب ماستسفر عنه رسائلهم، فالجماهير ظلت تتطلع بشوق الى المنقذ الكبير سبط رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم»، لقد طال انتظار المظلومين المسحوقين، فما يمنع ابن الرسول من إجابتهم؟! وهم الذين أظهروا رفضاً شديداً للواقع... إنّهم يترقبون مجيء الحسين القائد بنفسه وهو أملٌ مَلَكَ عليهم قلوبهم، فلِم لا يجيبهم الإمام السبط الأبيّ، وهو رائد الرفض الأبديّ لنظام الحكم الأُموي؟؟... وفيما هم يتطلعون، إذا بخبر الإجابة الحسينية يملأ مسامعهم، ويهشّون الى الشوارع وهم يهرعون لاستقبال «وافد آل محمّد» المبعوث الشخصي لمُجَسّد مبادىء الرفض الحدّي.

الباب الثالث

التحضير و الإعداد بإشراف المبعوث

شرع النشاط الثوري الجاد لدىٰ وصول المبعوث الحسيني، فازداد معدل التحرك تحت اشرافه، ليرتفع عدد المبايعين في اكبر ظاهرة تكتل متمرد للكوفة «الفصل الاول»... وثمة صور اخرىٰ للنشاط المتسع «الفصل الثالث».

تعمدت قيادة المبعوث الحسيني في اول مراحل التحرك ، علىٰ اتخاذ جانب الحذر والحيطة لئلّا تستفزّ السلطة، تجنباً للاصطدام بها في غير حينه علماً بأن مهمة المبعوث في حضوره، انصبت على التحضير والاعداد فحسب، دون الخروج عن هذا الاتجاه المركز، تقوية لأرضية المواجهة، وهذا ما يحتاج الى سعة وقت، وتفرغ لا تعكره مناورات الموالين للحكم. فلم تحدث أية مواجهة بين الحركة ـ نخبة الشيعة وجمهور الكوفة ـ وبين الوالي ـ النعمان بن بشير الحاكم المحلي آنذاك ـ حين إلقائه خطاباً يطالب الناس فيه بالطاعة «الفصل الثاني» وقد كان تلبية لضغط الحزب الاموي الكوفي، الذي استاء من طبيعة الخطاب، لأن الحزب كان يدفعه لاتخاذ اجراءات مسلحة.

الفصل الأوّل

البيعة و التكتّل

«... والله أُحدثكَ عما أنا مُوطِنٌ نفسي عليه. والله لأُجيبنكم إذا دعوتم، ولاقاتلن معكم عدوكم، ولأضربن بسيفي دونكم، حتىٰ ألقىٰ الله، لا أُريد بذلك إلا ما عندالله».

البطل العقائدي عابس الشاكري

مقر المبعوث:

كان استقبال المبعوث الحسيني من قبل خاصة الكوفة، وعامتهم، إستقبالاً حافلاً يليق بكيانه وشأنه وعنوانه كنائبٍ عن ريحانة رسول الله «صلّى الله عليه وآله»... وقد دخل الكوفة بصحبة الرفّاق الثلاثة في اليوم الخامس من شهر شوال(١).

يعتبر أوّل مؤشّر علىٰ بُعد نظر المبعوث مسلم، هو حسن اختياره لمحل استراحته واستقراره، الذي سيكون مقراً لأعمال البعثة، وتوافد جمهور المسلمين، ومنتدىٰ أقطاب الشيعة، وسيصبح ـ تلقائياً ـ مركزاً لأخذ البيعة.

---

(١) مروج الذهب للمسعودي: ٦٤/٢.

و كما عوّدنا التاريخ و المؤرّخون، فثمة اختلاف بصدد أوّل دار اختارها مسلم ونزل بها، والإختلاف علىٰ ثلاث روايات، الأُولىٰ تقول: نزل في دار «مسلم بن عوسجة»(١) وهو من أصلب المجاهدين الكوفيين... والثانية تقول: نزل في دار «هانىء بن عروة»(٢) وقد اختار المبعوث دار المجاهد ابن عروة ولكن في وقت لاحق كمقرٍّ ثان، ولم يخترها إبتداءً ـ كما سيأتي في المواضيع اللاحقة ـ أمّا الرواية الثالثة فهي تنص: علىٰ اختياره بادئ ذي بدء دار المجاهد الكبير «المختار بن عبيدة الثقفي (٣) وهي التي «تدعىٰ اليوم دار مسلم بن المسيب»(٤) الذي تملّكها فيما بعد ـ كما يبدو ـ وتدعىٰ بذلك في أيام الطبري والمفيد اللذين عاشا في بداية القرن الهجري الرابع.

و طبق طلب الإمام من مسلم: إذا دخلت الكوفة «فانزل عند أوثق أهلها» فإنّ هؤلاء الرجال الثلاثة هم بعض أوثق الشخصيات الكوفية، كل واحد منهم ثقة كبير وكفء كريم... غير أنه لم يختر دار المجاهد ابن عوسجة مركزاً أو مقراً إلا اللهمّ أن يُحمل ذلك علىٰ دعوته لداره إبتداءً، أو نتوقع زيارة المبعوث لابن عوسجة في الأيام الأُولىٰ لمقدمه الشريف. علماً أنّ ابن عوسجة من أجلّاء رجال الجهاد، حتىٰ أنه أصبح ـ فيما بعد ـ نائباً عن المبعوث الحسيني في أخذ البيعة

أجل، لقد حلّ الضيف الكبير علىٰ البطل الكريم «المختار الثقفي»(٦)

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢٠٦/٣، و مروج الذهب للمسعودي: ٦٤/٢.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ٢٠١/٣، وأنساب الأشراف للبلاذري: ٢٢٤/٣ تحقيق الشيخ المحمودي.

(٣) تاريخ الطبري: ٢٦٤/٢،والإرشاد: ص٢٠٥،وتاريخ ابن الأثير وغيره.

(٤) تاريخ الطبري: ٢٦٤/٢،و الإرشاد: ص ٢٠٥.

(٥) مقتل الحسين للخوارزمي: ١٩٦/١.

(٦) كان «المختار بن عبيدة الثقفي» عنيداً في عقيدته الإسلامية ساخطاً علىٰ المنحرفين وسيفاً علىٰ ←

ذلك الرجل الفذّ في إيمانه ومكانته الإجتماعية وموقعه الثوري في البلاد ويبدو أن أهم دواعي هذا الإختيار دون سواه، راجع الى ما يتمتع به المختار من شخصية مصونة سياسياً، فهو صهر أمير الإقليم «النعمان بن بشير» عامل معاوية على الكوفة... وفي هذا مافيه من أهمية خاصة بمصلحة النشاط في كسب الوقت ـ أو بعض الوقت ـ لصالح الحركة، وفعلاً كان ذلك أحد أسباب لين الوالي وتساهله أو تغافله عمّا يجري في المقر من خطر، أو أنه كان غير مُقدّر حجم الأعمال التغييرية.

إستقرّ المبعوث الضيف في مقر إقامته، حيث توافد كل من سمع من الخاصّ والعام، حين أقام جلسة موسعةً جضرها من حضرها من المؤمنين و«العاطفيّين» الكوفيين، فكان علىٰ مسلم ذي البصيرة الفاحصة وصاحب الحصافة في الرأي والإختيار، أن يتحدّث إليهم ويخطب فيهم، ويعلن مهمته المقدسة معهم.. وقف ممثل الإمام الحسين «عليه السّلام» يتلو علىٰ مسامع الحاضرين كلمات كتاب الحسين حتىٰ أتمّه عليهم وختمه «... فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه علىٰ ذات الله، والسلام». وفي كل مرة يخطبهم أو يتلو كتاب الإمام عليهم، يظهر عليهم هياج ولهفة، فتغرورق أعينهم، وتترقرق الدموع في أحداقهم ويأخذون بالبكاء، كأنّما هم يتصورون لطف سبط سيد المرسلين، وتنتابهم ذكريات السعادة في ظل حكم أبيه، وذكريات البؤس تحت كابوس عدوه الغشوم، وتأخذ بهم المعاناة كل مأخذ «وهم يبكون».

و بعد ما انتهىٰ من تلاوة سطور رسالة الإمام الحسين «عليه السّلام» في

الجائرين، عنيداً في اعتماده نهج آل الرسول «صلّى الله عليه وآله» شديداً في صرامته باتباع الحق، ممّا سوّل لأعدائه تشويه سمعته بأنه كان ممّن ادّعىٰ النبوة «قاتلهم الله أنّىٰ يُؤفكُون» سورة المنافقون:٤.

محضر الجلسة الاولىٰ، وطوىٰ الرسالة الشريفة، نهض لبيعته أوّل الأشخاص المخلصين -وسنذكرهم-.

إن «مسلم» لم يطلب من المؤمنين و المسلمين بيعة، و إنّما أسمعهم كلام الإمام وصوت الإمام، ثم طوىٰ الرسالة، فطفقوا يبايعونه بلهفة شديدة، فبادروا المبعوث وراحوا يؤكدون عزمهم، ويصافحونه كبيعة للإمام علىٰ يد نائبه العظيم: أخوه، وابن عمه، وثقته من أهل بيته.

صيغة البيعة:

حينما تبدأ مرحلة الجد تطرح فكرة البيعة نفسها علىٰ الناس، وقد اشرأبّت الأعناق لتقديمها، ولكن علىٰ أيّ شيء سيتم أخذها أو تقديمها؟ لا شك أنّ المبعوث الحسيني الجليل قد حدد الصيغة التي علىٰ أساسها يقبل أخذ البيعة من الناس، إنّها «على حدّ البيعة التي أخذها رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم» من الأوس والخزرج في العقبة الثانية»(١). بعبارة اخرىٰ كانت البيعة كالتالي:

«الدعوة الى كتاب الله، وسُنّةِ رسولهِ، و جهاد الظالمين، و الدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسمة الفيء بين المسلمين بالسويّة، وردّ المظالم الىٰ أهلها، ونصرة أهل البيت علىٰ من نصب لهم العداوة والبغضاء وجهل حقهم، والمسالمة لمن سالموا والحرب لمن حاربوا، من دون ردّ لقولهم، ولا تخطئة لفعلهم، ولا تفنيد لرأيهم»(٢).

علىٰ هذا المعنىٰ الكبير و المضمون الخطير، بايع الناس دون اعتراض علىٰ

---

(١) المحقق المرحوم المقرّم في كتابه (الشهيدمسلم): ص١٠٣.

(٢) كتاب (الشهيد مسلم): ص ١٠٤.

الصيغة المطروحة بين أيديهم... إنّ البيعة تشكّل إلزاماً شرعياً لن ينفكّ قط، إلا حال انتهاء مدته ـ لو كان مؤقتاً ـ أو حدث للمبايع ما يجعله في حلٍّ من بيعته ـ لو كان مشروطاً ـ فالبيعة هي عبارة عن جعل الأمر الشرعي والتكليف الديني في رقبة المسلم المبايع، إنّها عملية ربط مصير المرء بمصير تطبيق مواد البيعة، أي بمصير قضية الأُمة ودينها في معترك الصراع الصارم.

توافدت جماهير الكوفة، يَحْدوها الحماس المتزايد، وتحثها العواطف المتأجّجة، وتغذيها الآمال المعقودة والأحلام الكبيرة للغد المأمول، يتسابقون الىٰ باب مقرّ المبعوث، تلهّفاً لرؤيا الطلعة البهية لنائب سبط النبيّ «صلّى الله عليه وآله»، ويتنافسون لتقديم البيعة لله وللرسول وريحانته علىٰ يد مسلم بن عقيل ممثّله الخاص.

لا ننسىٰ إنّنا أمام مجتمع بلغ من المعاناة ما تعاظم فيه إشفاقه الشديد علىٰ نفسه، لشعوره بالحيف والظلم المقيم، فراح يتحرك بعيداً عن واقع قدراته النفسية، وفوق قابلياته المعنوية الميدانية، فغفلوا عن خضوعهم لأساليب الإرهاب، أو اتكلوا علىٰ أوهام عدم اصطدامهم مع جيش الشام، أو فهموا أنّ دورهم ينتهي بمجرد تقديم البيعة وباقي الأدوار يقوم بها الإمام أو المبعوث!! أو ظنّوا أنّ تطبيق كتاب الله وسُنّة نبيه، إنّما هو بنفس الطريقة اللفظية الميسورة التي سمعوها من الولاة والأُمراء والخلفاء الذين سبقوا، فغاب عنهم كون مسلم بن عقيل هو ممّن إذا قال فعل، وإنهم إن لم يستجيبوا له بقوة افترسهم الفشل ونبذهم المستقبل.

لا نرتاب أنّ عامّتهم ينظرون الىٰ المبعوث الحسيني خلافاً لنظرتهم الىٰ أيّ مبعوث شيطاني عرفوه وسمعوه، وألفوه: والياً ومستولياً، حاكماً مستبداً... لكن نظرتهم لهذا القائد الجديد يعوزها الكثير من الجدّية في بذل أقصىٰ الجهود، وينقصها سعة فهم حجم المسؤوليات العليا التي يبايعون علىٰ

تبنّيها، وتحتاج الىٰ تجديد الإرادة وعلاج معضلة التخويف الذي يسري في الصفوف جراء الجرائم البشعة التي أوقعها معاوية بأهل الكوفة بصورة لم يسبقه إليها سابق.

و إلا فان الكمية الكبيرة للمبايعين الكوفيين في تلك الظروف لا تمثّل مقياساً للقوة، كما أشار بعض العقائديين المبايعين ـ كعابس وحبيب وسعيد ـ وسنذكر ذلك بعد قليل، ومع ذلك فانّ العدّ التصاعدي للمبايعين قد ارتفع كثيراً خلال شهر واحد تقريباً متجاوزاً العشرة آلاف الىٰ قرابة عشرين ألف رجل، وقيل بلغ تعدادهم أربعون ألفاً(١)، وفي رواية ثلاثون الفاً(٢)، وروي أنهم إثناعشر ألفاً(٣)، بينما روي أنهم بلغوا ثمانية عشر ألفاً(٤)، وهو الرقم الذي ورد برسالة المبعوث الموجهة للإمام، وبعبارة أُخرىٰ وإحصائية أدق: انّه الرقم الذي بلغته قائمة المبايعين حتىٰ وقت كتابة مسلم رسالته للإمام ـ بعد مضي قرابة خمسة وثلاثين يوماً علىٰ وصوله للكوفة ـ.

أوّل المبايعين:

طالما يكمن الوعي و تعيش الفطنة، عند الصفوة من المخلصين في كل مصر، ولدىٰ نخبة من حشود الجماهير الغفيرة، وطالما ينطلق واحد من بين الثلّة الثورية دون غيره من وسط الصفوة، ناطقاً بأمر ما ليس واضحاً ولا مخفيّاً، لا يحتاج الىٰ حديث كما لا ينبغي تناسيه... وقف البطل الرهيب «أسد الأُسود» ـ كما يسمّيه الناس الذين عرفوه وعرفوا بلاءه العظيم في سوح

(١) مثير الأحزان لابن نما.

(٢) حياة الإمام الحسين: ٢/٣٤

(٣) مروج الذهب: في حديث مقتل الحسين وعند المرور بذكر مسلم.

(٤) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٥ كذلك ص ٢٨١.

القتال- وقف ليقول كلمة متواضعة أمام المبعوث القائد، كان ذلك عقب تلاوة مسلم لسطور رسالة الحسين السبط وقُبَيْل انهيال الناس للبيعة... تقدم المجاهد «عابس بن شبيب الشاكري الهمداني» بين يدي المبعوث الكبير:

«فحمد الله و أثنىٰ عليه... ثمَّ قال، أما بعد: فإنّي لا أُخبرك عن الناس، ولا أعلم ما في أنفسهم، وما أغرّك منهم. (ولكنّي) والله أُحدثك عمّا أنا مُوَطِّنٌ نفسي عليه... والله لأُجيبنّكم إذا دعوتم، ولأُقاتلنّ معكم عدوكم، ولأضربن بسيفي دونكم، حتىٰ ألقىٰ الله، لا أُريد بذلك إلا ما عندالله»(١).

إنّها من الكلمات الخالدات التي صرَّح بها النصير الحسيني الكبير... فما استطاع البطل الجريء أن يلوذ بالصمت ساكتاً، وإنّما أعلنها بصراحة نادرة المثيل حين أشار الىٰ الناس بذكاء، وعَطَفَ مؤكِّداً مايعتمل في قلبه، ويختلج في صدره، فعبَّر عن نفسه الوثابة باسلوب مبدّدٍ سليم... انه يملك مقوّمات الثبات على مايؤمن به ويتبنّاه بنفسه، أمّا غيره فلا يملك بشأنهم علماً: «... فإنّي لا اخبرك عن الناس، ولا أعلم مافي أنفسهم، وما أغرّك منهم...» ولم يكن هذا التصريح الواعي يُنبيء عن لا مبالاته بقدر ما يُنبيء عن تحفّظاته من الناس واحتمالاته... ترىٰ هل كان يومئ الىٰ الشوائب والعوالق في الخليط الإجتماعي غير المتجانس؟ وهل كان يومئ للمبعوث مسلم عمّا وراء الحشود العاطفية، وأراد أن ينتشل نفسه من بينها ويُجلّي معدنه الخاص عن معادن الناس؟... كل ذلك صحيح وهو ما أراده من تقديم التصريح.

و الجدير بالذكر أن المبعوث أدرك ما انطوت عليه كلمة «عابس» المعبّرة

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٦٤،والفتوح لابن أعثم: ٥/٥٦،٥٧.

عن المعاني الخفية، الأمر الذي يفسّر اختياره لعابس الهمداني كي يتجه إلىٰ ملاقاة الإمام الحسين «عليه السّلام» بمكة حاملاً رسالته الخطية، وذلك بعد عدة أيام ـ وسنذكرها لاحقاً ـ وباختياره دون سواه لحمل الرسالة مقاصد بيّنة وأغراض ليست غامضة.

لقد أعرب «عابس» عن موقف متمحّض بالإخلاص والصميمية، بالمقدار الذي جعل المجاهد «حبيب بن مظاهر الأسدي» ـ وهو من كبار حواريّ الإمام أمير المؤمنين عليّ «عليه السّلام» يستعمل نفس اسلوب عابس ليعرب به عن موقفه هو الآخر، إذ قام فقال له: «رحمك الله، قد قضيت ما في نفسك بواجز من قولك... ثم توجّه نحو «مسلم» قائلاً: «وأنا والله الذي لا إله إلا هو، علىٰ مثل ما هذا عليه»(١) فمازاد عليه، بل أطرىٰ القائل والمقولة، وجعلها لسان حالِهِ.

كذلك بادر المجاهد «سعيد بن عبدالله الحنفي» الىٰ استعمال نفس المنطق ليستعين به علىٰ الإفصاح عن موقفه، «فأيّد مقالة صاحبيه»(٢) فهؤلاء بعض صفوة مؤمني الكوفة، اللذين صدقوا وصبروا ورابطوا، ولم يزعموا مالم يفعلوا، فامتطوا الكلمة الأمينة إلىٰ ساحة المصير، فصاروا مصاديق قول ربهم تعالىٰ «من المؤمنين رجالٌ صَدَقُوا ماعاهَدُوا الله عليه...»(٣).

حضر هذا الموقف في بداية شروع البيعة رجال كثيرون، أحدهم يدعىٰ «محمد بن بشير» الذي روىٰ ماجرىٰ من موقف عابس وصاحبيه يقول الراوي الآخر «الحجاج بن علي»: قلت لمحمد بن بشير: فهل كان منك أنت قولٌ (أي كقول عابس ورفيقيه) فقال لي: أني كنت أُحب أن يُعزَّ الله

---

(١) و(٢) تاريخ الطبري: ٤/٢٦٤، والفتوح لابن أعثم: ٥/٥٦، ٥٧.

(٣) سورة الأحزاب: ٢٣.

أصحابي (الكوفيين) بالنصر، وما كنت لأحب أن أُقتل، وكرهت أن أكذب»(١).

فكم كان أمثال هذا، و كم هم المحبّون للنصر ولا يحبون التضحية؟ وكم رجل عاهد علىٰ القتل ولم يتحرج من الكذب؟ لا نرتاب بكثرة من يحبون الغلبة بلا بذل، ويريدون الظفر بمعزل عن السعي، ويرغبون بالأخذ دونما عطاء... ومن كل هاتيك العيّنات نلمس مؤشّرات المستقبل... إذ بايع البعض من موقع الضعف، أمّا اللذين بايعوا من موقع القوة فقليل ماهم، وعليه فأن وعي الأكثرية وليد السلوك الجمعي الفعال الذي عمّ الحشود الغفيرة، والأخطر من ذلك تحول البيعة إلى غاية بذاتها، بينما تشكّل وسيلة للتحكّم بالقوىٰ، فتضع المبايع أمام الأمر الواقع، ليكون علىٰ بيّنة من أمره، فيكبح النفس ويردعها إن حدّثته بالهروب والتراجع، حينما يحمي وطيس المعركة.

إنّهم يبايعون المبعوث بتعاقب الأيام و الليالي، ويتزايد عددهم تدريجياً... أمّا القائد الحسيني ذو الحسّ المرهف، فهو يرقُب الواقع مواكباً الوضع بصبر جميل لا ينفد.

---

(١) نفس المصدرين.

الفصل الثاني

موقف السلطة المحلّية

المختار ساعد في صرف النعمان عن اتخاذ إجراء حازم إزاء الحركة، كأن يكون قد منّاه ـ وهو يعرف هواه ـ ليصرف شره عن نشاطهم المشروع.

من يدير شؤون السلطة؟

تسلّم ولاية الكوفة شخص يدعى «النعمان بن بشير» من قبل الملك معاوية الذي خاف أن يموت فتفوت الكوفة عليه وتفلت من ملك وليّ العهد، فنصب «النعمان» والياً ليّناً متسامحاً، عسى أن يهدّء من روع الكوفيين، ويُنسيهم مبادىء القسوة التي سنّها هو ـ معاوية ـ في سياسته وطبّقها ولا ته الغلاظ... والنعمان بن بشير يُحسب في قائمة الأنصار، فهو يُعدّ من الصحابة، كان يطمح بالسلطة والخلافة بعد معاوية، وكان طامعاً بالمناصب فاستغلّه معاوية لحفظ ملكه بالكوفة ليمارس سياسة اللين نيابة عنه، راجياً كسب رضا الناس عنه وعن بني أُميّة، لكن هذا اللين لم يساعد على تحذير كل الجمهور الساخط والشعب الناقم.

و ما كان أهل الكوفة يجهلون «النعمان» ـ إن غاب عنهم كثير من خفاياه وأسراره ـ فهم لا ينسون يوم شنّ غارة عسكرية غادرة على الآمنين

منهم في «عين التمر»(١) بأمر معاوية ضمن مسلسل الغارات المتوحشة المستهدفة لمواطن المسلمين، التي تقع تحت ظل حكومة الإمام أمير المؤمنين، وقد نفّذ أوامر شنّ الغارة دون تردّد أو محاسبة للنفس على ضوء القرآن ونور السنّة الشريفة، ولهذا تتنزّه صحبة الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم» عن أمثال هذا.

و ما كان خافياً على النخبة كونه ابن سابق لمناوءة الإمام عليّ، وسبّاق لنقض بيعته التي دعا اليها النبيّ «صلّى الله عليه وآله» في «غدير خم»، والنعمان هو الذي استخدمته امرأة عثمان ليحمل قميصه وأصابعها المبتورة الى معاوية، ليسفك الدماء باسم القميص، رافعاً شعاره المعروف ثأراً لعثمان كما ادّعى... وظلّ النعمان معه يأتمر بأوامره، ومعاوية يعرف كيف يستغل من لهم أدنى صفة بالصحبة وتطلعٌ نحو السلطة، ولم يكن مع معاوية في صفّين سوى رجلين من «الأنصار» هما «النعمان بن بشير، ومسلمة بن مخلد»، أمّا باقي الأنصار وأبرزهم صحبة، فقد كانوا مع الإمام عليّ في صفّين ضد «الفئة الباغية» التي أشار الى بغيها النبيّ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» في أكثر من حديث ومقام، حتى كان الصحابة يخشون التورط مع البغاة، بل إنّ من تخلّف عن الجهاد مع الإمام عليّ قد ندم أشدّ الندم على ما فات مما لم يَعُدْ، كندم عبدالله بن عمر بن الخطاب الذي كرّر إعلان أسفهِ الشديد، فقال عدةمرات في آخر عمره: «ما آسى على شيء فاتني، إلا أني لم أُقاتل مع عليّ الفئة الباغية»(٢). لكن النعمان هذا مبتهج في وقوفه بمقدمة هذه الفئة.

---

(١) نهج البلاغة: ص ٩٧، ٩٨ وفي هامش الصفحة وصف الشيخ محمد عبده، النعمان بأنّه «صاحب معاوية».

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ٣/١٥٥.

لم تنس الكوفة اعتزازه بالإثم في حضوره الباغي، متبجّحاً بأنّه صحابي أنصاري، يندّد بكل أنصار الرسول «صلّى الله عليه وآله» الذين وقفوا مع الإمام عليّ في صفٍّ مرصوص، ويستنكر وجودهم بجبهة الحق مدّعياً أنّهم على باطل، حينما تجرّأ مخاطباً قطب الأنصار «قيس بن سعد بن عبادة» منادياً بين الفريقين بصفين:

«... يا قيس بن سعد، أما أنصفكم من دعاكم الى ما رضى لنفسه (يقصد معاوية) إنكم معشر الأنصار أخطأتم في خَذلِ عثمان يوم الدار، وقتلتم أنصاره يوم الجمل، وإقحامكم على أهل الشام بصفين، فلو كنتم إذ خذلتم عثمان خذلتم علياً كان هذا بهذا (يُلاحظ المنطق الساذج) ولكنكم خذلتم حقاً ونصرتم باطلاً... ثمَّ لم ترضوا أن تكونوا كالناس، حتى أشعلتم الحرب ودعوتم الى البراز، فقد والله وجدتم رجال الحرب من أهل الشام سراعاً الى برازكم (يواصل توجيه كلامه لأنصار النبي في جبهة عليّ) والله لا تزالون أذلّاء في الحرب أبداً، إلا أن يكون معكم أهل الشام، وقد أخذت الحرب منّا ومنكم ماقد رأيتم، ونحن أحسن بقية ، وأقرب الى الظفر، فاتقوا الله في البقية»(١) فضحك سيد الأنصار وكبيرهم «قيس بن سعد بن عبادة».

لقد تعجّب «قيس» من صدور كلام كهذا من فقير لمؤهلات الصحبة والأصالة في النصرة كالنعمان الذي يعرفه قيس أكثر منّا، فسخر منه لتملّقه لمعاوية... ثمَّ ولكي لا تظل شبهاته المذكورة عالقة في أذهان البسطاء، ردّ عليه بموضوعية كاشفاً عن مدى تجاوزه للأخلاق والدين:

«فضحك قيس، وقال: والله ما كنت أراك تجترىء على هذا المقام... أمّا المنصف المحق فلا ينصح أخاه من غَشّ نفسه، وأنت والله

(١) الإمامة و السياسة لابن قتيبة: ٩٧/١.

الغاش لنفسك، المبطل فيم انتصح غيره،أمّا ذكرك عثمان، فإن كان الإيجاز يكفيك فخذه: قَتَلَ عثمان من لست خيراً منه، وخذله من هو خير منك. وأمّا أصحاب الجمل فقاتلناهم علىٰ النكث. وأمّا معاوية، فلو اجتمعت العرب علىٰ بيعته لقاتلتهم الأنصار (لاحظ منطق العقائديين) وأما قولك أنّا لسنا كالناس، فنحن في هذهِ الحرب كما كنّا مع رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم» نتّقي السيوف بوجوهنا والرماح بنحورنا، حتىٰ جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. ولكن انظر يانعمان: هل ترىٰ مع معاوية إلا طليقاً اعرابياً، أو يمانياً مستدرجاً؟ وأنظر: أين المهاجرين والأنصار والتابعون بإحسان الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه (يقصد أن كل هؤلاء حضور بجانب الحق في جبهة علي «عليه السّلام»). ثمّ انظر، هل ترىٰ مع معاوية غيرك وغير صويحبك (مسلمة بن مخلد) ولستما والله بدريّين ولا عقبيّين، ولا لكما سابقة في الإسلام، ولا آية في القرآن»(١).

بالرغم من كل ذلك يُراد للمسلمين الإقتداء بهذا أو ذلك، ممّن ضلّوا وأضلّوا باسم الصحبة، وقد نسبوا للنبيّ الأعظم «صلّى الله عليه وآله» القول التالي: «أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم».

صحيح أن الكوفيين بحاجة إلىٰ أيقاف سياسة الإرهاب والقسوة، وبحاجة الىٰ الأمير المتسامح الليّن... لكنّهم لا يجهلون «النعمان بن بشير» في انحرافه ومجمل مواقفه.

موقفه من الأحداث:

جرت ثلاث حالات يجدر بالأمير مواكبتها:

---

(١) الإمامة و السياسة: ٩٨/١.

١ ـ موت معاوية، و إرجاف الناس بيزيد.

٢ ـ تحرّك أهل الكوفة في المكاتبة والمراسلة لسبط الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم».

٣ ـ مجيء مبعوث الحسين «عليه السّلام»، وتقديم البيعة الواسعة له.

فما هي الإجراءات اللازمة التى اتخذها الأمير ازاء هذهِ المستجدات؟

بالنسبة للحالة الأُولىٰ: نجد الوالي ابن بشير يُحجم عن العناية بها، لأنّه كان يتبادل مع يزيد الكراهية والحقد، بسبب شدّة رغبته بنيل الخلافة وولاية العهد. وطالما حاول يزيد تحقيره، فقد أوعز مرة للأخطل ـ الشاعر النصراني ـ لينال منه بأن يهجو الأنصار فَهَجاهم، وبما أنّ النعمان يحسب نفسه منهم، فقد قدّم شكواه الى معاوية، وهذهِ من أطرف حالات تقديم الدعاوىٰ إلىٰ المدعىٰ عليه!! فمن أين لـ«ولي العهد» أن يبغض أنصار رسول الله «صلّى الله عليه وآله»؟ ولم تكن شكواه بدافع الحميّة الدينية، بدليل سكوته المنهزم يوم الحرّة حينما حارب يزيد الأنصار وأبناءهم، فأباح المدينة وأباح أعراض الأنصار لجيش الشام، وما كان النعمان غافلاً أو ميتاً وقتها. وقد أشاد المؤرّخون الىٰ حرصه على الظفر بالخلافة بشتّىٰ السبل، فكان حتفه تحت ظلفه(١).

بالنسبة للحالة الثانية: فهي الأُخرىٰ التي لم يكترث لها، ولم يُروَ له موقف صريح عنها. ولا ريب أنّ عملية المراسلة العامة ليست سرية أو خفية ـ مع افتراض التكتم فيها فقد فشىٰ أمرها، إلا اللهمّ التكتم الذي يكتنف

(١) ظلّت تراوده الرغبة بالخلافة طويلاً، فاتفق ابن الزبير معه للإطاحة بيزيد ـ و كان والياً على حُمص بعد الكوفة ـ فدعا أهل حمص الىٰ بيعة ابن الزبير فقتل هناك ، قتله خالد بن خلي بقرية «بيرين» ـ وهي من قرىٰ حمص، كما في معجم البلدان لياقوت الحموي ـ كان ذلك بعد وقعة «مرج راهط» أواخر عام ٦٤هـ . أُنظر: سير أعلام النبلاء: ٣/٢٧٥.

مراسلات سليمان بن صرد وأصحابه... تُرىٰ هل كان غافلاً عن حركة المكاتبة؟ أو متغافلاً عنها نتيجة جهله بجدوىٰ العملية، أو عدم إحاطته بمدىٰ النشاط، وكمية المشاركين، وكثافة الكتب؟؟ أو أنّه توقّع امتناع الإمام عن الإجابة، أو أنّه شجّع بادرة إنكار يزيد في الحكم... يبدو أن موقف الصمت يعود الىٰ أحد هذهِ الأسباب أو إليها مجتمعة.

أمّا بالنسبة للحالة الثالثة: فقد جاء المبعوث الحسيني واستقرّ به المقام في دار صهر الأمير، إذ كان «المختار بن عبيدة الثقفي» متزوجاً من «عمرة(١) بنت النعمان بن بشير» ولم يتّخذ النعمان أيّ موقف من السعي نحو توسيع البيعة للإمام وخلع يزيد... فطالما هو غير مستقرّ الحال من يزيد، نراه متحيّراً حيال تكليف مرحلة حرجة كهذهِ، حتىٰ عاتبه الموالون للحكم الأموي علىٰ سكوته ازاء ما يجري في البلاد، فاستنكروا مواقفه وطالبوه بتغيير رأيه حول الأحداث ـ كعبد الله الحضرمي ـ ولم يكن محيطاً بتفاصيل الوقائع التي خفيت عليه. فأجاب مَنْ عاتبه بالقول: «ما كنت لأهتك ستراً ستره الله»(٢) لقد اختار الصمت قانعاً، ونبذ التحرّك راضياً ممّا يفيد بما يكيده ليزيد.... إننا نحسب أن المختار بلور موقف عمّه النعمان ـ بحكم إحاطته علماً بميل عمّه عن يزيد ـ فساعد كثيراً في صرفه عن اتخاذ إجراء حازم ازاء الحركة، كأن يكون

---

(١) «عمرة بنت النعمان» كانت تعتز بإيمان زوجها المجاهد «المختار الثقفي» (رحمة الله عليه وعليها) وحينما مارس خصومه بحقه أساليب التسقيط والتشويه أثناء معاركهم ضده ـ فيما بعد، عام ٦٧هـ ـ رفضت أن تنال من سمعته رغم اعتقالهم لها. قال لها مصعب بن الزبير: ما تقولين بالمختار؟ فقالت: رحمة الله عليه، إنّه كان عبداً من عباد الله الصالحين. فرفعها مصعب الى السجن . لأنّها لم تقل فيه ما يقولون هم من افتراء عليه لتسقيطه وتشويهه، لكنّه كتب فيها الىٰ عبدالله بن الزبير: إنّها تزعم أنّه نبيّ!! فكتب إليه أن أخرجها فاقتلها، فأخرجها بين الحيرة والكوفة بعد العتمة... وقتلها بضربات السيف علىٰ يد مولىٰ من الموالي. أُنظر تاريخ الطبري: ٥٧٤/٤.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٢٠٦/٣.

قد منّاه ـ وهو يعرف هواه ـ ليصرف شره عن نشاطهم المشروع. (أنظر ص ٧٠ من هذا الكتاب). ولا نرىٰ ما ذهب اليه البعض من تفسير سبب السكوت، كالقول: «... كان منهجه منهج مداراة، حتىٰ تقوىٰ الجبهة الأموية بإرسال من يتولّىٰ إدارة كفة شؤونها»(١). إنّما هذهِ نتيجة الموقف و ليس سببه.

هذا و قد روي أنه قال مرة: «لابن بنت رسول الله أحبُّ ألينا من ابن بجدل»(٢) لكن هذا التصريح لا يفيد بأنّه بايع الإمام علىٰ يد مبعوثه، وخلع بيعة «ابن بجدل» يزيد... أمّا الامويون فما زالوا يطالبونه باتّخاذ موقفٍ فاصل في سياق الولاء الدائم للجبت والطاغوت.

إجراء و نتائج:

إن للتجمع الأموي في الكوفة أثر ملحوظ هناك، سيّما أنّهم الأقوىٰ بحكم إمساكهم بزمام السلطة... وبضغطهم إضطرّ الوالي أن يفعل مارآه مناسباً، فمن غير المناسب لحاكم المصر أن يلوذ بالصمت مهما كان متسامحاً... تأهّب الأمير ليثبت وجوده في السلطة بعد «غياب»، وليتسربل بلباس القوة والمسؤولية بعد سكوت، واتجه نحو الجامع الأعظم «مسجد الكوفة» الكبير، فصعد المنبر وحمد الله وأثنىٰ عليه ـ كعادة الأُمراء ـ وقال:

«أما بعد: فاتقوا الله عباد الله، ولا تسارعوا الىٰ الفتنة والفرقة، فإنّ فيهما يَهلِك الرجال وتُسفك الدماء وتُغصب الأموال... إنّني لم أُقاتل من لم يُقاتلني، ولا أثب علىٰ من لا يثب عليَّ، ولا أُشاتمكم، ولا أتحرّش بكم، ولا آخذ بالقرف ولا الظِنّة ولا التهمة (وهو النهج السياسي الذي أخَذَ به من

(١) الشيخ أسد حيدر في كتابه (مع الحسين في نهضته): ص٨٨.

(٢) الإمامة و السياسة: ٤/١، والعِقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي: ١١٩/٥.

سبقه من الولاة) ولكنكم إن أبديتم صفحتكم لي، ونكثتم بيعتكم، وخالفتم إمامكم (يقصد يزيد ولم يذكر اسمه) فوالله الذي لا إله غيره لأضربنّكم بسيفي ماثبت قائمه في يدي ولو لم يكن لي منكم ناصر، أما أنّي أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممّن يرديه الباطل»(١).

نختصر فيما يلي نتائج الخطاب و تأثيراته:

١ ـ لم يؤثر على المبعوث و خاصته من صفوة المؤمنين علماً أن الخطيب أحجم تماماً عن الإشارة الى شخص المبعوث الحسيني ومجيئه ونشاطه، كما أحجم عن ذكر أبرز زعماء التحرّك معه... فهذا الإجراء لم يغيّر النحو الذي اتبعوه في سيرهم، إنّهم من أعرف الناس بشخص هذا الوالي الرسمي، ومدى الصلة بين قوله وفعله، وصراحة تهديداته وصدقه بشجاعته... وهو وإن لم يحدّد الجهة المعنية بخطابه متجنّباً إعلان المقصود بدقة وصراحة إلا أنّ هذا الإجراء يُعَدُّ حدثاً قد يترتب عليه من الآثار ما يجب التنبّه إليها، وقد أخذوه بنظر الاعتبار.

٢ ـ أما تأثير الخطاب على الجمهور، فليس تأثيراً خطيراً، إذ سبق لهذا الجمهور أن تجاوز اعتبار الأمير والسلطة المحلّية، فأرجف بيزيد، وراسلوا سبط الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم»، واستقبلوا نائبه الرشيد... والملفت للنظر أنّ الخطيب يطالب بالطاعة له وليزيد مهدداً الخارجين على إمامته، بينما يواصل الناس ـ ليل نهار ـ تقديم البيعة للإمام الحق «أبو عبدالله الحسين عليه السّلام» بمعنى خلع بيعة غيره «يزيد بن معاوية» طبعاً... ولكن ليس غريباً أن يتفاوت المجتمع في شعوره أمام منطق الأمير، فمنهم من يرى أنه لطيف غير عنيف ومنذر غير متجبّر، ومنهم من استهان به واستخفّ بأقواله،

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٦٤/٤، والفتوح لابن أعثم: ٥٨،٥٧/٥.

ومنهم من سخر منه وسفّهه، وتحرّز منه آخرون... وظنّ الناس أنّ هذا هو كل ما سيوا جهونه من إدارة الأمير ابن بشير، فأصبحوا في فتور واسترخاء، ولعلّ معنوياتهم قد تأثّرت ـ بشكل غير مباشر ـ من خلال التقليل من خطر التوقعات وحساب أسوء الإحتمالات للمواجهة.

٣ ـ إستنكر الحزب الأموي، اللهجة الباردة للخطاب الخالي من الحزم المسلّح، فقام حليف بني أُمية «عبدالله بن مسلم الحضرمي» بعد انتهاء الخطبة وقبل نزول الوالي من علىٰ المنبر، فقال له: «إنّه لا يصلح ما ترىٰ إلا الغشم، إنّ هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوّك رأي المستضعفين»(١). فردّ الوالي بالقول: أن أكون من المستضعفين في طاعة الله أحبّ اليّ من أن أكون من الأعزّين في معصية الله»(٢) لكن هذا الحوار ليس كل ما أعقب الخطاب.

واضح تماماً أنّه مهما دافع عن قناعته السياسية حولّ معالجته للواقع الشاخص، فإنّه سيخفق في إقناع أيّ متحمّس ليزيد يتحرك بحرارة أُموية، مغتنماً فرصة تقرّبه للملك الجديد، مُجَدّداً ولاءه للعرش الأُموي، كالحضرمي المذكور وعمارة بن أبي معيط وعمر بن سعد وغيرهم، ممّن يئسوا من تغيير وجهة نظر النعمان للأُمور، ولم تجدِ كافة أساليب الإستنكار ضدّه، فبادر عبدالله بن مسلم بن سعيد الحضرمي لأداء دورهِ الطبيعي المخلص ليزيد بالكتابة له بمنصّه:

«أما بعد: فإن مسلم بن عقيل، قد قَدِمَ الكوفة، فبايعته الشيعة للحسين بن عليّ. فإن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قوياً يُنفّذ أمرك ،

---

(١) الطبري: ٢٦٥/٤،والفتوح لابن أعثم: ٥٩/٥.

(٢) الطبري: ٢٦٥/٤.

ويعمل مثل عَمَلِكَ في عدوّك ، فإنّ النعمان بن بشير رجل ضعيف، أو هو يتضعف»(١).

و وصلت الىٰ يزيد رسالة ثانية من قبل شخص آخر أُموي الهوىٰ، يُدعىٰ «عمارة بن عقبة بن أبي معيط»(٢) وعمارة هذا هو ممّن غضب عليه الرسول «صلّى الله عليه وآله» وعلىٰ أبيه وإخوته، حينما جيء بأبيه مشركاً محارباً رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم» فأمر بقتله «فقال: يامحمّد فمن للصِبْية؟ قال: النار»(٣). وفي حوار عمرو بن الحجاج الزبيدي قال له متهكماً: «فأنت من الصِبْية وأنت في النار، فضحك ابن زياد»(٤)... حتىٰ عبدالله بن مسلم الحضرمي كان من تربية قوم طالما حاربوا الرسول والقرآن تنزيلاً وتأويلاً.

تابعهما في رسالة ثالثة ليزيد «عمر بن سعد بن أبي وقّاص» المتأثر بأبيه في مناوءة الإمام عليّ وأهل بيت النبيّ «صلّى الله عليه وآله»، والذي قاد(٥) كتائب مقاتلة ريحانة رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم»... ولم تسجل المصادر نصّ رسالته ولا رسالة ابن أبي معيط سوىٰ الإشارة الى كونهما كتبا

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٦٥/٤، والفتوح لابن أعثم: ٥٩/٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٢٦٥/٤.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ١٣١/٢.

(٤) تاريخ الطبري: ٢٥٩/٤. وهو أخو الوليد بن عقبة الذي نزلت في فسقه آية قرآنية، والذين نصّبه عثمان والياً على الكوفة فارس فيها فسقه حتىٰ كان يصلي بالناس سكراناً واليه نوهت هذه الآية الكريمة: «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون» انظر أنساب الأشراف: ٣٥/٥ط مصر.

(٥) روىٰ سبط ابن الجوزي عن محمد بن سيرين قول الإمام أمير المؤمنين له وكان شاباً: «ويحك يا ابن سعد! كيف بك إذا قمت يوماً مقاماً تُخيَّر فيه بين الجنة والنار فتختار النار؟! (تذكرة الخواص: ص٢٢٣) يقصد يوم قبوله قرار قتال الحسين السبط وكان أباه شديد الكره والتشاؤم منه لما سمعه من سوء عاقبته حتىٰ كان يتعوذ منه: «أعوذ بالله من شرّ هذا الراكب». انظر تذكره الخواص لابن الجوزي: ص٢٨ و٢٩. طبعة بيروت.

بنحو ما كتب الأول ومثله، فضمونها لا يعدو الإخطار عمّا يجري من المخاطر، واستنكار سياسة ابن بشير والمطالبة بعزله والإتيان بأمير جديد، يعيد الكرة لسياسة الإرهاب والتصفيات كما كان يجري من قبل، طبق منهج القبض على الظنّة والقتل على التهمة: «... ويعمل مثل عملك في عدوّك».

كان اولئك بعض المناوئين للحسين السبط «عليه السّلام»، والموالين للجبت والطاغوت، إذ انطلقوا من صميم ما يدينون به، وانطلقوا بقوة دنياهم فيما يعبدون ويتعبّدون «وَ انْطَلَقَ الملأُ مِنْهُمْ أنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلىٰ آلِهَتِكُمْ إنّ هذا لَشَيءٌ يُرادُ»(١).

(١) سورة ص: ٦.

الفصل الثالث

النشاط الثوري للمبعوث

القوة المادية و توفير المال يشكّل أحد أهم أركان التحرّك ، وحجر الزاوية في كل ثورة يُراد لها النجاح.

تجنّب الإصطدام بالسلطة:

من المسائل السياسية الهامة، هي كيفية تعامل الحركة حيال السلطة المحلّية القائمة الموكّلة من قبل السلطة المركزية، ذلك إنّ من الخطورة بمكان وقوع مواجهة مسلّحة لضرب السلطة المحلّية قبل الإستعداد لتحمّل تبعات ذلك الإجراء، وقبل معرفة القوىٰ المؤيّدة للأمويين والقوىٰ التي ستزودهم بها الحكومة المركزية التي ستثأر لنفوذها إذا ماتعرّض للخطر... ثم إنّ عملاً كهذا في بداية المسير يُعَدُّ عملاً محبطاً في العاجل أو الآجل. لأن المواجهة لم تستهدف الرأس المركزي للسلطة «يزيد».

السرّ الذي يكمن وراء حكمة المبعوث باختياره لشخص المجاهد «المختار الثقفي» -الذي نزل بداره-، كي يقوم -تلقائيّاً بفضل مصاهرته للأمير- بوظيفة تذويب المواجهة المتوقعة، وتذليل الخلافات بين الوالي ورجال الحركة ، وتحجيم الهواجس والتخفيف من المخاوف بينهما، وتقليل احتمالات التصادم

بينهما -ولو الى حين- وتطمين الطرفين بانعدام الغيلة والغوائل الشخصية بينهما... وهذا الدور يعجز عنه حتىٰ ذوي المكانة المرموقة عدا الصهر الذي يمتاز بعلاقات منفتحة خاصة،وإلا كان المبعوث مسلم يستطيع النزول إبتداءً في دار غيره من ذوي الموقع الإجتماعي الأكبر والأوسع كهانئ بن عروة. بيدَ أنّ هانئاً هذا لا يملك أداء التسوية السياسية الإستثنائية في هذهِ البرهة بالذات كما يؤديها المختار.

نرىٰ أيضاً، أنّ المختار يتصرف مع الوالي تلقائياً «بمسؤوليته» ويتكلم معه علىٰ «ذمّته»، لا يشترط بالضيف الجليل أن يكلّفه، أو يملي عليه مقتضيات الضيافة والظروف، كما أنّ علىٰ الوالي إدراك جزء من آداب العرب والإسلام في هذا المقام، وهو يزعم منذ زمان بعدم صلاحية يزيد... فالمختار يمارس -علىٰ عاتقه- وظيفته مدركاً أنّ الصراع فطنة والحرب خدعة -كما لمسنا ذلك منه خلال حياته الثورية النزيهة- من جهة أُخرىٰ فان النعمان يُمَنّي نفسه بنصيب خاص في الأمر بحكم أنّ صهره من القادة المبرزين، وبفضل دوره الصامت الذي يتيح فرصاً للتحرّك الجديد، والمختار يفطن للمرء في دنياه أو دينه ومناه... ولعلّ النعمان كاشَفَ المختار ببعض هواه، فحقّق المختار فرصة كسب الزمن وهي غايته النبيلة الأساسية هنا.

أما بصدد ما ورد في الرسالة الأُولىٰ الموجّهة للإمام الحسين «عليه السّلام»: «... ولوقد بلغنا أنّك قد أقبلت إلينا أخرجناه (أي الوالي) حتىٰ نلحقه بالشام»(١). فإنّها بحاجة الىٰ وقفة فاحصة.

نقول: و إن كان إخراجه مشروطاً بمجيء الإمام والإمام لم يأتِ بعد، فالخطوة تطرح نفسها أيضاً،ولكن التأنّي السياسي يفيد بعدم جدوىٰ العملية،

---

(١) انظر ص ٧١ من هذا الكتاب.

بل بضررها الشديد على شؤون ولادة الحركة وشروعها المتطلب الى كثير من الإحتياط العملي... ثم بمن تناط خطوة طرد الوالي الحالي، وإلى من يرجع البتّ فيها؟

إنّنا نرى «مسلم بن عقيل» كقائد نافذ الكلمة كبير على مستوى كل الحركة يبتّ في أهم الأمور، هو الذي ألغى الخطوة، أو نفى أهميتها من خلال حرصه على الحركة أن لا تصطدم مع هذا الوالي، وكي لا تستفز ـ للوهلة الأولى ـ عاهل الشام عند أول خطى التحرّك، وذلك حين حدّد القائد الجليل سلفاً محل استراحته ومقرّ مهمّته، بنحوٍ ما أثار فيه حفيظة الوالي، وما أتاح روح التحدّي المعتملة لتكون ضدّ القادم الجديد الذي لا يُعَدّ قدومه هيّناً ووفوده على الكوفة عادياً ولا عابراً. وبنحوٍ تجنّبَ فيه التجنيات وجَبَّ فيه المواجهة، وبنحوٍ أبطل فيه التحرشات والمكائد المتوقع صدورها ممّن هم في مدار السلطة المحلّية، ويسيرون في ركابها، وهؤلاء كانت لهم اليد الطولى في الفساد والفتنة، يمكنهم ـ لو رضي الأمير، أو اذا تعرّض لخطر الطرد فجأة ـ أن يثيروا فتنة داخلية تسبّب عرقلة مسار العمل وهو في بداياته، لم يقطع أشواطه الهامّة... أضف الى كل ذلك أنّ الأمير لم يهدّد الحركة أو يعمل ضدها بما يوجب المبادرة لردّه بطرده.

أما القول بأنّ من الأفضل طرده ليلتحق بالشام، فهذا في حسابات الناس البعيدين عن دراسة الأحداث، والقول بأنّ إبقاءه خطأ سياسي(١) يستدعي التأكد من إمكانية تحمّل التبعات السياسية والعسكرية لحدثٍ كهذا، وما إذا

---

(١) و هو رأي الشيخ المرحوم المظفر بكتابه (سفير الحسين): ص٦٣، فقد حسب ـ بتعليقه على ختام أول رسالة ـ أنّ ترك الكوفيين للوالي خطأ سياسي، غير ملتفت إلى أهمية تجنّب مواجهة السلطة في بادئ الأمر، مع علمه بانّ مسلماً تعمّد اختيار دارالمختار وفي ذلك مافيه من سر. ولم يتوصل إلى أنّ البتّ بهذا الأمر بيده.

كان إخراج أمير هو كإخراج أي شخص عادي لا يسبب صراعاً داخلياً ولا خطراً خارجياً، ومدىٰ استعداد الناس لمواجهة ذلك الصراع والخطر... إنّ أي خبير سياسي واجتماعي وعسكري، إذاتأمّل يتوصل الىٰ عدم ضمان نجاح تنفيذ الفكرة،وفي موضوع لاحق سنلقي الضوء لتتضح النظرة أكثر فأكثر.

تعيين النوّاب لأخذ البيعة:

يظنّ البعض أنّ عملية أخذ البيعة من آلاف الأفراد سهلة يسيرة، فقد توحي روايات مبايعتهم لمسلم بكذا ألف نفر، أنّهم بايعوا دفعة واحدة في ليلة وضحاها وهم حضور بأجمعهم، ممّا يجعل البعض يريد تغيير كل شيء بنجاح مع ضمانات بقاء هذا التغيير... إنّ البيعة واحدة من عدة نشاطات نقرؤها كروايات تاريخية على علّاتها ونفهمها علىٰ خلاف حقيقتها وملابساتها الواقعية في الزمان والكيفية.

لقد انتخب المبعوث الحسيني عدداً من الصفوة الكوفية المؤمنة لأخذ البيعة من الناس، كإجراء لابدّ منه تستدعيه جملة أسباب أمنيّة وغير أمنيّة، إذ أنّ من يأخذ البيعة من الناس الكثيرين يحتاج إلىٰ بذل الجهود والتعرف علىٰ بعضهم والتفرغ لهم وسعة الوقت لهذا العمل الكبير... كما أنّ المرحلة السرّية اللاحقة اقتضت أن لا يُعرف مكان وجود المبعوث ومقرّ اجتماعات المجاهدين فلابدّ لمن يريدون تقديم البيعة أن يبايعوا أحد نوّاب المبعوث الذين حددهم ومنحهم صلاحية شرعية وإذناً خاصاً في ذلك، وهم المجاهدون الأجلّاء التالية أسماؤهم: حبيب بن مظاهر الأسدي، ومسلم بن عوسجة الأسدي، وعبدالله بن عمرو الكندي الكوفي، وعباس بن جعدة الجدلي، وعبدالرحمن بن عبد ربه الأنصاري الخزرجي.

إنّهم من أفذاذ فرسان الكوفة، و من النخبة المخلصة الداعية الىٰ الله

ورسوله وأهل بيته.

إنتخبهم المبعوث مسلم فانتدبهم لأداء مهمة كبيرة خطيرة، لما تتطلبه من أمانة وتحرّج علىٰ الكلمة، وقد زاولوا وظيفتهم هذهِ بإتقان مع وظائف أُخرىٰ يمارسونها الىٰ جانب إخوانهم المخلصين تصبّ بنفس الأهداف، علىٰ امتداد نفس الطريق، في رحاب نفس الساحة.

جمع الأموال:

جرت عمليات جادّة لجمع التبرعات دعماً لنفقات الحركة، وقد راح الناس يجودون بما لديهم... والجدير بالإشارة أنّ أموالاً كثيرة قُدّمت للمبعوث الجليل لكنّه رفض استلامها بوصفها خاصة له، وذلك عقب بيعته وفي الأيام الأُولىٰ، يقول المؤرّخون: «... ثمّ بذلوا الأموال، فلم يقبل مسلم منها شيئاً»(١).

و قد كلّف القائد الأبيّ بعض المخلصين من الصفوة بمهمة استلام التبرعات المالية وغير المالية... إنّ مسلماً هو من اولئك الذين لا يعيشون للدنيا والمتاع الرخيص، آلىٰ علىٰ نفسه أن يكرّس حياته لله ورسوله ومصالح الأُمة، فضرب لهم أروع أمثلة الإباء والشمم، موضّحاً أيضاً غاية مجيئه والهدف الأهم من وجوده والسرّ المقدّس لحضورهِ، فليس هو قادماً للسيطرة على مقدرات الناس وابتزازهم، وليس كباقي الساسة الذين يسيل لعابهم للماديّات.

لقد كان له أن يستلم ما بذله الناس من أموال، لينفقها في موارد الحركة، لكنّ المبعوث المتعفّف رفض مجرد استلامها له وباسمه، درساً في الثورة والعفة... وربّما ابتدأت عمليات السعي لجمع التبرعات من هذا الموقف، وقد

---

(١) مقتل الحسين «عليه السّلام» للخوارزمي: ١٩٧/١، والفتوح لابن أعثم: ٥٧/٥.

وظف المبعوث بعض رجاله كالمجاهد «أبو ثمامة الصائدي»(١) لقبض الأموال، وهو أبرز الرجال في هذا المجال، قد تخصص به فهو «أمين الصندوق» في الحركة كما ورد أنّ هانئ بن عروة كان يجمع المال(٢) أيضاً... فالقوة الماديّة وتوفير المال يشكّل أهم أركان التحرّك وحجر الزاوية في كل ثورة يُراد لها النجاح، وقد شُيِّد الكيان الإسلامي في أحد دعائمهِ على هذهِ القوة إذا تذكرنا أموال خديجة الخالدة «سلام الله عليها».

و كان المبعوث ينفق من عندهِ أيضاً، حتى بلغ به السخاء من مالهِ الخاص حدّ الإفلاس ثم الإقتراض للحركة على حسابه الخاص، فقد ظهر أنّه يؤثر تحمل الأعباء الماليّة بنفسه، وهو دليل السموّ القيادي -رغم مافي الإقتراض من مضض وغضاضة- وقد تفاوتت روايات مجموع المبلغ المقترض من قبله وباسمه، فقال الطبري: ستمائة درهم. وقال ابن الأثير: سبعمائة درهم. وقال الدينوري: ألف درهم.

على أن خبر اقتراضه لا ينبغي أن يوحي إلى كونه دخل الكوفة وهو «صفر اليدين من المال» كما فهم العقّاد، فالنفقات الباهضة في شتى المجالات، وكثرة تنوّع الحاجات أدّى الى النفاد ثمّ الإقتراض، سيّما والكاتب نفسه لا يجهل الأهمية القصوى لتوفّر الأموال في هكذا ظروف صعبة، لذلك كتب قائلاً:

«و تلك عقبة من العقبات التي تعوق الدعوات الكبار، ولكنّها على هذا لم تكن بالعقبة العصيّة التذليل... ويضيف قوله عن المبعوث الحسيني: «فلو أنّه قد طلب المال من وسائلهِ الدنيوية أو السياسية، لما استعصى عليه أن يأخذ منه ما يكفيه. فلعلّه كان ميسوراً له بعد أن تَجمَّعَ حوله الأنصار وبايع الحسين

(١) تاريخ الطبري: ٢٧١/٤، و الإرشاد: ص ٢٠٨، وتاريخ ابن كثير: ١٥٣/٨.

(٢) الأخبار الطوال للدينوري: ص٢٣٥.

علىٰ يديه ثلاثون ألفاً كما جاء في بعض الروايات، ففي تلك اللحظة لعلّه كان يستطيع أن يحيط بقصر الوالي الأموي، ويستولي عليه وينشيء الحكومة الحسينية فيه. ثمّ لعلّه كان يستطيع بعد ذلك أن يوجّه الدعاة الىٰ أطراف الدولة الشرقية ليتلقى البيعة ويُقيم الولاة ويحشّد الأجناد»(١).

شراء الأسلحة:

تتصدر قائمة الإنفاق و موارد صرف الأموال، مسألة توفير السلاح وتجهيز معدّات الحرب المستخدمة يومذاك، ممّا تمتلئ بها أسواق الكوفة، إذ تنتجها المصانع المتخصّصة هناك بأنواعها المختلفة، نظراً للطابع العسكري المعروف للإقليم الذي خُطّط وأُنشيء على هذا الأساس بتلك المنطقة الخطيرة ذات الموقع الحسّاس... كانت مصانع الكوفة تتبارىٰ في إبداع أنواع القطع من الأسلحة، كالسيوف والرماح، والنبال والأقواس، والدروع والخوذ (جمع خوذة) وغيرها، وهذا كلّه ينال الأولوية في بذل الأموال وصرف المبالغ، فضلاً عن شراء البيوت والخيول وهلمّ جرّا.

و يمكن الإستدلال بتخصيص أكثر المصروفات المالية لاقتناء العتاد، بملاحظة نشاط الموكّلين بجمع الأموال فهم أنفسهم كانوا يباشرون الشراء وجمع الأسلحة... وقد أناط المبعوث هذهِ المهمة بيدهم كالمجاهد «أبو ثمامة الصائدي» صاحب الحذاقة والخبرة الواسعة، يقول المؤرّخون عنه: أنّه كان «يشتري لهم السلاح، وكان به بصيراً، وكان من فرسان العرب ووجوه الشيعة»(٢) وساهم المجاهد هانئ بن عروة أيضاً في تهيئة وتدبير أُمور شراء

---

(١) كتاب (أبو الشهداء) للعقّاد: ص ١٢٣. ١٩٦٩م بيروت.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٢٧١ وغيره.

العتاد(١)... إنها مهمة كبيرة شاقة، نظراً لما تتطلبه من تحفّظات أمنية، عند حيازة السلاح الكثير وابتياعه بشكل وفير، وتوزيعه علىٰ المستحقّين أو جمعه بمخازن خاصة تجهيزاً للمبايعين الجدد، أو إيداع قطع السلاح بتوزيعها مثلاً ببعض البيوت، تلافياً لتراكم كمّيات منها وصرفاً للعيون الأُموية عنها، وغير ذلك من مقتضيات المهمة ذات الهيئة المخلصة المعدة لها ـ كما نحسب ـ لأنّ قادة التحرّك يضعون نصب أعينهم احتمالات وقوع معارك متكافئة الطرفين عدداً وعدّة، وهو سرّ اتساع نطاق حيازة الذخيرة.

تمتد أنشطة المبعوث مسلم لتشمل كافة جوانب المجتمع، ليجيب علىٰ أسئلتهم ويفتيهم في مسائلهم، كفقيه قدير يمثّل الإمام المعصوم سبط رسول الله «صلّى الله عليه وآله»، عالماً بالشريعة مضطلعاً بالتنزيل متضلّعاً بالتأويل، وهو كمبعوث ديني ودنيوي يصبح مصدر الإفتاء للناس، وعليه المعوّل فى شؤون الشرع الشريف... بيدَ أنّ من المؤسف علىٰ المؤرّخين الذي تجاوزوا تدوين الحد الأدنىٰ من ذلك.

---

(١) الأخبار الطوال: ٢٣٥.

الباب الرابع

معالم المواجهة

في هذا الباب نتعرض الىٰ مؤشرات حدة المواجهة بين الجانبين، الدولة والمعارضة، الدولة الأموية بسلطتها المركزية والمحلّية الجديدة، والمعارضة الشعبية الكوفية. إنهما طرفا صراع لا ينسجمان ولا تكافؤ بينهما، فالتناقض سمة مميزة لهما في نظرتهما ازاء الدين والدنيا والحياة والحرية والقوة والحق. مع كل ذلك فالدولة تمارس التظاهر بالدين وشكليات الدين والألفاظ الدينية لدىٰ إلقاء الخطب والبيانات الحكومية، حتىٰ لو كانت مضامينها منافية للاصول الاساسية للشريعة وتخطط كيدها طبق سياسة لا تتصل بالدين من قريب ولا من بعيد.

يضمّ هذا الباب الفصول التالية:

- موقف السلطة المركزية.
- الاجراءات الوقائية لمواصلة النشاط.
- التجسّس و استدعاء الزعيم هانىء.

الفصل الأوّل

موقف السلطة المركزية

«... يا أهل البصرة، إن أمير المؤمنين (يزيد) ولّاني الكوفة، وأنا غادٍ اليها الغداة، وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان ... لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه، ولآخذن الأدنىٰ بالأقصىٰ... أنا ابن زياد اشبهته مِن بين مَن وطأ الحصىٰ...»

ابن زياد

ما لبث يزيد كثيراً، حتىٰ بلغته أخبارٌ مفادها: أنّ أوامرهُ الصادرة لوالي المدينة بحتميّة أخذ البيعة من الامام الحسين «عليه السّلام» لم تتحقّق، ورأيه بقتله ـ إن أبىٰ ـ لم يُنفّذ، واقتراح مروان بن الحكم علىٰ والي المدينة بأن يقتله فوراً لم يُصوّب. والإمام غادر المدينة الىٰ مكة ليُقيم في حرم الله الآمن... ما لبث أيضاً حتىٰ جاءته أخبار الكوفة التي توشك أن تفلت من قبضته كما أكّد له ذلك الأمويون الكوفيون برسائلهم ومُراسليهم. فارتبك مضطرباً من مضاعفات أخطار هذه الأخبار المخيفة.

تُعدّ أكثر العقبات استعصاءً في هذهِ الحقبة الأموية الحرجة هي بيعة «رجل واحد» من الأمة جمعاء، ذلك لأنّه ليس رجلاً كالرجال يَغُرّه الجاه

ويُخضِعُه المال، لوكان كذلك لأعطاه يزيد واستتبّ له الحال. إنّ هذا الرجل لوحده يُعَدّ أُمّة بذاته، وما خوف يزيد ناجماً فقط عن مجرد تحذير أبيه معاوية إيّاه من الوجود المقدّس للإمام، وإنّما كان ناجماً أيضاً من حقيقة خطورة الأمة في شخص هذا الإمام، حتىٰ لم يعد يزيد يثق ببيعة سائر أفراد الشعوب المسلمة لأنّها لا تُعدل ببيعة ذاك الذي هو سيد الشعوب وإمام الأُمّة فكان القرار النهائي ليزيد هو التخلّص من خطره بقتله ولو بمكة بل «حتىٰ لو كان متعلّقاً بأستار الكعبة!» وهو قرار يشيع البهجة في نفوسهم، كمروان بن الحكم وأمثاله.

و حار في أمر تحرّك الكوفة مجدّداً رغم تذليل أبيه لها، وتشريد أغلب شيعتها إلىٰ خراسان، فاستدعىٰ مستشاره النصراني سرجون(١) «الداهية» بتعبير الراوي، الذي استمدّ معاوية منه مظاهر المكر والدهاء، وقد أولعت بعض الأقلام مفتخرة بدهاء معاوية! وأيّ دهاء هذا الذي يتجاوز إرادة ديانة السماء؟! راح يزيد يتساءل مع مستشاره: «مارأيك إن حسيناً قد توجّه نحو الكوفة، ومسلم بن عقيل بالكوفة يبايع للحسين، وقد بلغني عن النعمان ضعفٌ وقولٌ سَيّىء... ثمّ أقرأه كتبهم، وقال: فما ترىٰ مَنْ أستعمل علىٰ الكوفة؟»(٢).

---

(١) «سرجون النصراني» من رجال معاوية «كان علىٰ المال في الشام!» أي وزيراً للمال الإسلامي! أو مديراً لبيت المال! وإذا لم يكن لله ولرسوله كلمة يسمعها معاوية بوجوب اجتناب استخدام النصارىٰ بوظائف الدولة إلا بعد إسلامهم، فقد كان لعمر بن الخطاب ـ الذي أقرّه علىٰ الشام ـ كلمة يمنع بها توظيف النصارىٰ مالم يسلموا. بينما كان البلاط الاموي حافلاً بالنصارىٰ المستشارين، والكتّاب، والأطبّاء الذين يعملون له السمّ القاتل لاغتيال عظماء العقيدة فقد جلب النصارىٰ الدمار للإسلام والمسلمين في ظلّ الأمويين، يؤكّد ذلك الإطلاع الموضوعي عن التحالف الحرام والعلاقة الوثيقة بين (النصارىٰ والطلقاء).

(٢) تاريخ الطبري: ٢٦٥/٤.

أطرق «سرجون» ليفكّر، يبدو أنه يريد ذكر اسمٍ سبق ليزيد أن أظهر كرهاً له «كان يبغض عبيدالله بن زياد، وكان يريد أن يعزله عن البصرة»(١) فاختار سرجون أُسلوباً لإقناعه، ومدخلاً لإرضائه عنه، بقوله: «أرأيت معاوية لونُشرَ لك، أكنت آخذاً برأيه؟ قال: نعم. فأخرج عهد عبيدالله علىٰ الكوفة. فقال: هذا رأي معاوية، ومات، وقد أمر بهذا الكتاب»(٢) فاقتنع به، بل رضي بضمّ الكوفة إلىٰ البصرة تحت ولايته. واستدعىٰ حامل كتاب «عبدالله الحضرمي» وهو المدعو «مسلم بن عمرو الباهلي» وأمره بالسير له الى البصرة بالرسالة التالية:

«أما بعد: فإنّه كتب اليَّ شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني: أنّ ابن عقيل بالكوفة، يجمع الجموع لِشَقِّ عصا المسلمين. فَسِر حين تقرأ كتابي هذا حتىٰ تأتي أهل الكوفة، فتطلب ابن عقيل طلب الخرزة حتىٰ تَثْقَفَهُ فتوثقه، أو تقتله، أو تنفيه، والسلام»(٣).

من هو ابن زياد:

نحيل الموضوع الىٰ بعض من عرفوه ثمَّ عَرَّفوه بدون تردّد، فقال «الحسن البصري» عنه: «بأنّه غلاماً سفيهاً، سفك الدماء سفكاً شديداً»(٤) ووصفه ابن كثير، بأنّه «كان متكبّراً لا يسمع من أحدٍ نصيحة»(٥). وذكر الجاحظ أن عبيدالله التميمي عَرَّض بأُمّهِ أمامه وهو والياً، فقال التميمي: «يَرحم الله عمر بن

---

(١) البداية و النهاية لابن كثير: ١٥٢/٨.

(٢) البداية و النهاية: ٢٦٨/٣، و تاريخ الطبري: ٢٦٥/٤.

(٣) الطبري: ٢٦٥/٤، والفتوح لابن أعثم: ٦١/٥ ، ٦٢.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي: ٣٥٧/٣.

(٥) البداية و النهاية: ٢٨٥/٨.

الخطاب، كان يقول: اللهمّ إنّي أعوذ بك من الزانيات وأبناء الزانيات!»(١) فجزع ابن زياد و حاول التمويه لصرف الاذهان عنه... وكان يستخف بأصحاب الرسول «صلّى الله عليه وآله» علىٰ الطريقة الأموية طبق سُنّة معاوية، دخل عليه الصحابي «عائذ بن عمرو» لينصحه ويحذّره من الحُطمة ـ أي الظلم والقسوة ـ، فقال عائذ: «أي بُني إنّي سَمعتُ رسولَ الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم» يقول: إنّ شرّالرعاء الحطمة، فإيّاك أن تكون منهم» فعبس بوجهه صائحاً به: «إجلس، إنّما أنتَ من نُخالة أصحاب الرسول». فأنكر عليه عائذ: بقوله: «وهل كان فيهم نُخالة؟ إنّما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم»(٢) وفي رواية، قال له ابن زياد: «ما أنت وذاك ؟ إنّما أنت من خثالة أصحاب محمد». فردّ عليه: «وهل كانت فيهم حثالة لا أُمّ لك»(٣).

و كما عانىٰ أبوه زياد من وصمة نسبه وغموض اسم أبيه، وسوء سمعة أُمه، حتىٰ استلحقه معاوية بأبيه «أبوسفيان» فلم تكن ستراً للعيوب بقدر ماكانت كشفاً للفضائح، كذلك عانىٰ ابن زياد من منقصة الأصل ومسبّة النسب السيّىء، لأنّه من أبناء الزانيات كما نقل الجاحظ كلمة عبيدالله التميمي عنها وعنه، فهوابن امرأة طالما كانوا يعيّرونه بها، تدعىٰ مرجانه وهي جارية مجوسية ماجنة، ربّته مع زوجها الثاني «شيرويه الأسواري»(٤) ـ ليس مسلماً ـ ثم ترعرع عند زياد الذي شاع شرّه وانتشر ميله للقتل والفساد وسلب الحقوق والحرمات، وأراد معاوية جعله والياً علىٰ المدينة المنوّرة، فضجّ أهلها

---

(١) البيان و التبيين: ٢/٢٤٢، ١٩٤٨م مصر.

(٢) البداية و النهاية: ٨/٢٨٥.

(٣) سير أعلام النبلاء: ٣/٣٥٧. وقال الذهبي: انّه عبدالله بن المغفل، ثم أشار الى ورود الخبر في صحيح مسلم باسم عائذ بن عمرو، واعتقد الذهبي بوقوع الحادث مرتين: «فلعلها واقعتان» بتعبيره.

(٤) البيان و التبيين للجاحظ: ١/٧٣.

قرفاً وقلقاً: «ولاذوا بقبر النبيّ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» ثلاث أيام، لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعسف»(١) فنشأ كزياد سفيهاً سفّاكاً للدماء «ولم يكن أهون لديه من قطع الأيدي والأرجل والأمر بالقتل في ساعة الغضب، لشبهة وغير شبهة»(٢).

عانىٰ ابن زياد من لكْنةٍ بلسانه، فلا يستقيم له نطق العربية علىٰ مايرام، فيسخر منه سامعوه، وحينما أراد مرة استنفار الجند بإصدار أمره لهم: إشهروا سيوفكم، اذا به يقول لهم: إفتحوا سيوفكم، فسخر يزيد بن مفرغ وهجاه بالقول:

ويوم فَتَحْتَ سيفك مِنْ بعيدٍ أضعتَ وكل أمركَ للضَّياعِ

تجاوز دور سرقة بيت مال المسلمين، الى تدشين مشروع تزييف العملة، فهو أول من غشّ الدراهم ثمّ فَشَت ببقية الأمصار... يصفه العقّاد بأنه مسخ من المسوخ: «والذين لم يمسخوا في جبلّتهم وتكوينهم هذا المسخ، من أعوان يزيد بن معاوية، كان الطمع في المناصب والأموال واللذات قد بلغ ما يبلغه المسخ من تحويل الطبائع، وطمس البصائر ومغالطة النفوس في الحقائق»(٣) وليس عجيباً لهذا المخلوق أن لا يرتقي الى مستوىٰ الموعظة من عاقبة شرور أبيه الذي هلك بما كسبت يداه من سوء، فمات بتأثير بثرة خبيثة خرجت بكفه، حكّها «ثم سرت، واسودت فصارت أكلة سوداء، فهلك بذلك»(٤). والحقّ أن هؤلاء جميعاً كانوا عبارة عن بثور سوداء في جسم الأمة المسلمة.

فهو فخور بأبيه في أعماله و سيرته المعروفة بالفتك والبطش، وابن زياد إذ

---

(١) مروج الذهب للمسعودي: ٣/٣٥.

(٢) أبو الشهداء للعقاد: ص ٧٨.

(٣) نفس المصدر : ص ٧٩.

(٤) مروج الذهب للمسعودي: ٣/٣٥.

يُعرِّفْ نفسه للناس يفخر بأنّه: ابن زياد يشبهه من بين من وَطأ الحصىٰ! ويصف نفسه أنّه يُنَكِّل بعدوه وأنّه سُمٌّ لمن يحاربه (انظرَ خطبته التالية).

هذا المسخ هو الذي اختارته السلطة المركزية لقمع حركة المظلومين، وقتال ذرّية رسول الله خاتم النبيين «صلّى الله عليه وآله» وهو كفءٌ لما أرادت من شر و كيد و مكر، لأنه مجمع الرذائل الموروثة والمكتسبة ـ كما عرَّفه واختاره معاوية ـ ولأنّه ملىء بطاقات الحقد على أطهر الناس طرّاً، ممن فاقوا العباد نزاهةً وزكاةً، فكان على سليل الرجس أن يستجيب لشانه الشيطاني، أوَليس الذي خبث لا يخرج إلا نَكِدا... أم «هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشياطينُ. تَنَزَّلُ على كُلِّ أفّاكٍ آثيم»(١) فقد حثه يزيد وحرّضه ليُعجِّل الأمر بقوله له: «إن كان لك جناحان، فَطِربها الى الكوفة!»(٢) فسبحان الله حين يقول: «أَلَمْ تَرَأَنّا أرْسَلْنا الشَياطينَ عَلىٰ الكافرينَ تَؤُزُّهُم أزّاً»(٣).

إبن زياد يلبّي يزيد:

وقف في البصرة يخطب الناس قائلاً بعد حمد الله والثناء عليه كعرف رسمي.

«أمّا بعد: فوالله إنّي ما تُقْرَن بي الصَعْبة، ولا يقعقع لي بالشِّنان، وإنّي لَنَكِلٌ لمن عاداني، وسُمٌّ لمن حاربني، أنصف القارة من راماها... يا أهل البصرة، إنّ أمير المؤمنين ولّاني الكوفة، وأنا غادٍ اليها الغداة، وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبي سفيان(٤)، وإيّاكم والخلاف والإرجاف، فوالله الذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنّه وعريفه ووليه

---

(١) سورة الشعراء: ٢٢١و٢٢٢.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ٣/٢٠١.

(٣) سورة مريم: ٨٣.

(٤) زياد بن أبيه أبوهما الذي أصبح ابناً باراً «لأبي سفيان!» بالاستلحاق و «الإستعارة»!

(يُلاحظ النهج الإرهابي القمعي) ولآخذنّ الأدنىٰ بالأقصىٰ حتىٰ تسمعوا لي، ولا يكون فيكم مُخالف ولا مُشاق. أنا ابن زياد أشبهته مِنْ بين مَنْ وطأ الحصىٰ، ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم»(١).

نراه أوّلاً: أحجم عن الإشارة الىٰ عوامل هذهِ المجريات المفاجئة، والتطورات الداخلية للكوفة، مخافة تطلعات البصريين الى الوثوب علىٰ أخيه بانقلاب أو ثورة.

ثانياً: حرص علىٰ مواجهتهم معنوياً و محاربتهم نفسياً، فحذّرهم من مكره إذ نَعَتَ نفسه بالنكّال والسُم القتّال، وحذّر من الإستخفاف بهِ و بأخيه عثمان ونهىٰ عن خلافهما لأنّهما «حفيدا أبي سفيان!».

ثالثاً: ختم بمفاخره، و ذكر الناس بأبيه رائد الفتك الذي منحه كل تراث الإثم، وأورثه كل بثوره الخبيثة.

لا ننسىٰ أنّه قبل ساعة من خطابه، أعدم أحد المجاهدين الأتقياء الذي حمل الىٰ البصرة خمسة نسخ من رسالة الإمام الحسين الموجّهة إلىٰ «رؤساء الأخماس»(٢) إذ شكّ خامسهم «المنذر بن الجارود» بأنّه دسيساً من ابن زياد لاختباره فسلّمه اليه بغفلة وقلّة بصيرة، فقتله(٣) وحذّر من أيّ تحرك ضدّ الحكم الأموي.

غادر البصرة صبَحاً يغذّ السير سريعاً، يسنده المئات من الجند ـ وقيل

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٦٦،وابن الأثير: ٣/٢٦٨.

(٢) «رؤساء الأخماس» في البصرة هم: مالك بن مسمع البكري، والأحنف بن قيس، وقيس بن الهيثم، ويزيد بن مسعود النهشلي، والمنذر بن الجارود. دعاهم الإمام للتحرّك في رسالته هذهِ، وكان أبرزهم وأسرعهم تلبية الزعيم ابن مسعود النهشلي الشهم، تعرّضنا الىٰ نشاطهِ الحسّاس بكتاب (الدوافع الذاتية لأنصار الحسين «عليه السّلام») أنظر ص٦٥ الى ٧٠ منه، طياً نصّ رسالة الإمام للرؤساء.

(٣) هو المجاهد الجليل «سليمان بن رزين» أول رسول يقتل في الاسلام «رضوان الله عليه».

خمسمائة- صحبهم معه لأغراض متوقعة في الطريق أو في داخل الكوفة، فضلاً عن بعض شخصيات البصرة الذين طلب منهم مرافقته في سفره، واضعاً في الحسبان إبعادهم عن الساحة في غيابه، مثل شريك الأعور الحارثي(١)، والحارث بن نوفل. وطالب ابن زياد من قافلته أن تحثّ الخطىٰ سريعاً، وكان هو أسرعهم قد تقدّم عليهم كثيراً، منادياً الجميع أن يلحقوا به ويبذلوا أقصىٰ قدرة خيولهم وقصارىٰ جهودهم، صارخاً بهم تارةً يائساً منهم تارةً اخرىٰ، حتىٰ تساقطوا هنا وهناك من جراء الإعياء الناجم عن شدّة استمرار الجري... وارتفع معدّل سرعة السير حدّاً بحيث لم يبق مع ابن زياد سوىٰ مولاه مهران، الذي كاد ينهار أيضاً قرب القادسية. فشجّعه ووعده بالمال لو استمر معه «إن أمسكت علىٰ هذا الحال، فتنظر الى القصر (بالكوفة) فلكَ مائة ألف» لكنّه أجاب بالعجز. وانفرد ابن زياد متجهاً نحو هدفه لا يلوي علىٰ شيء، حتىٰ اقترب من الكوفة.

مال عن باب البصرة ليدخل البلاد من باب الحجاز، كأوّل احتراز من المخاطر، كما تنكّر بزيّ الحجازيين أيضاً فلبس عمامة سوداء ثم تلثّم لتضيع هويته تماماً... أمّا دخوله فكان مساءً في وقت وصوله، حين أرخىٰ الليل سدوله. يبدو أنه لم ينتظر من تأخّروا وتساقطوا خلفه.

كان عموم الناس في لهفة الإنتظار للإمام الحسين «عليه السّلام»، يترقّبون مجيئه بعواطف جيّاشة ومشاعر متأجّجة، عيونهم متّجهة صوب باب الحجاز وأسماعهم مرهفة، سيّما الساكنين قرب المدخل، إذ أنّهم يُطلّون علىٰ مسافة طويلة من طريق الحجاز ويُطلّون علىٰ مساحة من المدخل الرئيس للمدينة، ويتطلّعون باشتياق ولا يشكّون أنّهم سيبشّرون مَنْ وراءهم من الناس المساكين... فكان أوّل من شاهد الشبح القادم رجل واحد -وقيل امرأة- هتف صائحاً يرحّب بمجيء الإمام السبط «عليه السّلام»... وهرع السامعون

الىٰ الشوارع، وتكاثروا بتأثير النداء وأحاطوا بالقادم المتنكّر الملثّم، الذي استمرّ على فرسهِ دون كلام وسلام عدا الإشارة الحذرة بيده، فهو يتقاسمه القلق والإطمئنان يتوزّعه التشاؤم والتفاؤل، قد ساءه مايرىٰ من ترقّب شديد لإمام الحق. «فأخذ لا يمرّ علىٰ جماعة من الناس، إلا سلّموا عليه، وقالوا: مرحباً بك يا ابن رسول الله قدمت خيرَ مَقْدم... فرأىٰ من تباشيرهم بالحسين «عليه السّلام» ما ساءه»(١) «وخرج اليه الناس من دورهم، فساءه ما رأىٰ منهم»(٢).

لم يشكّوا فيما توهموا، بل لقد تيقّنوا بفعل السلوك الجمعي العفوي الساذج، ولو كان بعض هؤلاء العوام يعرف شمائل الإمام وهيئته البدنية وأخلاقه في الإستقبال لنفىٰ أن يكون هذا القادم هو الإمام... لقد انتقلت عدوى الأوهام الىٰ أمير القصر فأوصد أبوابه ولم يفتحها رغم شدّة قرع القادم، فأطلّ النعمان متقمّصاً شخصية الأمين، بقوله ـ كأنّه يخاطب الامام ـ: «أنشدك الله إلا تنحّيت عنّي، ما أنا بمسلّمٍ اليك أمانتي، ومالي في قتالك من إرب»(٣). فضاق القادم ذرعاً ودنا ليهمس للنعمان المطلّ من شرفة القصر واستدناه فتدلىٰ، راجياً أن لا يسمع الناس صوته حين قال: «إفتح لا فتحت، فقد طال ليلك». فسمعها رجل خلفه فتفاجأ هاتفاً: «انّه ابن مرجانة، والذي لا إله غيره». فانهدّت قوىٰ ابن مرجانة، وهبت الناس للمفاجأة، وفتح باب القصر ليلج الملثّم، ويسقط مافي أيدي الناس الذين تولّوا ينظر بعضهم الى بعض استياءً وخيبة.

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٦٦/٤.

(٢) تاريخ ابن الأثير: ٢٦٨/٣.

(٣) تاريخ الطبري: ٢٦٧/٤.

المنهاج الأُموي لحرب الأعصاب:

أبرز ابن زياد للنعمان عهد يزيد له ليصرفه عن القصر صامتاً، هذا الذي يرىٰ تسليم القصر لابن رسول الله خيانة، لكنّه إذ يُسلّمه لابن مرجانة، يكون شاهد صدقٍ لحرصهِ على حفظ الأمانة!! وانبرىٰ الوالي الجديد ليسيطر على بيت المال، ويدعو الوجهاء من ذوي الأطماع الذين حضروا وهم يرحّبون ويعلنون ولاءهم، ويقدّمون ما عندهم من المعلومات، ويعيبون على النعمان عجزه، وأمضىٰ ابن مرجانة ليلته مع بنت(١) «عمارة بن عقبة بن أبي معيط» وهي من عائلة عرفت بكل الممارسات الشائنة في المدينة ومكة والكوفة.

أصبح في اليوم الثاني كالمحمومة نفسه التي تزاحم فيها فنّ الفتك والكيد للمؤمنين الصالحين، وتأهّب ليعلنِ عن مجيئه وليحارب أعصاب الناس كي يطيح بمعنوياتهم فلا يتّبعوا حركة صفوة المؤمنين المجاهدين. فخطب الناس تحت حراسة مشددة:

«أما بعد: فإنّ أمير المؤمنين ولّاني مصركم وثغركم وفيئكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم، وبالإحسان الى سامعكم ومطيعكم، وبالشدّة علىٰ مريبكم وعاصيكم. وأنا متّبعٌ فيكم أمره، ومنفّذٌ فيكم عهده. فأنا لمحسنكم كالوالد البر، ولمطيعكم كالأخ الشفيق، وسيفي وسوطي علىٰ من ترك أمري وخالف عهدي، فليُبق امرؤ علىٰ نفسه»(٢).

يتضح أنّه جاء لإنصاف المظلومين! ـ كعادة الأُمراء الجدد بادّعاءاتهم! ـ لكنّ مجيئه في غمرة تحرك المظلومين وتلويحاته بالسيف والسوط، فيه ما يكفي

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٧٢/٤ يقول الطبري: عرّس بأُم نافع بنت عمارة بن عقبة...

(٢) ابن الأثير: ٢٦٩/٣، الطبري: ٢٦٧/٤.

الضعفاء حذراً وخوفاً، سيّما أنّه اجتمع بالأعيان والوجهاء، واستدعى «العرفاء» وباقي موظفي السلطة الذين يشكّلون في الكوفة شبكة واسعة لحفظ الأمن لصالح السلطات، ينفّذون دورما يسمّىٰ اليوم بجهاز التجسّس والمخابرات الداخلية... أعلىٰ مراتبهم العرفاء (مفردها عريف) ثم يليهم المناكب (مفردها منكب) ثم النقباء (مفردها نقيب)، أمّا أهم أدوارهم فهي باختصار:

١ ـ تنظيم العريف لسجلات الناس الذين بعهدته، من الرجال مع النساء والأطفال، قد يكونون عشرة أو عشرين، أو عريفاً واحداً لكل خمسين.

٢ ـ توزيع الاعطيات و الرواتب علىٰ الناس، وجباية الضرائب منهم. وإدارة المنطقة المسؤول عنها.

٣ ـ تسجيل من يموت و حذف عطائه، و إدراج من يولد و تخصيص نصيبه من العطاء.

٤ ـ حثّ الناس علىٰ الخروج للحرب وتعبئة من هم في عرافته من الرجال.

٥ ـ إخبار الوالي عمّن يتقاعس أو يتخلّف عن القتال ليحرم هو وعائلته من العطاء.

٦ ـ لهم دور في توثيق الصلة بين الناس الذين بعرافتهم والسلطة، وتعميم التوصيات والتعاليم الصادرة من الوالي.

٧ ـ هم المسؤولون عن مراقبة الذين بعرافتهم ـ حتىٰ خارجها أحياناً ـ ممّن يسبب الثورة الداخلية، أو يؤيّدها فيسجّلون اسمه ويخبرون عنه، أوهم مسؤولون عن ملاحقته لتسليمه بيد السلطات.

إنّ شبكة العرفاء ذات أهمية خطيرة، إذ تقوم أحياناً بتطويق الأحداث لإحباط التحرك القائم. لذلك فإن تعيينهم يصدر عادة «من قبل الأمير ويظل العريف في وظيفته هذه مادام الأمير راضياً عنه، ولا يهمه إن غضب الناس

عليه»(١). وقد قام زياد بن أبيه بتوسيع شبكة العرفاء فاستحدث لكل عريف منكب يعاونه حينما حاول ابن أبيه التحكّم بالكوفة وتحركاتها. «والعريف يكون مكروهاً من الناس مذموماً بسبب تعسّفه وظلمه وجوره، واستغلاله وظيفته استغلالاً بشعاً»(٢) فهو «يزيد في العطاء أو يُنقِص»(٣) ويقوم أحياناً بدور السارق والقاتل غير المباشر إذ يقدم للسلطة اسم الضحية لينتقم منه.

نظراً لذلك فقد ورد في الشرع الشريف تحذير شديد من طاعة أُمراء السوء، والإئتمار بأوامرهم، والإنسياق وراءهم لأداء الوظائف في ظلّ ضرورات السلطان وبضرر المظلومين، وقد حذر النبيّ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» من مرحلة الانحراف السياسي وذمّ الموظفين كالعرفاء في قوله «صلّى الله عليه وآله وسلّم»: «أفلحت ياقُدَيْمُ إن مُتَّ ولم تكن أميراً ولا كاتباً ولا عريفاً»(٤).

فليس غريباً أن نرىٰ المجاهد الشهيد «أبوذر الغفاري» يتأبّىٰ روحياً من مجرد تكفينه بيد أحد هؤلاء الموظفين في عهد عثمان حين أوصىٰ قائلاً: «أُنشدكم الله أن لا يكفنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً»(٥) وقال الإمام علي «عليه السّلام» لأحد أصحابه في ليلة من الليالي: «يانوف، إن داود عليه السّلام قام في مثل هذهِ الساعة من الليل، فقال: إنّها ساعة لا يدعو فيها عبد إلا استجيب له، إلا أن يكون عشّاراً أو عريفاً أو شرطياً، أو صاحب عَرْطَبة (وهي الطنبور) أو صاحب كوبة (وهي الطبل)»(٦). وللنبي الأكرم «صلّى الله عليه وآله وسلّم» ذمّ كثير لوظائف إسناد الطاغية وإسقاط

---

(١) الحياة الإجتماعية و الإقتصادية في الكوفة. د. محمد حسين الزبيدي ص٥٢ بغداد ١٩٧٠م.

(٢) و (٣) نفس المصدر.

(٤) سنن أبي داود: ج٣ مجلد٢ ص ١٣١.

(٥) مسند أحمد بن حنبل: ١٦٦/٥.

(٦) نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده: ص ٥٨٣ ، ٥٨٤.

اعتبار المظلومين، حتىٰ قال إنّ «العرفاء في النار».

أجل، فانّ الوالي الجديد: «أخذ العرفاء أخذاً شديداً فقال: اكتبوا إليّ الغرباء، ومن فيكم من طِلبة أمير المؤمنين، ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق، فمن كتبهم لنا فبرئ، ومن لم يكتب لنا أحداً فيضمن لنا ما في عرافته، ألّا يخالفنا منهم مخالف ولا يبغي علينا منهم باغ... فمن لم يفعل برئت منه الذمّة وحلال لنا ماله وسفك دمه. وأيّما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إلينا صلب علىٰ باب داره، والغيت تلك العرافة من العطاء وسُيِّر الىٰ موضع بعمان الزارة»(١).

و كان خائفاً ممن سبق أن كانوا أعداء للإمام لكنّهم أظهروا الترحاب بظنّهم بقدومه حتىٰ قال لهم: «أيها النّاس إنّي لأعلم أنّه قد سار معي وأظهر الطاعة لي من هو عدوّ للحسين حين ظنّ أنّ الحسين قد دخل البلد وغلب عليه. والله ما عرفت منكم أحداً»(٢).

و العرفاء جبناء عادة، يمالئون السلطة دوماً، و يعرفون مدىٰ تنفيذ تهديداتها بالصلب علىٰ باب الدار، وإنزال أشدّ العقوبات قساوة... وقد أصبحت إحصائيّتهم عالية فهم يعكسون قلقهم المُقض علىٰ الأفراد الخاضعين لإشرافهم.

جاء في التاريخ، أن الأمير ابن مرجانة، قام في اليوم الأول بالقبض علىٰ بعض الكوفيين وقتلهم في الساعة(٣)، وسواء دشّن عهد عنفه بذلك أو لا فإنّه

---

(١) الطبري: ٤/٢٦٧، و ابن الأثير: ٣/٢٦٩.

(٢) الطبري: ٤/٢٦٨.

(٣) حياة الإمام الحسين «عليه السّلام»: ٢/٣٦٠ قام بهذا علىٰ غرار ما فعل بالبصرة قبل مغادرته لها بقليل، إنّها طريقة حاسمة تقطع الشكّ باليقين علىٰ تجاوزه لحرمة الدماء والأرواح وتعدّيه علىٰ التشريع، فهو خلاصة منطق حزم المجرمين.

توعّد بعدم اعتبار المعايير الشرعية في السياسة والعقاب، وهو أقصىٰ معالم الخطر، حين كرّر عواقب عقابه بخطابه الثاني، إذ قال بعد حمدالله والثناء عليه:

«أمّا بعد: فإنّه لا يصلح هذا الأمر، إلا في شدةٍ من غير عنف، ولين من غير ضعف، وأن آخذ منكم البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، والولي بالولي»(١) فهبّ رجل يُقال له «أسد بن عبدالله المري» ليقول: «أيّها الأمير، إنّ الله تبارك و تعالىٰ يقول: «وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ»(٢) وإنّما المرء بجدِّهِ، والسيف بحدِّهِ، والفرس بشدِّهِ، وعليك أن تقول، وعلينا أن نسمع، فلا تُقدِّم فينا السيّئة قبل الحسنة»(٣).

فبهت ابن زياد أمام عفوية هذا الإنتقاد «وأُفحِمَ فنزل عن المنبر ودخل قصر الإمارة»(٤). بيدَ أن هذا الإنتقاد لا يمنعه مما جُبل عليه من الميل للتشفّي وإشباع غريزة الإنتقام في نفسه كمخلوق ظامىء للدماء يكرعها بإدمان... ثمّ لا يبالي أعَلىٰ حقٍّ أو ظنٍّ أو تهمةٍ أو شبهةٍ سفكت، بلا حساب لقانون أو قِيَم أو تشريع... وراح يُعِدُّ العُدّة باذلاً الأموال لشراء الذمم وتنفيذ خطط الحيل لإرهاب الناس وخداعهم، طبق مايجيكه من مؤامرات ويخطّطه من دسائس مستفيداً من نهج أبيه في الكوفة «وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنا في كُلِّ قَرْيَةٍ أكابِرَ مُجْرِميها لِيَمْكُرُوا فيها، وَ ما يَمْكُرُون إلا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ»(٥).

---

(١) الفتوح لابن أعثم: ٦٧/٥.

(٢) سورة الإنعام: ١٦٤.

(٣)و(٤) الفتوح لابن أعثم: ٦٧/٥.

(٥) سورة الإنعام: ١٢٣.

الفصل الثاني

الإجراءات الوقائية لمواصلة النشاط

إن عدم طرد أو قتل الوالي الأوّل كما أنه جاء اجتهاداً ألحّت عليه الضرورات الأولية ابتداءً، كذلك جاء قرار عدم قتل الوالي الثاني ـ مع التمكن منه بنصب كمينٍ ـ نتيجة لاجتهاد مبني على دعامتين اساسيتين: «أخلاقية» و «سياسية» ناظرة بعينين ثاقبتين للواقع الضعيف عن مواجهة المضاعفات الأكيدة.

نقل مقر المبعوث:

بناءً على ما استبان مجدّداً، و سمع مسبقاً ـ من رجال كعابس وأصحابه مثلاً ـ تعزّز علم «مسلم بن عقيل» بشأن الواقع، وتأكّدت نظرته الفاحصة بنقاط الضعف ونقاط القوة المؤثرة بمسار مجتمع الكوفة، الذي استاء من مجيء هذا الحاكم الجديد، ثم فقد ثقته بمعنويته حينما تلقّى ألوان الوعيد والتهديد، سيّما وقد تسامع الناس بدخول كتائب جنودٍ جاءت بمعيّة ابن زياد، أخذت تدخل البلاد متفرقة فراداً فراداً وفوجاً فوجاً نتيجة التعب والإعياء، ممّا أوحى للناس بأنّهم كثيرون جاؤا لإسناد حكمه مضافاً للحزب الأموي

في الكوفة.

نقاط الضعف والقوة المتجلّية أملت على المبعوث أن يُغيّر بعض ما يجب في ضوء المجريات المستجدّة كزيادة السرّية في أخذ البيعة، والتحرز التام من الإنتهازيين المنافقين ـ كشبث بن ربعي وعمرو بن الحجاج وحجّار بن أبجر وغيرهم ـ بحيث يغيب عليهم تماماً محل إقامة المجاهد الجليل مسلم... وتغيير المقر الأوّل باختيار دار زعيم آخر، يمثّل ركناً قوياً في المجتمع ونصيراً صلباً على الصعيدين السياسي والعسكري، وهذا قرار حسّاس وسليم فرضته ضرورات موضوعية متعددة الإعتبارات.

منها مثلاً: أن المكان الأوّل ـ دار المختار الثقفي ـ أصبحت معروفة مكشوفة للجميع. وأن المرحلة الجديدة ذات نمط آخر من المواجهة. ومنها فقدان المختار لمفعول التأثير على السلطة ـ كما كان ـ إعتماد شخصية مصونة إجتماعياً وسياسياً بما لها من نفوذ قبلي، لا بما لها من نفوذ رسمي على الوالي. ومنها تمكين الثقة من النفوس وجعل الأنشطة طيّ المجهول، وتنقلات قادة التحرّك وأقطابه رهن الغموض... إذن، بزوال جدوى مسوغات إتّخاذ الدار الأولى، تزول صحة البقاء فيها، ويبدأ التفكير بقرار الإنتقال وصواب الإختيار، وهو اجتهاد سليم لصيانة بداية النهضة ريثما يأتي الإمام الحسين «عليه السّلام» ليرى قدرة الناس ومدى قوة عزمهم.

و وقع الإختيار على دارٍ كان صاحبها من الحصانة الشخصية والقوة في هذا الإقليم، بحيث إذا رَكِبَ ركَبَ خلفه أربعة آلاف دارع وثمانية آلاف راجل، فإذا التحقت بقبيلته أحلافها «كندة وغيرها» يستوي خلفه ثلاثون ألف دارع. ذلك هو الزعيم الهمداني، أحد كبار شيوخ الثورة، المجاهد «هانئ بن عروة» من أشراف الكوفة وقرّائها، ومن فرسان سلاح الإمام عليّ أمير المؤمنين وتلاميذه النجباء، قد تجاوز عمره التسعين عاماً في الفترة التي ندرسها

الآن... تمّت حالة الإنتقال بما تقتضيه من تحفّظات أفرزتها الأجواء المحفوفة بالحذر.

و لا غرابة أن تنجم عن التدوين المرتجل و السرد التلقائي للرواة غير الأمناء، حالةٌ عوّدنا التاريخ عليها ممّا لا يخفىٰ فسادها أو يستعصي تفنيدها... قالوا: إنّ مسلم جاء الى دار هانئ ففاجأه بالموضوع وامتنع عن التجاوب ثم آواه علىٰ مضض بقوله - حسب الرواية-:«رحمك الله لقد كلّفتني شططاً، ولو لا دخولك داري وثقتك لأحببت ولسألتك أن تخرج عنّي، غير أنه يأخذني من ذلك ذمام»(١).

تريد الرواية أن توحي لنا جملة من النقاط، مثلاً: توحي الىٰ عدم وجود اتفاق مسبق في أمر بالغ الأهمية كهذا وهو غير معقول. توحي أيضاً الى أن هانئاً بعيداً عمّا تعيشه البلاد أو تمارسه الحركة، منعزلاً عن رفاق العقيدة أتباع أهل البيت النبوي. تفيد أنّ بين الرجلين جفاء في اللقاء، فلا هانئاً استقبل المبعوث الحسيني عند مجيئه للكوفة، ولا المبعوث التقىٰ بهانئ أو زاره -بتقدير عجزه عن الخروج لكبر سنه ومرضه مثلاً-. لم نر المبعوث الأبيّ يترفّع حين استاء هانئ من حضوره -كما ينبغي بشأنه-. وأخيراً أنّ هانئاً كان مجبوراً بقبول الإستجارة، حسب إيحاءات الرواية.

بيدَ أن ثمّة ردود تدحض هذه الحبكة: فاستجارة هانئ يمكن أن تنتهي بعد هذهِ الليلة، أو بعد ثلاث أيام، ليطلب منه تغيير المكان أو يقترح عليه دار أحد الزعماء الآخرين، وشيء من هذا القبيل لم يحدث. كيف للمستجير القيام بأخطر الأعمال في الإقليم؟ وكيف لصاحب الجوار أن يرضىٰ بمناهضة الحكم باستخدام داره؟ إذ قطعت الحركة أخطر أشواطها بدار هانئ،

---

(١) الطبري: ٤/٢٧٠.

وباشرت أنشط أدوارها هناك. وكانت أشد الأيدي العاملة هي يد المجاهد هانئ بن عروة نفسه، فهو مدير الأُمور ومدبّر العساكر وجامع المال وموفّر السلاح والعتاد. ثم إنّ دارهُ أضحت مركزاً سرّياً يتردّد عليه المبرزين وصفوة المتصدّين «علىٰ تستّر واستخفاء من عبيدالله وتواصوا بالكتمان»(١). وأكثر من ذلك فقد أُحيط هذا المركز بالبيوت الخاصة بالحركة ليرابط بها ما لا يقل عن أربعة آلاف رجل(٢).

أما كيف تبلورت هذهِ الرواية؟ فواضح أنّها مستفادة من حوار هانئ مع الوالي الذي استهدف استجوابه فيما بعد-كما سنرىٰ-، فزعم المجاهد ابن عروة عدم ضلوعه بالتحرّك وأنّه مجرد مضيّف لضيف مجبور علىٰ ضيافته وإجارته حين فاجئه بالمجيء عنده، فنفىٰ الوالي ذلك -كما سنذكر لاحقاً- فهل يليق تصديق ادعاء لدفع ضرر أمام سلطان جائر، واعتماد هذا الإدعاء في صياغة رواية تصطدم بالقرائن الحقيقية الثابتة؟!.

و إذ يستقرّ المجاهد مسلم في المقرّ الثاني، فإنّه لم يكن هارباً بنفسه متخوّفاً من خطر ليضمن سلامته، متخفياً، مكتفياً بما سعىٰ إليه مسبقاً، كلّا، فهو يواصل الجدّ والجهاد بعدما ضمن «سلامة» استمرار المساعي السامية.

المبعوث يراسل الإمام:

تمّت مراسلة الحسين السبط «صلوات الله عليه» في هذا المقرّ الثاني «في دار هانئ»(٣)، وكان عدد المبايعين قد بلغ رقماً عالياً كما تنصّ الرسالة، التي حاولت استقدام الإمام ليتبنّىٰ قيادة التحرك بنفسه شخصياً، لأنّ الواقع

---

(١) الإرشاد للمفيد: ص ٢٠٧.

(٢) الطبري: ٤/٢٧٥.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/٢٨١.

الرافض جاهز للوثوب والثورة على الحكم، كتب مسلم بن عقيل «عليه السّلام»:

«أما بعد: فإن الرائد لا يكذب أهله، و قد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً، فعجّل الإقبال حين يأتيك كتابي، فإن الناس كلهم معك، ليس لهم في آل معاوية رأي ولا هوىً. والسلام»(١).

طواها و أعطاها للمجاهد الكبير «عابس بن شبيب الشاكري الهمداني» وانتدب لمرافقته المجاهد الجليل «قيس بن مسهر الصيداوي» فانطلقا الى مكة حيث يقيم ريحانة الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم»، ولرُبَّ -في اختياره لعابس- معنىً هام و مقصد بالغ المرام لا يخفى، لتمتّعه بالصلابة المشفوعة بالصراحة، ممّا يتيح له إطلاع الإمام على الأوضاع بكل إيجابياتها وسلبياتها، فقد ثبت لنا كونه خير ناطقٍ بلسان حال المؤمنين، وخير معبّرٍ عن هواجس عامّة الكوفيين -انظر فصل البيعة ص١٠٣ .

بالحساب و الإستنتاج نتوصّل الى أنّ تاريخ كتابة الرسالة و إرسالها -بالتقريب- هو العاشر من ذي القعدة عام ٥٩هـ، أي بعد مضي قرابة خمسة وثلاثين يوماً من تاريخ دخول مسلم الكوفة... فلا عبرة بالتصوير المرتجل لمسار الأحداث كما تشهد بذلك الخامات التاريخية المدونة التي تختصر الوقائع اختصاراً مخلاً سيّئاً، من قبيل قولهم «بَعَثه الحسين للكوفة فنزل دار المختار وبايعه الناس فكتب الى الحسين...الخ».

هذا، و إنّ المبعوث مسلم -بهذه الرسالة- كله أمل و رجاء بتماسك الناس لجعلهم في ترقّب لمقدم القائد الأعلى، واستمرّ مع خير نخبة كوفيّة مخلصة، توفّرت على إنجاز أعمالها الكثيرة، وتنظيم المسلّحين للطوارئ وتوجيههم

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٨١/٤ و ص ٢٩٧ بلفظ آخر.

بما يلزم من شؤون الدين والشرع الكريم وقضايا القتال والسياسة، فرابط حول المقرّ الجديد أربعة آلاف مسلح، موزّعون على الدور المحيطة به، وهنالك الكثير من الأعمال التي تمّت بسرّية ناجحة وكتمان بالغ، حتى أنّ السلطة -بأميرها الجديد وعيونها المنتشرة، فضلاً عن شبكة العرفاء، وشتّى المنافقين والإنتهازيين- عجزت عن التوصّل الى نتيجة مرضية، فظلّت في حيرتها.

حاول ابن زياد التعرف على الأوضاع أو بعضها، حين تفقّد صحة «شريك الحارثي» متسائلاً عن أحواله فعرف أنه يُلازم الفراش مريضاً، نازلاً ضيفاً على زعيم مذحج «هانئ بن عروة»، فبعث له رسولاً يخبره عن مجيئه العشية، مستهدفاً من زيارته -المعنونة بأنّها عيادة لوجيه مريض- توطيد العلاقة بشريك، عسى أن لا يساهم بهذا التحرّك، ورجاء أن لا يتصل بمسلم بن عقيل- ولم يدر أنّه معه ليل نهار حالما وصل من البصرة مريضاً -وكان ذا قابلية على التمرّد والتحرّك، وهو سرّ مخاوف الوالي منه باصطحابه الجبري لإقصائه عن أجواء البصرة. واستهدف بهذه الزيارة استحصال معلومات من شريك الذي لا يخلو -بتصوره- من أخبار بسيطة أو هامّة، خاصة أو عامة. كما أراد الإتصال بهانئ أحد كبار قادة الإقليم، مجاملاً إيّاه كي لا يتجاوب مع الثوار، مستخبراً منه ما عساه يبوح به حتى لو كان أقل من المرجو والمطلوب، ولو بشكل غير مباشر، جاهلاً بأنّ هانئاً من كبار شيوخ الثورة وقادتها.

إقترح شريك على مسلم بن عقيل، بقوله «إنّ هذا الفاجر عائدي العشية، فإذا جلس فاخرج إليه فاقتله. ثمّ اقعد في القصر ليس أحد يحول بينك وبينه فإنّ برئتُ من وجعي هذا أيامي هذه، سرت الى البصرة وكفيتك أمرها»(١) وسجّل بعض المؤرخين كابن قتيبة أن هانئاً هو المقترح (٢).

---

(١) الطبري: ٤/٢٧١، و ابن الأثير: ٣/٢٦٩.

(٢) الإمامة و السياسة: ٢/٤. و ثمّة أقوال حول الدار التي جرى فيها اللقاء لسنا بصددها.

حسبنا القول أنّ مسلماً «عليه السّلام» لم ينطق بالموافقة ولم يتح مجالاً للجدل الطويل. وكان قد انصرف عن الغرفة التي سيدخلها ابن زياد، الذي جاء فرابط حرسه على الباب وجلس أحدهم قربه، وابن زياد يتحدث مع المريض فيسأله عمّ يشكو وممّ يعاني وشريك يجيب، ودام تبادل الأحاديث وقتاً طويلاً نسبياً، ففطن شريك لعدم خروج مسلم، مستبطئاً أيّاه، فأوعز له بعلامة الحسم بحيث يسمعها وهو في الغرفة الأُخرىٰ:

ما الإنتظارُ بسلمىٰ أنْ تُحيّوها
حيّوا سُليمى وحيّوا من يُحيِّيها
كأسَ المنيةِ بالتعجيل فاسقوها(١)

كرّر ذلك، وألحّ، حتىٰ صاح: «إسقُنيها و إن كانت فيها نفسي!»(٢) والمبعوث الحسيني يسمع جيداً لكنّه رهين إرادته المنوطةِ برأيه وما توصّل اليه سلفاً قبل أن تحين فرصة كهذه ـ وسنقرأ موقفه بعد قليل ـ... علىٰ أثر تكرار شريك كلماته، إلتفت ابن زياد يتساءل مع هانئ: «ماشأنهُ، ترونه يَخْلُط؟ قال هانئ: نعم ما زال هذا دأبه قبيل الصبح حتىٰ ساعته هذه»(٣).

أنهىٰ ابن زياد زيارته وانصرف(٤). بينما أسِفَ شريك لفوات فرصة

---

(١) مقاتل الطالبيين: ص ٩٨، والأخبار الطوال والفتوح وغيرها بتفاوت في اللفظ.

(٢) الطبري: ٤/٢٧١.

(٣) ابن الأثير: ٣/٢٧٠.

(٤) قيل ـ والكلام لابن الأثير ـ إنّ شريكاً لما قال: اسقُنيها وخلط كلامه، فطن به مهران (مولىٰ ابن زياد) فغمز عبيدالله فوثب، فقال له شريك: أيّها الأمير إنّي أريد أن أُوصي إليك، فقال: أعود اليك. فقال له مهران: إنّه اراد قتلك، فقال: كيف مع إكرامي له وفي بيت هانئ ويد أبي عنده؟ فقال له مهران: هو ما قلت لك» ٣/٢٧٠. في حين روي إنّه أدرك هذا بعد أيام، إذ توفي شريك إثر مرضه بعد ثلاث أيام من الموقف المذكور فصلّىٰ عليه ابن زياد. ومضت عدة أيام، ليعلم بما دبّره له شريك فانفعل غاضباً قائلاً: «والله لا أُصلي علىٰ جنازة رجل من أهل العراق أبداً، (أو من أهل ←

جيّدة برأيه خلافاً لما عليه مسلم، فسأله معاتباً «ما منعك من قتله؟» فاختصر ما لديه من تفاصيل بالقول: «إنّ الذي منعه حديث سمعه من الإمام عليّ عن رسول الله «صلّى الله عليه وآله» وهو: أنّ الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن»(١) ويحلو للبعض رواية الحديث بإضافة كلمة دخيلة على الموقف فيكون النص: «... فلا يفتك مؤمن بمؤمن» وهو تلاعب واضح بالحادث جرىٰ عليه بغفله كتّاب معاصرون أيضاً.

و قيل عن سبب الإمتناع أنّ هانئاً لم يحب قتله بداره، وهذا خلاف طموحات هانئ، وقيل زوجته كرهت قتله بالدار، فلما عَرف هانئ قال متحسّراً: قتلتني والذي خشيت منه وقعت فيه، بل حتىٰ قيل إنّ الأمر كان في غير دار هانئ، بينما قيل إنه هو الذي اقترح قتله، وهي اختلافات معتادة، ولا مجال لأخذها بنظر الإعتبار.

العاملان الأساسيان للإمتناع:

إبتداءً نذكر إجماع المؤرّخين علىٰ الشجاعة النادرة لمسلم حينما يسجّلون هذه الرواية، كأنّهم يصرفون الأذهان عن أوهام خذلان نفسه له، وينفون عن التصوّر ورود شبهة أنّه ضعف عن التنفيذ خوفاً. أضف الىٰ ذلك أنّ الرجال الحضور في اقتراح قتل ابن زياد ـ شريكاً وهانئاً وغيرهما ـ لم يرتابوا من قدرته العالية في قتله مع من بمعيّته من الحُراس، بل هو موضع ثقتهم لقوّته ومحل إعجابهم لشدّة بأسه.

* * *

الكوفة) ووالله لولا قبر زياد فيهم لنبشت شريكاً» تاريخ الطبري: ٢٧١/٤.

(١) الفتوح لابن أعثم: ٧٣/٥.

العامل المفاهيمي المبدئي:

و هو القيمة الأخلاقية الراقية التي لا يسعه الإفاضة فيها، الأمر الذي جعل البطل يتجنّب تنفيذ الإقتراح، مجيباً بإيجار متجنّباً الإطالة والتفصيل غير المجدي، الذي قد لا يُقنع الأفراد بل يشجّعهم علىٰ الخوض في النقاش، إن جوابه الوجيز شبيه بالإجابات الموجزة لقادة الإسلام، كالحسين «عليه السّلام» في بعض أجوبته للأسئلة الكثيرة، نظير قوله: «شاءالله أن يراني قتيلاً» دونما تفاصيل وشروحات، قد يتصدّىٰ لها السائل بما يملك من مقدرة على الردّ والكلام، أو كقوله بعد صلح الإمام الحسن «عليه السّلام» لمن اقترحوا عليه التحرك بهم فاختصر بالقول: «إنّا قد بايعنا وعاهدنا ولا سبيل الىٰ نقض بيعتنا» وغير ذلك من المواقف والإجابات الرصينة البليغة المنطوية علىٰ تفصيلات وشروح ضافية لا يُساغ الإنبساط فيها.

و نرىٰ مسلماً يكتفي باسلوب الحكيم حينما أجاب قائلا: «إنّا أهل بيت نكره الغدر» كما في رواية، فضلاً عمّا ذكرنا من سماعه عن الإمام علي حديث النبيّ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» من أنّ «الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن» إذن فالمانع «الظاهري» هنا هو مفاهيمي مبدئي، وبعبارة أُخرىٰ هو مانع الأخلاق المقدّسة في مقاييس القتال، ومعايير التعامل في السلم والحرب، حين يترفّع البطل العظيم عن الضعة بالغدر بفرد قد لا يتحقق النصر بقتله ـ كما سيأتي ضمن العامل الآخر ـ ثم إنّ الغدر صفة مذمومة عرفاًو شرعاً، لا يقوم بها في تلك الحالة إلا الضعيف الجبان، كما أنّ المفاهيم الإسلامية نهت عنها وليس ثمّة منافس لبني هاشم على تجسيد المبادئ المقدسة، التي لا يُعَرِّضها مسلم للغموض بتلك العملية، يضاف الىٰ ذلك قول معلّمهِ العظيم الإمام علي «عليه السّلام» بأنّ الغدر في النار: «أيّها الناس، او لا كراهية

الغدر لكنت من أدهىٰ الناس، ألا إنّ لكلّ غدرة فجرة، ولكلّ فجرة كفرة، و لكلّ غادر لواء يُعرف به يوم القيامة...»(١).

الى جانب ذلك، كان آل الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم» يتعرّضون دوماً لمواجهات سرّية وعلنية قوامها الغدر المكشوف، والتاريخ حافل بالشواهد والمثلات، ولا تغيب الحكمة عن المبعوث الذي لو قام -فرضاً- مرة واحدة بهذا العمل لأتاح تسويغ كل الأعمال الغادرة بآل محمّد التي لا تعدّ ولا تحصىٰ، ولقيل أنه لم يراع القيم وأنّه يتجاوز المفاهيم من أجل مكسب طارئ، بالتالي سيحضىٰ الخصوم علىٰ فرصة يتمنّونها ليفسّروا بها منطلقاتهم العدوانية الغادرة وسياستهم اللامشروعية واللاأخلاقية المعهودة في مواجهتهم لآل الرسول الاعظم بعنوان المقابلة بالمثل، ومن باب الخرق المتبادل بينهما للمفاهيم والأخلاق.

العامل السياسي الواقعي:

و هو المانع «غير الظاهري» المقابل للمانع «الظاهري» الآنف الذكر. فليس كل ما يُعرف يُقال سيّما في تلك الحالات الحرجة، خصوصاً فيما يتعلّق بأسرار الواقع الخفي. إذ بدت قدرات الجمهور المحدودة عن تحمل المشاقّ المعنوية والآثار العسكرية المترتبة علىٰ العملية التي سيثأر لها عاهل الشام بجيش طالما عهدوه في غاراته الغادرة يقاتلهم بلا قوانين أو أُسس شرعية ولا إنسانية... وهم ليسوا علىٰ استعداد معنوي رفيع لهذهِ المواجهة المحتملة بل المحتومة التي تعقب قتله للوالي الجديد نيابة عنهم و بدون حضور إرادتهم.

و لو كانت الفكرة صائبة بأن الصراع ينتهي و يُحسم بمجرد التخلّص من

---

(١) نهج البلاغة شرح الشيخ محمد عبده: ٢/٢٠٦.

والي الإقليم، لاستطاع المبعوث تدبير عملية التخلّص من الوالي الأول-النعمان بن بشير -بأيّ شكل من الأشكال، أوْ لَتَمّ التخلّص من هذا الثاني بكمين في نفس طريق بيت هانئ يترصّده قبيل دخوله فيه أو بعد خروجه منه -مثلاً-. تخلّصاً من الاعتبارات العرفية الخاصة بالبيت.

و عليه فإن عدم طرد أو قتل الوالي الأول كما أنه جاء اجتهاداً ألحّت عليه الضرورات الأولية ابتداءً، كذلك جاء قرار عدم قتل الوالي الثاني -مع القدرة عليه والتمكّن منه بنصب كمين له- نتيجة لاجتهاد مبني على دعامتين أساسيتين: «أخلاقية» و «سياسية» ناظرة بعينين ثاقبتين للواقع الضعيف عن مواجهة المضاعفات الأكيدة... ويمكن لكل باحث دقيق أن يثبين كون كل دعامة من الدعامتين لها نصيبها العظيم من الصحة والصواب من حيث المبدأ.

نحن نعتقد أنّ المسألة «آنذاك» لا تتلخّص بصراع أفراد أو قتل فرد يمثّل السلطة المحلّية بالكوفة، فلو كان هذا الفرد هو نفس الملك «يزيد» مثلاً، لأمكن تأمين بعض العواقب أو كلها لكونه رأس الأفعى، أما هذهِ الخطوة فإنّ عواقبها معلومة لا شكّ في خطر تنفيذها على ضوء معرفة المعنويات، لأنّ تنفيذها معناه اندلاع الحرب قبل أوانها، وتعجّل في المعركة قبل حينها، وإقحام للكوفيين على غير أُهبة.

و قد رأينا الآثار النفسية السلبية كالإستياء قد ظهرت حينما علموا بمجيء ابن مرجانه، ثم رأينا -فيما بعد- كيف أنّ عامة المجتمع كان يخضع للشائعات، وينخذل عن نفسهِ لمجرد سماع قدوم جيش الشام المنفلت من التزامه بمبادئ الحرب والقتال.

إنّ القتل، و إن كان يستحقه هذا الوالي، و لكن ليس دائماً هو الحل الحاسم للموقف، ومن الغريب ما قاله شريك الحارثي «... لو قتلته لاستقام

لك امرك ، واستوسق لك سلطانك».أيّ سلطان يفكر به الحارثي للمبعوث القائد؟! فثمّة فرق بين قائد يقتل وينتقم بدون سندٍ شعبي يتطلبه ما يسفر عنه الاغتيال من مضاعفات عسكرية للموقف، وبين آخر يرىٰ أن لا يُحدث شيئاً بغياب الجمهور بل يجب أن يُعبؤه لتقوىٰ شوكته وشأنه. علماً أنّ القيادة لو عَلّمت القاعدة على الإتكالية وأناطت كل الخطوات الخطيرة بالقائد، فستجني علىٰ التحرك حين يحلّ دور القاعدة في القيام بواجبها وهي غائبة... فالأهداف الأولية المرجوّة ـ المتمثّلة بتهيئة الناس معنوياً ـ لم تكتمل، حتىٰ يمكن استقبال نتائج الأهداف المصيرية، التي تكون فيها تصفية أئمة الكفر حلقة تنتظم مسلسلها الطويل حتىٰ يطال يزيد نفسه في عقر قصره.

و بعد: فلو قام بتجريد الوالي الأول «النعمان بن بشير» من جميع سلطاته، أو قام بقتل الثاني فتخلّص منه، واحتدم الصراع مع جيش الشام وانتهىٰ إلىٰ تغلّب جيش الغارات المعروف، حينها سيقال عن سبب الفشل والغلبة أنه خطأ المبعوث مسلم الذي تعجّل الظفر بالكرسي والسلطان، وملاحقة المنصب الدنيوي، وَلأُدين شخصه ودينه الحنيف.

لقد واصل يسعىٰ نحوملْ الثغرات المادية والتسليحية، وسدّ الخلل النفسي الناجم عن تنكيل سياسة عقدين من السنين ـ أو تزيد ـ كما ينبغي خلال هذا السعي أن يُمحّصوا، والفترة كلها اختبارية ابتلائية لابدّ للناس منها في حاضرهم ومستقبلهم «وإنْ أدْري لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لكُمْ وَمَتاعٌ إلىٰ حِين»(١)

---

(١) سورة الأنبياء: ١١١.

الفصل الثالث

التجسّس
واستدعاء الزعيم هانئ

«و الله لو لم أكن إلا وحدي، ليس لي ناصر، لما سلّمته اليه أبداً، حتىٰ أموت دونه».

المجاهد هانئ بن عروة

دور الجاسوسية:

أدّىٰ استحكام الأعمال السرّية، و شدّة كتمان مكان قائد الحركة، الىٰ قلق ابن زياد لعجزه عن التوصّل الىٰ الموضع الذي اختاره مسلم «سلام الله عليه» وازداد العدوّ ارتباكاً حين مضت عليه قرابة عشرون يوماً ولم يهتد لذلك أيّ فرد من شبكة العيون والعرفاء والأعيان ـ من ذوي الأطماع ـ والإنتهازيين والمنافقين وغيرهم ممّن يقتنصون هكذا فرص ولا يفوتهم الإنتفاع منها والتزلّف بواسطتها للتملّق عندالولاة.

فيئس مِنَ التوصل الى نتيجة مرضية، مما اضطره أخيراً الى اللجوء لابتكار جديد في المكر، عندما دعا مولىٰ أو أكثر من مولىٰ واحد، للقيام بأعمال تجسّس واسعة بمهارة وحذاقة. وكان أحد الموالي ـ يدعىٰ مَعقِل ـ قد طُلِبَ منه أن يزعم كونه شيعي شامي مولىٰ لذي الكلاع الحميري(١) المشهور

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٠.

تشيّعه في الشام بحُمص، فهو كالمهاجر الغريب «في صورة قاصدٍ من حُمص»(١) وأعطاه ثلاثة آلاف درهم ليزعم أنّها منقولة من شيعة الشام بحمص لأهل البيت «عليهم الصلاة والسلام». ويُعدّ التظاهر بأنّه من الموالي أبلغ في التغطية نظراً لطبيعة الصراع العنصري القومي الناشب بين الموالي والحكم الأموي الذي اضطهد المسلمين غير العرب أيُّما اضطهاد، فالتزم بعضهم بمسار أهل البيت النبوي «صلوات الله عليهم».

راح الجاسوس يبذل سعيه متحرّياً، حتىٰ تمكّن من التوصل الىٰ رجلٍ سمع الناس يذكرونه، أو سأل عن رجل شيعي فدلّوه علىٰ شخص كان جالساً في المسجد، أو رأىٰ مصلّياً يصلّي فتوقف عنده ليسأله... الخ. فثمّة ثلاث روايات وقد تكون واحدة ذات ثلاث أوجه.

الرجل يصلّي قرب سارية من سواري مسجد الكوفة الأعظم، ويفرغ من صلاته ليعاود يصلّي ثانية وهكذا، فهو منقطع للعبادة، فقال الجاسوس في نفسه ـ كما روىٰ الدينوري ـ: «إنّ هؤلاء الشيعة يُكثرون الصلاة، وأحسب أنّ هذا منهم، فجلس للرجل حتىٰ انفتل من صلاته...»(٢) فالتفت إليه وقد ارتسمت علىٰ سحنة وجهه معالم المعاناة والاضطهاد، ليتكلّم بلهجة الرجاء مشفوعاً بسيل من الدموع:

«يا عبدالله، إنّي امرؤ من أهل الشام، مولىٰ لذي الكلاع (الحميري) أنعم الله عليَّ بحبّ أهل هذا البيت وحبّ من أَحَبّهم، فهذهِ ثلاثة آلاف درهم أردت بها لقاء رجل منهم، بلغني أنه قَدِمَ الكوفة يبايع لابن بنت رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم». وكنت أُريد لقاءه فلم أجد أحداً يدلّني عليه ولا يعرف مكانه... وأضاف قائلاً: فإنّي لجالس آنفاً في المسجد، إذ

---

(١) البداية و النهاية لابن كثير: ٨/١٥٣.

(٢) الأخبار الطوال للدينوري: ص ٢٤٩.

سمعت نفراً من المسلمين، يقولون: هذا رجلٌ له علمٌ بأهل هذا البيت»(١).

و قيل إنّه سمع من يقول «هذا يبايع للحسين» أو سأل فأُجيب، لقد تألّم ذلك الرجل وهو المجاهد «مسلم بن عوسجة الأسدي» ولم يجبه لما يريد فوراً، حتىٰ قال له فيما بعد: «لقد سرّني لقاؤك إياي، لتنال ما تحبّ، ولينصرنّ الله بك أهل بيت نبيّه. ولقد ساءني معرفتك إياي بهذا الأمر من قبل أن ينمىٰ، مخافة هذا الطاغية وسطوته»(٢).

ثمَّ إنّه «أخذ عليه المواثيق المُغلّظة، ليُناصحنّ وليكتمنّ، فأعطاه من ذلك مارضي به»(٣) كما قال له: «وإن شئت أخذت بيعتي قبل لقائي إياه»(٤) ولم يحصل علىٰ موافقه اصطحابه إلا بعد النظر في شأنه: «إختلف اليَّ أياماً فإني طالبٌ لك الإذن على صاحبي»(٥).

و ما عساهم يرتابون منه أو يشكّون به؟ فهو من الموالي الطبقة المحرومة والفئة المضطهدة، ثمّ إنّه أبعدَ قبيلته فقال شامي ولم يقل عراقي «إذ لا سبيل لدسّ رجل عراقي يسهل اكتشافه بالتقصّي عن قبيلته»(٦). وأمعن في تمثيل ذروة المعاناة لدىٰ الشيعة. كما أبدىٰ ولاءً شديداً حينما حمل الأمانة المالية الكبيرة وقدّم بيعته، هذا كله فضلاً عن أنهم أخذوا المواثيق المغلّظة عليه، ثم مضت عدة أيام علىٰ نيل الموافقة «واختلَف إليه أياماً ليدخله على مسلم بن عقيل»(٧).

---

(١) الطبري: ٤/٢٧٠، و ابن أعثم: ٥/٧٩-٨٠، وابن الأثير: ٣/٢٦٩.

(٢) و (٣) نفس المصادر السابقة.

(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٣/٢٦٩ وغيره.

(٥) الإرشاد للشيخ المفيد: ٢٠٧ وغيره.

(٦) أنصار الحسين «عليه السّلام»، لمحمد مهدى شمس الدين: ص١٧٣.

(٧) إبن الأثير: ٣/٢٦٩. يُعقّبُ المرحوم المظفر -في كتابه- بالقول «كان ذلك لسلامة نيّاتهم، ←

و مهما يكن اطلاعه مفصّلاً أو ضئيلاً، فهو قد حدّد المقر... وظلّ ابن زياد يفكّر في كيفية معالجة الموقف الخطير هذا، لأنّ هانئاً زعيم قبيلة قويّة لا يمكن للسلطة أن تتجاهل قوّتها.

أزمة ضعف السلطة:

أدرك قادة الحركة و رجالاتها، أن واقع السلطة ضعيف في مواجهة التحرك بأيّ شكل من الأشكال، والسلطة في وضع محرج ومأزق لا تخرج منه بأيّ حلٍّ عسكري إلا حلّ الإعتماد على انتظار نجدة جيش الشام لإنقاذ الموقف الحكومي المهتز. فالقوة العسكرية المحلّية ضئيلة قياساً لقوة الحركة، وأن أيّ محاولة حكومية لزج الناس بشكل نظامي ضد التحرك سوف تبوء بالفشل ولا تحمد عواقبها.

و أدرك قادة الحركة أن القوة التي اصطحبها ابن زياد من البصرة ليس كما توهم عوام النّاس، لإنها قوة قليلة العدة والعدد وإن كان دخولها الى الكوفة مثنىٰ وفرادا، فهي أقل مما توحي، وشريك الحارثي الذي كان ضمنها يعرف قيمتها.

و لا يملك الوالي تحقيق هجوم ميداني بواسطة الفرقة العسكرية التى كانت جاهزة لتأديب أهل الديلم(١)، والتي تمّ إرجاء إرسالها الى إشعار آخر وكانت مكونة من أربعة الآف مقاتل بقيادة عمر بن سعد، لأن الهجوم على المقر أو ضدّ الحركة الكوفية بمثل هذه الفرقة قد لا يكسب الجولة، لأنها مكوّنة من داخل البلاد من أهل الكوفة أنفسهم ومن الطبقة الشعبية، فلا ضمان لولائها للوالي،

ونظافة قلوبهم، وطهارة أنفسهم عن الغش والخديعة». بيدَ أن الشيخ القرشي في كتابه يؤاخذهم لأنّهم سمحوا له بالدخول على مسلم.

(١) تاريخ الطبري: ١٢٥/٤

كما لو كانت مكوّنة من أهل الشام مثلاً. وهذه الفرقة لا يضمن ولاءها في حرب أهلية داخل الكوفة، إذا ضمن ولاءها في حرب خارجية ضدّ أهل الديلم.

السلطة بدورها تدرك واقعها المنهار، فلم تطمئن على سلامة حياتها لمدة قصيرة، فهي ترىٰ الخطر المحدق بها، ولا تملك سوىٰ التحصّن في القصر الذي يمثل «القلعة الحصينة» الوحيدة بالنسبة لها، وأن استدعاء جيش من الشام وإن كان قد وضع في حساب الوالي والحزب الأموي المحلّي، إلا أنه حلّ غير عاجل. فما هو الحلّ العاجل في هذا الموقف الرسمي المحرج؟

لقد استمرّت السلطة بالتفكير داخل القصر في قلق من جراء خطورة مذحج وزعيمها، والحركة والمبعوث اليها. فالسلطة لا تملك دستوراً يمكن فرضه أو شرعية يمكن الانصياع اليها، كما لا تملك جيشاً أو شرطة يضمن ولاؤهم ونجاح أداؤهم، فالسلطة المحلّية إذن ليست بيدها أي سلطة حقيقية علىٰ البلاد أو علىٰ القبائل سوىٰ النفوذ الإسمي المجرد.

استمرّ الوالي و من معه من الأمويين يفكرون بكيفية مواجهة هذا المأزق... المبعوث مسلم في بيت هانئ، وهانئ يؤيد الحركة بكل ما أُوتي من قدرة، ويمنح بيته للحركة مقراً سرّياً لها وهانئ زعيم مذحج، ومذحج من القوىٰ التي يحسب لها حساب في الكوفة، والحركة تمتدّ إليها ثمَّ لا تقتصر عليها، والمطالبة بتسليم المبعوث بطريقة هادئة أو بضغط رسمي أو مفاوضات روتينية لا تجدي أية منفعة، والهجوم على المقر يحتاج الى قوة كبيرة من غير أهل الكوفة ليضمن دوام ولائها للقصر ضدّ قيادة الحركة الأهلية المتواجدة بهذا المقر.

إنتهت السلطة الى عدم وجود أي منفذ لها للخروج من مأزقها الخانق، فلا الحلول السياسية للتسوية يمكنها أن تكسب الموقف، ولا الحلول العسكرية غير الناضجة... كما توصّل الوالي الى عدم وجود نقاط ضعف لدىٰ قادة التحرك المبعوث ورفاقه. فالمؤشرات تزيد من نقاط القوة، مقابل ضعف متفاقم للسلطة

الوالي ومن حوله-.

أخيراً وجدت السلطة ضالّتها بلجوئها الى حلول الحيلة والإحتيال ضد شخص هانئ الذي يستطيع استدعاءه بحجة اشتياقه للقائه ثم يغدر به فيعتقله أو يهدده بالقتل مالم يُسلّمه مسلم بن عقيل... ولكن ظهر لهم أن الخطر سيبقى محدقاً بهم، إذ لابدّ من فصل الناس عن التحرك، وبالتحديد لابدّ من إحباط مذحج التي من المحتم أن تنتقم لزعيمها بروح الحمية القبلية وستخرج معها حليفتها كندة، ومعنى هذا جعل مصير القصر في مهبّ الريح. لذلك حيكت خطة تآمرية لاحتواء مذحج بشكل غير مباشر وتعطيل تحركها الفاعل من حيث لا تدري - كما سيتضح- وسنتعرف لاحقاً على أهم العناصر الأموية التي ساهمت مع ابن زياد بالتخطيط والتنفيذ لهذه المؤامرة المبيتة، وهكذا تمّ توجيه دعوة مباشرة من الوالي الى رئيس مذحج كي يزوره بعنوان ضرورة التواصل الطبيعي بين الوالي وأمثال الزعيم هانئ.

إستدعاء المجاهد هانئ:

أجمع المؤرّخون أنّ هانئاً لم يذهب لزيارة الوالي الجديد في قصره، طبق مقتضى الأعراف والتقاليد، كواجب تفرضه العلاقة بين الوالي وزعماء الإقليم، إذ أنّ هانئاً ليس متملّقاً أو انتهازياً، يمنعه عن ذلك نوع ولائه ومنحى انتمائه، إذ تسربل بروح الإباء العقائدي، وانصرف الى إعداد القوة، متذرّعاً بمرض ألمّ به فهو يتشكّى منه فيمنعه من التنقل والخروج. علماً أن ذلك اللقاء بين الوالي وهانئ -أثناء عيادة شريك الحارثي(١)- لا يمثّل شيئاً في المعيار العرفي، أو المقياس الدبلوماسي.

---

(١) توفي شريك بعد ثلاث أيام أنظر هامش ص١٤٩ من هذا الكتاب.

تساءل ابن زياد بمحضر «البعض»: «مايمنع هانىء بن عروة من إتياننا، قالوا: ما ندري أصلحك الله، وإنّه ليتشكىٰ، قال: قد بلغني أنه قد بَرأ وهو يجلس علىٰ باب داره، فألقوه فمروه ألا يدع ما عليه في ذلك من الحق، فإني لا احبّ أن يفسد عندي مثله من أشراف العرب»(١) فذهبوا إليه،وهؤلاء هم: حسّان بن أسماء بن خارجة وكان هذا غافلاً تماماً عمّا يُراد جاهلاً بكل الأبعاد، ومحمد بن الأشعث وهو يعرف بعض ما سيكون. وعمرو بن الحجاج الزبيدي كانت أُخته زوجة هانىء ـ سنعرف تفاصيل دوره لاحقاً في الفصل التالي ـ.

جاؤا فسلّموا علىٰ هانئ الجالس علىٰ باب الدار، وتكلّم أحدهم: «ما يمنعك من لقاء الأمير فإنّه قد ذكرك وقال: لو أعلم أنّه شاك لعدته. فقال لهم: الشكوىٰ تمنعني. فقالوا له: يبلغه أنّك تجلس كل عشية علىٰ باب دارك ، وقد استبطأك ، والإبطاء والجفاء لا يحتمله السلطان، أقسمنا عليك لما ركبت معنا»(٢) كان هؤلاء الرُسُلُ من وجهاء المجتمع وليسوا من الشرطة، أمّا لو تمّت الدعوة بغير هذهِ الطريقة لاختلف الأمر وانجلىٰ السر. ولكن حينما ذهب معهم الشيخ المُسن ثمّ قرب من القصر، شعر قلبه بخبث غاية استدعائه «فأوجس في نفسه خيفة»(٣).

تأهّب ابن زياد لمواجهة هانئ، دون حذر أو خوف من قبيلته لخطّة مسبقة سنراها. دخل هانئ ليبادره ابن زياد فوراً «أتتك بخائن رجلاه» ـ وهو مَثَلٌ جاهلي ـ واستطرد موجّهاً كلامه للقاضي شريح الجالس بمحاذاته، مستشهداً بهذا البيت:

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٢، والإرشاد: ص ٢٠٨.

(٣) الإرشاد: ص ٢٠٨، والكامل في التاريخ: ٣/٢٧٠.

أُريد حياته و يريد قتلي عُذِيرَكَ من خليلك من مُراد

إستفهم هانئ ـ وكان ما زال يمشي داخلاً ـ فقال: «وما ذاك أيها الأمير؟!» فقال له بلهجة اخرىٰ: «إيه يا هانئ بن عروة! ما هذهِ الأُمور التي تَربَّصُ في دارك لأمير المؤمنين (يزيد) وعامة المسلمين؟ جِئتَ بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك ، وجمعت له السلاح والرجال في الدور حولك ، وظننت أنّ ذلك يخفىٰ عليَّ ؟!»(١) فأنكر المجاهد ذلك ظنّاً منه بامكانية تلافي تهمة عابرة «ما فعلت ذلك وما مسلم عندي» فردّ عليه «بلىٰ قد فعلت» فنفىٰ هانئ «فلما كثر ذلك (الجدال) بينهما، وأبىٰ هانئ إلا مجاحدته ومناكرته، دعا ابن زياد مَعْقِلاً ذلك العين»(٢) وفوجئ المجاهد الجليل، فاستعاد رباطة جأشه، محاولاً التمويه علىٰ ابن زياد، ليمهد بالقول: «إسمع مني وصدِّق مقالتي، فوالله لا كذبت» وهل يَحرُم الكذب علىٰ من يكذبون على الله ورسوله سيّما أنّه لم يدعُ مسلماً ـ كما قال ـ وإنّما تمّ الإتفاق حول داره، استأنف يقول:

«و الله ما دعوته الى منزلي، ولا علمت بشيء من أمره حتىٰ جاءني يسألني النزول، فاستحييت من ردّهِ ودخلني من ذلك ذمام، فضيّفته وآويته، وقد كان من أمره ما بلغك . (وعلىٰ هذا الإدعاء حبكت رواية مجيء مسلم الى منزله بدون رضاه انظرص١٤٥ من هذا الكتاب) فإنّ شئت أعطيتك الآن موثقاً مغلّظاً، ألا أبغيك سوءاً ولا غائلة، ولآتينك حتىٰ أضع يدي في يدك ، وإن شئت أعطيتك رهينة تكون في يدك حتىٰ آتيك (بعد أن) أنطلق إليه فآمره أن يخرج من داري الىٰ حيث شاء من الأرض»(٣).

---

(١) و (٢) الارشاد: ص٢٠٨، والكامل في التاريخ:٣/٢٧٠.

(٣) الإرشاد: ص ٢٠٩، و تاريخ الطبري: ٤/٢٧٣، والكامل في التاريخ: ٣/٢٧٠.

إنّه لو أراد أن يضع يده بيده فعلاً لوضعها قبلاً، فهو ونظراؤه ممّن لا يعطون بأيديهم ما لم يعطوا دماءهم الغالية ثمناً لموقف المبدأ والمعتقد، فلو خرج من القصر ـ مثلاً ـ لما أخرج المبعوث إلا لقيادة التحرك فوراً، ولأعلنها حرباً يُؤلِّبُ لها جمهور مذحج وكندة وبقية القبائل الأُخرىٰ، والعدوّ يعرف ذلك جيداً ويخشاه أشدّ الخشية، لكنّه واهمٌ حين يظنّ بأنه يسلّمه مسلماً باللين أو بالقوة، إذ قال:

«و الله لا تفارقني أبداً حتىٰ تأتيني به» فردّه بعنف وقوة:

«لا والله لا أجيئك به أبداً، أنا أجيئك بضيفي تقتله!!».

«و الله لتأتيني به» قالها الوالي صارخاً مولولاً.

«لاوالله لا آتيك به»(١) قالها المجاهد صارماً متحدّياً.

محاولة للحلّ السلمي:

«فلما كثر الكلام بينهما، قام مسلم بن عمرو الباهلي، وليس بالكوفة شامي ولا بصري غيره، فقال: أصلح الله الأمير، خلّني وإيّاه حتىٰ أُكلّمه. فقام فخلا به ناحية من ابن زياد، وهما منه بحيث يراهما، فإذا رفعا أصواتهما سمع ما يقولان»(٢). والباهلي هذا أُموي الميول والهوىٰ، لذلك راح يستعمل اسلوب تركيع الضعفاء ومنطق الجبناء، حين قال: «ياهانئ إنّي أُنشدك الله في أن تقتل نفسك، وتدخل البلاء علىٰ قومك وعشيرتك. فوالله إنّي لأُنفِسُ بك عن القتل... إنّ هذا الرجل (يقصد المبعوث مسلم) ابن عَمِّ القوم، وليسوا بقاتليه، ولا ضائريه، فادفعه إليه (لابن زياد) فإنّه ليس عليك بذلك

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٣، والإرشاد: ص٢٠٩، والكامل لابن الأثير: ٣/٢٧٠.

(٢) الفتوح لابن أعثم: ٥/٨٢، والمصادر الثلاث السابقة.

مخزاة ولا منقصة، إنّما تدفعه الى السلطان»(١).

لم يأت بجديد، فاقتراحه هو نفس مطلب الوالي بلهجة المُراضات والإقناع... إنّ الذين يغرقون بالمخازي والنقائص لا يحسّون بمخزاة أو منقصة بذلك الفعل المجافي للقيم والأخلاق، والذي لا يقرّه الإسلام أو العرف العربي السائد ـ على الأقل ـ. ومن أشدّ العجب ادّعاءهم بأنّهم عرب، أولئك الأجلاف الذين جبلوا على جاهلية جلفية أولعت بتعزيز مفهوم سياسي مفتعل متكلف للسلطة، يكيد بالإسلام والمسلمين «... إنّما تدفعه الى السلطان!» يخاطب رجلاً وسعته الأعراف العربية النبيلة حتىٰ شملته المبادىء القدسية المحمدية الجليلة:

«بلىٰ والله، إن عليَّ في ذلك من أعظم العار! أن يكون «مسلمٌ» في جواري وضيفي، وهو رسول ابن بنت رسول الله صلّى الله عليه وعلىٰ آلهِ، وأنا حيٌّ صحيح الساعدين كثير الأعوان. (وهو يُسْمِع ابن زياد وغيره) والله لو لم أكن إلا وحدي، ليس لي ناصر، لما سلّمته إليه أبداً، حتىٰ أموت دونه»(٢) قالها ثابتاً متماسكاً، ثقة قوية منه عزيزة عليه تهتز لعنفوانها أعواد عروش حكومات المتجبرين.

أخذ الباهلي يناشده، وهانىء يتصرّم بشدّة «والله لا أدفعه إليه أبداً» فيما أشار الوالي للجلاوزة والحرس إذ طغىٰ وتغطرس: «إدنوه مني» فشدّوا عليه بقوّة، وأرعد ابن زياد وأزبد: «أتأتيني به، أو لأضربن عنقك؟» فلم يخش القتل لأن في عنقه أمانة تجود دونها الرقاب، فهدّده بقوله: «إذن تكثر البارقة حولك» يقصد سيوف مذحج التي أمِن العدو شرها ـ حسبما سيتضح ـ وهو السرّ

---

(١) نفس المصادر السابقة.

(٢) الفتوح لابن أعثم: ٥/٨٢ ـ ٨٣، والمصادر السابقة.

في غرور الأمير بقوله «والهفاه عليك أبا البارقة تخوّفني» فباغته بضربٍ غادر في لحظة تكتيفه، يقول الطبري «فاستعرض وجهه بالقضيب، فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وخدّه، حتىٰ كسر أنفه وسيّل الدماء على ثيابه، ونُثر لحم خديه وجبينه علىٰ لحيته، حتىٰ كُسر القضيب»(١) والشيخ الكبير ـ المتجاوز سنّه التسعين عاماً ـ يقاوم الجلاوزة فيفلت المجاهد الأعزل ليعمد الىٰ أقرب سلاح، فضرب بيده مقبض سيف شرطي، وبدأت مجاذبة عنيفة تجنّبها ابن زياد لواذاً، وصاح بشرطته فتحاوموه وتمكّنوا من تكتيفه، وهو يتّهم المجاهد الجريح بأنّه من الخوارج، بقوله: «أحروري ساير اليوم قد حلّ لنا دمك. جرّوه فألقوه في بيت من بيوت الدار، وأغلقوا عليه بابه، واجعلوا عليه حرساً»(٢) وهو في تلك الحالة من الجراح التي صور المؤرّخون وحشية حدوثها.

* * *

يجدر التنويه هنا الىٰ روايتين أُخريين، لم يسعنا تسجيلهما ولعلّهما وجه آخر لما جرىٰ، أو أنّ معناها كان ممّا جرىٰ في سياق الحادث وفصل عنه فصار وجهاً آخر... إنّها ذات معطيات بطولية لرجولة رسالية تمثلت في هانئ.

«قال ابن زياد: يا هانئ، أما تعلم أن أبي قَدِمَ هذا البلد، فلم يترك أحداً من هذهِ الشيعة إلا قتله غير أبيك وغير حجر، وكان من حجر ما قد علمت ثم لم يزل يحسن صحبتك... إلى آخر الرواية التي يدينه بها لإخفاء مسلم، فينفي، فيُخرج الجاسوس، فيؤيّد ذلك ويقول: أيّها الأمير: قد كان الذي بلغك، ولن أُضيع يدك عندي (أي يد أبيه زياد عنده) فأنت آمن وأهلك، فسر حيث شئت»(٣).

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٤، والمصادر السابقة.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/٢٦٩.

و في رواية المسعودي أنّه ردّ عليه بقوله:

«إنّ لزياد أبيك عندي بلاءً حسناً، و أنا أُحبّ مكافأته به، فهل لك في خير؟ قال ابن زياد: ما هو؟ قال هانئ: تَشْخَص الىٰ أهل الشام أنت وأهل بيتك سالمين بأموالكم، فإنّه قد جاء حقّ من هو أحقّ من حقك وحقّ صاحبك(١) (يزيد) فطغىٰ وصاح بجلاوزته وافترس وجه الشيخ بوحشية ضربات القضيب».

أمّا الثلاثة الذين أُرسلوا لاستدعاء هانئ، فإنّ أحدهم غائب أو غيّب نفسه لأمر تأهّب له وهو ابن الحجاج وسنراه كيف سيظهر... أمّا حسان بن أسماء بن خارجة فباعتباره غير مطلع علىٰ الأبعاد، ولشعوره بأنّه شارك باستدعاء هانئ فهو قد ساهم في الغدر به، بل هم الثلاثة غدروه، إذ انتقد إجراءً دامياً كهذا يخشىٰ نتائجه علىٰ نفسه وصاحبيه، فقال: «أَرُسُلُ غَدْر ساير اليوم؟ أمرتنا أن نجيئك بالرجل حتىٰ إذا جئناك به هَشَمت أنفه ووجهه، وسيّلت دماءه على لحيته، وزعمت أنّك تقتله!! فقال له: و إنّك لهاهنا(يبدو أنّه فوجيء به ولم يحبّ محضره) فأوعز لشرطته به «فلهز وتعتع وأُجلس ناحية»(٢). «فضُرب حتىٰ وقع لجنبهِ، فحُبِسَ في ناحية من القصر وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، الىٰ نفسي أنعاك يا هانئ»(٣).

بينما قام ثالث الثلاثة محمد بن الأشعث ليقول بصوت يسمعه سيّده: «رضينا بما رأىٰ الأمير، لنا كان أم علينا! إنّما الأمير مؤدّب!!»(٤) إنّه جواب من يسجد للسطوة والسوط وسيف السلطان، وهو مجرّد نموذج لأجلافٍ لا

---

(١) مروج الذهب: ٦٣/٢.

(٢) الإرشاد للشيخ المفيد (ره): ص ٢٠٩- ٢١٠.

(٣) الفتوح لابن أعثم: ٨٤/٥.

(٤) الإرشاد: ص ٢١٠ و غيره.

يميّزون بين مالهم وما عليهم، فينظرون للحاكم نظرتهم للرب مهما كانت مشيئته ومهما كان القدر، وكثير في الكوفة من أشباه هذا ـ أعيان أو عوام ـ ممن هانت عليهم ضمائرهم فباعوها بثمن بخس دراهم معدودة.

المبعوث الحسيني «مسلم بن عقيل» يرقب عن كثب أخبار هانئ. إذ بعث «عبدالله بن حازم»(١) لذلك فهو ينتظر رسوله الذي يتسنّى له أن يتنسّم الخبر سريعاً.

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٥.

الباب الخامس

المواجهة الفاصلة بين الضرورة و الاضطرار

لم يكن في نيّة الطرفين القيام بمواجهة ميدانية فاصلة، لأن السلطة ـ من جهتها ـ ليس بمقدورها القيام بردّ فعل مسلّح فاصل تجاه التكتل، إلا اذا وصل جيش الشام ليضمن إحراز التغلّب، ونعتقد أن الاستنجاد بقوة عسكرية من الشام كان أمراً مفروغاً منه آنذاك ، سواء أرسل الوالي طلبه أو لم يرسله بعد. ثم إن عاهل الشام دبّر حملة جاهزة للتنفيذ بتقدير طلب الوالي لها، أو بتقدير وصول الامام سبط الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم» وافلات زمام الكوفة من قبضة الأمويين. فالحكومة المحلّية ـ من جهتها ـ غير مستعدة لمواجهة عسكرية فاصلة، أما الحركة فهي ـ من جهتها ـ كما قلنا في «مقدمة الباب الثالث» قد صبّت جهودها في التحضير والاعداد للمواجهة الميدانية، علماً أن عمر الإعداد والتحضير يتطلّب وقتاً كافياً، لحاجته ـ على أقل تقدير ـ الى عدة أشهر متوالية، في حين وقع «اختطاف» المجاهد هانئ في عصر اليوم السادس أو السابع من شهر ذي الحجة لنفس العام ٥٩هـ،

وبذلك تكون الحركة قد قطعت أقصر مدة زمنية ـ قرابة الشهرين ـ وهي فترة اقامة المبعوث الحسيني بالكوفة، إنها فرصة قصيرة لا تتكفل تغيير نفوس الجمهور

في عصر اليوم المذكور آنفاً، خضعت الأوضاع الى ارتباك أسفر عن إحراج قادة الحركة، مما اقتضى بدء التحرك الاضطراري، كحالة استثنائية، لا طبق التخطيط المطلوب، ولا وفق التوقيت المرجو، فهي مواجهة ليست وليدة قرار مسبق.

الفصل الأوّل

حملتان عسكريتان علىٰ القصر

كلمة «جيش الشام» لها اكثر من معنىٰ و مدلول في روع الناس، واستعمال التهديد بها يكاد يفي بكثير من الأغراض الارهابية، لأنه يعني القتال بلا قيم أو قوانين، وانتهاك الأعراض والحرمات والسرقة وهدر الدماء وازهاق الأرواح المسلمة، ولا يرقبون فيهم إلّاً ولا ذمّة.

الحملة الأُولىٰ ـ لعبة مدبرة:

«أنا عمرو بن الحجاج، و هذهِ فرسان مذحج و وجوهها لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة، وقد بلغهم أنّ صاحبهم قُتل، فأعظموا ذلك». وقد «أحاط بالقصر، ومعه جمعٌ عظيم»(١).

بذلك تكلّم القائد الذي فرض نفسه على القبيلة ليقودها، مغتنماً فرصة غياب زعيمها وباسمه يتظاهر بالدفاع المخلص عنه، مبدياً إهتماماً زائداً بمصيره تدفعه لذلك الغيرة والمروءة والحميّة ـ كما يوحي ـ... إن القوة العسكرية الوحيدة القادرة علىٰ قلب السلطة رأساً على عقب هي قبيلة

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٧٤/٤، والإرشاد: ص ٢١٠.

مذحج، ذات النفوذ السياسي والهيبة العسكرية في الاقليم، بيد أنّ تحركها الحالي آلَ الىٰ قيادة رجل آخر غريب علىٰ أصالة قيادتها السابقة... إنّ مذحج بقيادة ابن الحجاج الزبيدي تضرب طوقاً حول قصر الإمارة، وقد تعالت أصوات الناس المحتشدين.

أمّا ابن زياد الذي لم تظهر عليه أية ردود فعل تستحقّ الذكر من قبل الرواة والمؤرّخين، فقد أوعز الىٰ أحد أزلامه «شريح القاضي» بقوله: «أُدخل علىٰ صاحبهم فانظر إليه، ثمّ اخرج فأعلمهم أنّه حيٌّ لم يقتل، وأنّك قد رأيته»(١) هكذا ببساطة وعدم اكتراث وهي حالة مهمّة في سياق تحليل الموقف بعد قليل... قام «القاضي شريح» بدورهِ المتواطئ، إذ ساهم بوظيفة تضليل جمهور مذحج، ومن الضروري هنا تسجيل نصّ ما رواه هو عن لقائه بهانئ:

«قال: دخلت علىٰ هانئ، فلما رآني قال: يا لله،يا للمسلمين! أهَلَكَتْ عشيرتي؟ فأين أهل الدين، وأين أهل المصر! تفاقدوا؟! أيُخلّوني وعدوّهم، وابن عدوّهم؟ والدماء تسيل على لحيته، إذ سمع الرجّة علىٰ باب القصر... وخرجت واتبعني فقال: يا شريح إنّي لأظنّها أصوات مذحج، وشيعتي من المسلمين، إن دخل عليّ عشرة نفرٍ أنقذوني. فخرجت إليهم ومعي حميد بن بكر الأحمري أرسله معي ابن زياد وكان من شرطته ممّن يقوم علىٰ رأسه، وايم الله لولا مكانه معي، لكنت أبلغت أصحابه ما أمرني به»(٢). بيدَ أن كل القرائن السلوكية لهذا القاضي تكذّب نيّته في إبلاغ أصحابه، لكنّه قالها -فيما بعد- عساه ينجو من نقمة أفراد مذحج، وليستر علىٰ عاره في دورهِ المتواطئ مع

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٤، والارشاد: ص٢١٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٤.

الظالمين. وكان هذا القاضي عديم التقوى، يحذّره هانئ نفسه حين يرجوه أن ينصف الموقف، وفي رواية أنّه قال: «يا شُريح إتّق الله فإنه قاتلي»(١) يحذّره من التمادي في السير في ركاب الحاكم الظالم.

في رواية أُخرى مفادها أنّه قال: «يا شريح قد ترى ما يُصنع بي!» أي قدّر خطورة الموقف عليَّ رجاء قول الحقيقة، والنطق بالحق بوصفه قاضياً يفترض فيه العدالة وإدراك الأُمور، لكنّه تغافل بالقول: «أراك حياً» فأنكر عليه المجاهد الجريح واستنكر منه تجاهله: «وحيٌّ أنا، مع ما ترى؟!» ثمّ حمَّله أمانة إبلاغ رجاله بخطورة مآلِه، بقوله: «أخبر قومي، بأنّهم إن انصرفوا قتلني» لكنّه لم يفعل، وقال لابن زياد «قد رأيته حياً، ورأيت أثراً سيّئاً» يقصد جراحه الدامية، فأسكته بالقول: «وتنكر أن يعاقب الوالي رعيته، أُخرج الى هؤلاء فأخبرهم» فمضى يضلّلهم ويدفعهم قائلاً... «ما هذهِ الرعة السيئة (يعيب تحشدهم) الرجل حيّ وقد عاتبه سلطانه بضربٍ لم يبلغ نفسه فانصرفوا، ولا تُحلّوا بأنفسكم ولا بصاحبكم»(٢).

فتظاهر عمرو بن الحجاج الزبيدي بانتهاء المهمة، متعجّلاً أن لا يبادر من قد يطالب بالبقاء حول القصر حتى إخراج هانئاً بالقوة والهجوم داخله عنوة، فتفسد كل التدابير وتنقذ حياة الزعيم هانئ فعلاً... لذلك عجّل بإصدار أمر الإنسحاب فوراً وفكّ الحصار من حول القصر بقوله «أما إذا لم يقتل فالحمد لله» وانصرف لينصرفوا تحت قيادته... هكذا انسحبت قطعات جيش القبيلة.

* * *

(١) حياة الإمام الحسين للعلّامة الشيخ القرشي: ج٢ هامش ص٣٧٧.

(٢) تاريخ الطبري: ٢٦٩/٤.

دلائل كونها مؤامرة:

كما نوّهنا، يبدو لنا برؤية واضحة، أنّ تلك العملية العسكرية لمحاصرة القصر والإنصراف من حوله، ليست عملية ارتجالية انفعالية أو عفوية، وليست وليدة نيّة صادقة في تحرك قيادتها وأهداف تحريك مذحج،... إنّما هي مخاض تفكير تآمري خطّط للإطاحة بهيبة المجاهد هانئ بن عروة، وتطويق قدرة قبيلته. خطّط لها مع ابن زياد أحد أهم صنائعه المدعو «عمرو بن الحجاج» الذي يتمتّع بعلاقة قربىٰ مع المجاهد هانئ، بَرَع في استغلالها واستثمارها، باستدعائه للقصر أولاً، وبتظاهره أنّه يغضب له ويقود القبيلة من أجله ثانياً. فنجح ابن الحجاج بمحاولة احتواء مذحج، إحتواءً كاملاً بما فاجأهم به من أن زعيمهم قُتل، فجمعهم وأحكم قبضته عليهم، وتحكّم بسلوكهم فهم تبعاً له كمخلص غيور في ظنّهم، بحيث إذا قال قالوا، واذا تحرّك تحرّكوا، وإذا رابط حول القصر رابطوا، وإذا انسحب وحمد الله انسحبوا وحمدوا.

وإلا فمن غير الممكن لقبيلة كبيرة ـ ذات مركز مرموق في الإقليم ـ أن تتساهل بشأن اعتقال سيّدها وقائدها. غير أنّ ذلك يفصح عن مدىٰ تحكّم ابن الحجاج بها ومبلغ احتوائه لها. ولا يعزب عنّا كون زياد بن أبيه نفسه كان يحسب لنفوذ مذحج ألف حساب وحساب، لشدّة خشيته منها، تحت قيادة هانئ أو والده عروة من قبل. ولذلك اتفق ابن زياد مع ابن الحجاج لاحتواها وتذليل شوكتها، إذ لابدّ من أنّها ستنتفض بتحرّك مرتقب لا يؤمن جانبه ولا تحمد عواقبه، فتمّ الاتفاق علىٰ جعل ما لابدّ منه مقيّداً بيدهم مرهوناً بهواهم، دون إدراك جمهور مذحج للأمر فينفرط الأمن... وثمّة نقاط متعددة نذكرها فيما يلي تأكيداً لحالة التخطيط التآمري المسبق:

١ ـ لم يحضر ابن الحجاج الحوار ـ الذي دار بين المجاهد هانئ والوالي ـ حتى نهايته العدوانية الدامية، لنحصل له على تعقيب كتعقيب صاحبيه: حسّان بن أسماء، ومحمد بن الأشعث. وإنّما بادر للخروج لكي لا يتسرّب خبر هانئ إلى مذحج قبل احتوائه لها فتتحرّك غاضبة بقيادة غيره، فترك القصر باتفاق مسبق مع الأمير.

٢ ـ عدم تخوّف ابن زياد من القبيلة، حينما هدد هانئ بالبارقة، ألغى قيمتها «... أبالبارقة تخوّفني!» وأنّى له هذا الاطمئنان من خطرها لولا ذلك الضمان. ثمّ أنه هجم عليه أعزلاً مكتوفاً فأدماه بكثرة الجراح، وهذا ما لا يفعله حاكم سياسي قبل اتخاذه الإجراءات الإحترازية الواقية لعاقبة فعله.

٣ ـ حين حوصر القصر بجحافل مذحج، لم يقلق ابن زياد أو يرتبك، وبهدوء أوعز للقاضي القيام بدوره، مطمئناً بإنهاء المحاصرة وسحب قطعات القبيلة بعد سماع موعظة القاضي ـ حسب الإتفاق مع ابن الحجاج ـ.

٤ ـ ثمَّ إنّ السلطة التي لا تشكّ بسخط مذحج قط، لم تقم بإحضار قوة عسكرية ـ ولو محدودة رادعة ـ لحفظ القصر من هكذا طوارئ مؤكّدة.

٥ ـ نلمس من ابن الحجاج الزبيدي عدم الحزم في المهمّة التي ادّعى حرصه ذاتياً عليها، فلو كانت المسألة كامنة بالسؤال عن هانئ، فهذا مالا يعجز عنه بمفرده ومتاح له سؤال الأمير عنه، أوَليس هو نفسه الذي استدعى هانئاً للقصر قبل ساعة ليعقد للأمير لقاءً معه. فلماذا يضطر لتحشيد مذحج لفهم مسألة متاح له أن يتناولها مع الأمير مباشرة، وينقلها لمذحج؟

٦ ـ إستنفر الزبيدي مذحجاً بدعوى مقتل هانئ فأثار حفيظتهم، وهو يعلم أنّه مازال حياً، وانما أعلن لهم انه قُتل فلكي يضمن احتواؤه لهم بفعل هذهِ المفاجأة الصادمة، ثم لكي يظهر بلباس الإخلاص لهانئ والحماس لعز القبيلة، فيتسنى له التحكّم بهم، محققاً هدف امتصاص غضبهم حيال

السلطة، وتدبير سلب معنوياتهم ورهن تحركاتهم بيده وتقييدها بأوامره المرضية لدىٰ الحكومة.

٧ ـ لو كان بعمله مخلصاً، فما المانع بالمطالبة ـ نيابة عنه وعن حشود مذحج ـ بإخراج هانئ ليأتي معهم، وهو أمر سائغ، ومطلب لا يغيب عن عقل وقلب قائد صادق... لكنّ المانع ماثل في أنّه خلاف أهداف المؤامرة طبعاً، التي تستهدف القضاء علىٰ هانئ وإحباط الحركة الكوفية.

٨ ـ لقد تجاهل الزبيدي العامل الفاعل لاعتقال هانئ، متجنّباً التعرض الى أصل الموضوع، وفيه تكمن خطورة مصير هانئ، ومنه يمكن إنقاذه بالإصرار علىٰ إطلاق سراحه، فالزبيدي تظاهر أن القضية تتعلّق بمجرد خلافات شخصية بين النفرين ـ هانئ والوالي ـ فقط، بحيث لا تستحق أي جهد أو تحقيق، فهو أقرّ للأمير حقّ إبقاء أي شخص في القصر بحجّة التفاهم حول الخلافات الشخصية. والحال أنها قضية عظيمة ذات أبعاد كبيرة لكونها فوق الخلاف الشخصي، وتتجاوز مَنطق الموقف القبلي وحده، كون القضية نابعة من منطق الصراع العقائدي الذي يريد تقرير مصير البلاد والعباد، الأمر الذي تغاضىٰ عنه ابن الحجاج متعمّداً.

٩ ـ لم يتصل الزبيدي بمسلم بن عقيل الذي يهمّه مصير هانئ، لينجح بالثأر له إن كان مقتولاً أو ليفلح بإنقاذه إن كان سجيناً. لكن الإتصال بمسلم وباقي الأقطاب خلافاً للتدبير الرسمي للخطة، رجاء أن يتوارىٰ مسلم ورفاقه أو يلجأوا للهرب حسب ظنّ السلطة.

١٠ ـ بعد انصرافهِ بمذحج، ألقىٰ ابن زياد خطاباً تخويفياً لعموم الناس، ولم يمسّ الزبيدي أو بخطأه ولا ذكر مذحج بشيء سلبي أو إيجابي لحسّاسية الموقف حيال المذحجيين، إذ قد تثار حفيظتهم فيفسد التدبير إذ يفلت من يد الزبيدي.

١١ ـ خلاصة المهمّة التي أدّاها ـ فضلاً عن امتصاص الغضب وتعطيل طموح القبيلة وتطلّعها ـ أنه قام بترسيخ الثقة بالسلطة حين أورد قوله: «لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة...» تأكيداً لمذحج على أن تكون رهينة الطاعة، متمسّكة بالجماعة المتجسّدة بهذهِ السلطة ـ كمايوحي ـ وبعد موعظة القاضي قام بترسيخ التصديق بالقصر الذي يعرف تكاليفه «الرسمية» ازاء هانئ، وبذلك فقد هيّأ قبيلة مذحج للرضوخ لما سيكون ـ من حيث لا تدري ـ.

١٢ ـ رأينا ابن الحجاج لم يعمل شيئاً قطّ، حين أُخرج المجاهد هانئ ـ بعد ثلاثة أيام تقريباً ـ ليُعدم في أحد الأسواق، كما لم ينتقم له ولا استنكر قتله ـ مجرد استنكار ـ، وماسمح لأحد من قبيلته بالتحرّك، حرصاً منه على الطاعة والجماعة!!

١٣ ـ و من المعلوم أن ابن الحجاج الزبيدي هو أقرب الى السلطة منه الى الحركة، وأدنى الى الوالي منه الى هانئ، كونه وجه من الوجوه المتملّقة للولاة والسائرين في ركابهم (الأمر الذي يفسّر جهله بأسرار بيت هانئ رغم الرحم الماسّة القائم بينهما، فهو جاهل بالمقرّ حتى كشفه الجاسوس) والمذحجيون اعتقدوا ان ابن الحجاج قد تمرد ضدّ صديقه الوالي بروح الحمية النبيلة المعهودة لدى العرب النبلاء في هكذا حالات من الاعتداء على أمثال شخص كهانئ.

١٤ ـ و أكثر من ذلك كلّه، فعمرو بن الحجاج الزبيدي هو أحد قادة ابن زياد ـ بعد أيام لاحقة ـ لحرب ريحانة الرسول بكربلاء، إن هذا وأمثاله لم يقع عفواً أو صدفة.

و لقد استهدف العدوّ ـ من تحريك مذحج وارجاعها طائعة ـ تذليل رقاب كافة القبائل الأخرى وسلب معنويتها كي لا تقوم للحركة الشعبية قائمة، متصوّراً حصر قوة «مسلم» بإقصاء هذه القبيلة، لأنّ قصارى ما أعدّه من

رجال هم ـ كما يظن ـ من مذحج التي أمست خاضعة مستسلمة.

الحملة الثانية- التحرك الإضطراري للمبعوث:

عاد المجاهد «عبدالله بن حازم» بخبر هانئ إلىٰ مسلم الذي أمره بتنسّم الخبر، يقول ابن حازم: «أنا والله رسول ابن عقيل الىٰ القصر لأنظر إلىٰ ما صار إليه أمر هانئ. فلما ضُرب وحُبس ركبت فرسي، وكنت أول أهل الدار قد دخل علىٰ مسلم بن عقيل بالخبر...»(١).

و بعد؛ فليس هناك موقفاً ثالثاً لموقفين أمام مسلم:

أولاً: إمّا القعود لعدم استكمال القدرة المعنوية والمادية للتحرك، سيّما والإمام الحسين «عليه السّلام» لم يأتِ بعد، وهذا غير ممكن ولا يكون، فمن الصعب علىٰ شخص كالمبعوث مسلم أن يسكت أمام تجاوز الوالي على هانئ وتعرض الحركة لتهديد مباشر.

ثانياً: و إمّا التحرّك بفعل الضرورة و الإضطرار، مكتفياً بمن سيثبتون معه، وهو أمر لابدّ منه ولا محيص عنه، فما عساه لو امتحنهم وابتلاهم في موقف فرضته المفاجئات المحرجة في هذهِ الساعة العصيبة، وكان هذا هو الخيار الوحيد فعلاً.

فأوعز الىٰ «عبدالله بن حازم» و غيره ليرفعوا للناس نداءهم المتفق عليه «يامنصور أمت، فناديتُ: يامنصور أمتْ، فتنادىٰ أهل الكوفة، فاجتمعوا إليه»(٢). في حشود كبيرة قرب دار هانئ، ومقر مسلم الذي راح يوزع

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٥. والجدير بالذكر أنّ ابن حازم بهذا ممن شارك بثورة التوّابين ـ التي قادها فيما بعد سليمان بن صرد الخزاعي ـ مما يوحي أنّه اختفىٰ أو سُجن في أعقاب الأحداث الجارية، والنصّ مرويٌ عن لسانه.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٥. علماً أنّ «يا منصور أمت» كان شعار المسلمين يوم بدر، كما جاء ←

الألوية العسكرية على القادة الذين جعلهم وفق تقسيم نقتضيه التعبئة.

إذ عقد للمجاهد «عبدالله بن عزيز الكندي» لواء الخيل من ربع كندة وربيعه وقال له: سِر أمامي... ثمَّ أسند قيادة ربع مذحج وأسد للمجاهد «مسلم بن عوسجة الأسدي» وقال له: إنزل في الرجال فأنت عليهم. فيما أسند قيادة تميم وهمدان الى المجاهد «أبو ثمامة الصائدي». كما أسند للمجاهد «عباس بن جعدة الجدلي» قيادة ربع المدينة(١).

وتحركت الألوية الأربعة تحت إشراف القائد الحسيني مسلم بن عقيل، الذي تقدم وهو ينتظر تهيئة لواء بقيادة المجاهد «المختار بن عبيدة الثقفي» ولواء آخر بقيادة المجاهد «عبدالله بن الحارث بن نوفل» وهما في حالة الإعداد للإلتحاق من الأطراف البعيدة للكوفة.

و إذ تتجه الألوية بقيادة مسلم نحو قصر الحكم، فإنّ هناك من تراجع فهبط العدد وما لبث أن ارتفع(٢) غير أن الوقت الذي تقدم فيه القائد الحسيني بعسكره الى هدفه، كان ابن زياد يخطب فيه بالناس مطالباً إياهم بالطاعة له ـ تعقيباً على حملة مذحج ـ محاطاً بالشرطة والأشراف والحشم:

«أما بعد يا أهل الكوفة، فاعتصموا بطاعة الله و رسوله، و طاعة أئمتكم ولا تختلفوا، ولا تفرّقوا فتهلكوا، وتندموا وتذلّوا وتقهروا، فلا يجعلن أحد على نفسه سبيلاً، وقد أعذر من أنذر»(٣) وما لبث حتى اضطرب لسماع إنذار العيون

في (مقتل الحسين «عليه السّلام»») للمقرّم: هامش ص١٦٠ عن السرخسي في شرح السير الكبير. وجاء أنّ «منصور» إسم رئيس الملائكة الذين نزلوا في يوم بدرٍ لنصرة النبيّ الأعظم «صلّى الله عليه وآله وسلّم».

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٥.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الفتوح لابن أعثم: ٥/٨٥-٨٦، وباقي المصادر باختلاف يسير.

والنظارة وهم يهرولون وينادون:

«قد جاء ابن عقيل، قد جاء ابن عقيل»(١).

«الحذر الحذر هذا مسلم بن عقيل قد أقبل في جميع من بايعه»(٢).

فسارع ابن زياد للتخلّص بالدخول الىٰ القصر من الباب المشترك مع المسجد، وأوصد الأبواب عليه وعلىٰ من معه، من الشرطة والأشراف ـ أي الأعيان ـ وكانوا خمسين نفراً... وأُحيط القصر رويداً رويداً فضُرب بحصار شديد من الحشود حتىٰ امتلأ المسجد أيضاً والسوق المجاور. وظهر عليهم ما لم يظهر على رجال الحملة الأُولىٰ المنسحبة، فهؤلاء قاموا ـ خلافاً لأُولئك ـ بما يلي:

«يُكبّرون الله، ويتوثّبون وأمرهم شديد...»(٣).

«نشروا الأعلام، وشهروا السيوف»(٤).

«وقد ارتفعت أصواتهم بقذف ابن زياد وشتمه ويلعنون أباه»(٥) وظلّ الناس يشتمون ويسبّون، وهي ظاهرة تدلّ علىٰ الميل لإرواء روح النقمة، وإشباع غريزة الإنتقام، والتشفّي من خصمهم في فرصة ينبغي فيها تأكيد صلب الأهداف، ورفع هتافات من صميم القضية المعنيّة.

أثناء الحصار الشديد، حدثت مصادمات، بين أنصار الحركة وأنصار الحكم، فوقعت مواجهات طارئة حسمها المبعوث مسلم بإسناد قوة من المسجد تحت إمرة «عبدالرحمن الشبامي»(٦) الذي وضع حدّاً لمؤيّدي السلطة وفرض

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٥.

(٢) الفتوح لابن أعثم: ٥/٨٦.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٧.

(٤) الفتوح لابن أعثم: ٥/٨٦.

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٦.

نفوذاً في طرف من المنطقة. بينما روي أنّ قتالاً عنيفاً وقع في أحد الأطراف «إختلط القوم، فقاتلوا قتالاً شديداً»(١) عَكَسَ مدىٰ الحماس القوي في ميول العناصر المتشابكة في القتال الخاطف الذي لم تُذكر طبيعة الخسائر فيه.

من المعلوم أنّ إخضاع القصر بمن فيه لايتم خلال ساعة من الحصار، كما أنّ وقت النهار يكاد ينتهي، والهجوم علىٰ القصر الضخم البناء الذي أوصد ابن زياد أبوابه الكبيرة بشكل محكم، لا يسفر عن نتيجة نافعة، إنّه كالهجوم علىٰ الصخر(٢). فلابدّ إذن والحالة هذهِ من المحاصرة المستمرة التي قد تطول أياماً حتىٰ يستسلم من فيه مثلاً، أو يسلّموا هانئ علىٰ أقل تقدير.

حرب الإشاعات:

ظهرت في هذهِ الحملة مخاوف واضحة للعدو، و أسفر هذا الحصار عن ارتباك وقلق واضطراب ملحوظ علىٰ ابن زياد، خلافاً للحملة المدبّرة الأُولىٰ. فحينما كان يخطب وسمع بمجيء المبعوث الحسيني «دخل القصر مسرعاً وأغلق أبوابه»(٣)، «فلما بلغ ابن زياد إقباله تحرّز في القصر وغلّق الأبواب». وطال به التحرّز والقلق، فاقترح عليه أحد الأعيان «كثير بن شهاب» قائلاً: «أصلح الله الأمير، معك في القصر ناس كثير من أشراف الناس، ومن شرطتك، وأهل بيتك ومواليك فاخرج بنا إليهم. فأبىٰ عبيدالله»(٤) دليلاً علىٰ مبلغ خوفه

---

(١) الفتوح لابن أعثم: ٨٦/٥.

(٢) كان القصر مشيّداً بمتانة بالغة، تحكي ذلك انقاضه الموجودة لحد الآن، رغم مرور ألف وثلا ثمائة وخمسين عاماً على تشييده، ويكفي أن نتصور كون جدار القصر من القوة والسعة بحيث تتمكن الشاحنات من السير فوقه.

(٣) الطبري: ٢٧٥/٤.

(٤) تاريخ الطبري: ٢٧٦/٤.

وارتباكه.

لكنّه توصّل مع الآخرين الىٰ فكرة تفريق الناس من حول القصر بطريقة تخويفية واسلوب إرهابي لبث الشائعات الكفيلة بأداء الحرب النفسية وحرب الأعصاب الارهابية لسلب طاقاتهم والطعن بمعنوياتهم... فدعا كثير بن شهاب ليخرج من القصر، ويسير بالكوفة فيمن أطاعه من مذحج «ليخذّل الناس عن ابن عقيل ويخوّفهم الحرب ويحذّرهم عقوبة السلطان» وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج» فيمن أطاعه من كندة وحضرموت فيرفع راية الأمان لمن جاءه من الناس» وقال مثل ذلك للقعقاع بن شور الذهلي وشبث بن ربعي وحجّار بن أبجر وشمر بن ذي الجوشن «وحبس سائر وجوه الناس عنده استيحاشاً إليهم لقلّة عدد مَن معه مِن الناس»(١).

إستطاع أُولئك من الخروج من القصر بحجة حبّ النجاة والسلامة، أو ضيق خناق القصر، بينماهم ذهبوا لجمع أتباعهم ولترويج أنباء من شأنها أن تفتّ في عَضُد الناس جميعاً، سيّما نبأ قرب وصول جيش الشام وحلول الحرب، عقاباً من السلطان عليهم... وكلمة «جيش الشام» لها أكثر من معنىٰ ومدلول في روع الناس، واستعمال التهديد بها يكاد يفي بكثير من الأغراض الارهابية، لأنّه يعني القتال بلا قيم أو قوانين وانتهاك الأعراض والحرمات والسرقة وهدر الدماء وازهاق الأرواح المسلمة، ولا يرقبون فيهم إلّاً ولا ذمّة. لذلك كانت ترعب نفوسهم، كما كان العدو يستعملها في مواطن تشديد العقاب العام بلا احترام لقيم العروبة أو الإسلام:

«أيّها النّاس، إلحقوا بأهليكم، ولا تعجلوا الشر، ولا تعرّضوا أنفسكم للقتل، فإنّ هذهِ جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت، وقد أعطىٰ الله الأمير عهداً

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٦.

لئن أتممتم على حربه، ولم تنصرفوا من عشيّتكم أن يحرم ذرّيّتكم العطاء، ويفرّق مقاتلتكم في مغازي أهل الشام على غير طمع، وأن يأخذ البرئ بالسقيم، والشاهد بالغائب، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المعصية إلا أذاقها وبال ماجرّت أيديها»(١).

وبهذا المعنى كان الأعيان يتكلّمون، وهم يطلّون من أعلى القصر على النّاس المحتشدين، فيوحوا لهم ضعفهم ومسكنتهم مقابل قساوة و وحشية جيش الشام «ياأهل الكوفة، إتّقوا الله ولا تستعجلوا الفتنة، ولا تشقّوا عصا هذهِ الأُمة، ولا توردوا على أنفسكم خيول الشام، فقد ذقتموها وجرّبتم شوكتها»(٢). إذ طالب ابن زياد الأعيان بقوله: «أشرفوا على التاس، فمنّوا أهل الطاعة الزيادة والكرامة، وخوّفوا أهل المعصية الحرمان والعقوبة، وأعلموهم وصول الجنود من الشام إليهم»(٣).

بنحو هذا المعنى كانت الأحاديث تسري في الصفوف وسط حشود الحصار، إبتدأها المغرضون والمناؤون والمنافقون بتوجيه من الوجوه والأعيان الذين راحوا يتجولون فيمن أطاعهم لتخذيل الناس عن الثبات على الحق... فإذا كانت دوافع حضور الكثيرين هي النقمة والتنفيس عن انفعالاتهم ضدّ الأمويين وتأمين كرامتهم وعطاءاتهم، فمن الطبيعي أن يكون للتهديد مردود سلبي عليهم لسوء ما ينتظرهم في أرزاقهم وأمنهم ومستقبلهم ممّا جاءوا لأجله... أما الذين بايعوا على تلك المعاني، فأحرى بهم ـ لو استوعبوا معانيها بقلوبهم ـ أن يثبتوا ما ثبت قادتهم في وسط الساحة.

---

(١) الطبري: ٤/٢٧٧، وابن أعثم: ٥/٨٧.

(٢) حياة الامام الحسين، للشيخ القرشي: ٢/٣٨٤.

(٣) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٧.

عدوى الإشاعات:

سرت، إذ وجدت الحرب النفسية أرضاً خصبة لها في صفوف الحصار، وبلهجة الصراحة وبنحو من الجدّية يقول الضعفاء بعضهم لبعض: «ما نصنع بتعجيل الفتنة، وغداً تأتينا جموع أهل الشام؟ ينبغي لنا أن نقعد في منازلنا، وندع هؤلاء القوم، حتى يصلح الله ذات بينهم»(١).

أيُّ منطق هذا؟! فقد هانت قضيّتهم بحيث هبطوا بها الى مستوى نزاع طارئ و «سوء تفاهم» فيما بينهم ـ الحكام والثوار ـ يرجون لهم أن «يُصلح الله ذات بينهم!!» بل ـ وهو الأنكى من ذلك ـ قاموا بعفوية اقتضتها روح التهرّب وإبداع المعاذير، أو بقصد من عناصر مغرضة، بعملية تحويل الصراع العادل بين الحكم والمعارضة الى مجرد تنافس على استلام السيادة والسلطة، فهانت عليهم الروح الحركية المتوثّبة، وضعف ارتباطهم المعنوي بقادة المعركة، حين تردّد بين ظالمي أنفسهم القول: «ما لنا والدخول بين السلاطين»(٢) إذ راح بعض الحاضرين يفهم المشكلة على أنها مجرد خلاف وقع بين الوالي وهانئ، لا يسوغ تحمّل تبعاته من قبل الناس إنه جانب من منطق المغرضين أو لغة المتهاونين، وهكذا انطمست المعاني العميقة للمعركة، إذ غاب جوهر الصراع وأصل الخلاف. فكيف لا تنهار الهمم، وتندحر العزائم، ويبدأ التسلّل خارج الحصار فيتّسع الإنسحاب الفردي، وقد تظافر لإنجاز ذلك عدّة عوامل مساعدة.

العوامل المساعدة لفاعلية الاشاعات:

للمرأة هنا دور سلبي كبير على الرجال، فكما تستطيع صنع النصر أحياناً،

---

(١) الفتوح لابن أعثم: ٥/٨٧.

(٢) حياة الإمام الحسين «عليه السّلام»: ٢/٣٨٥.

فإنّها تستطيع تكوين النكسة كما هي عليه في هذا الموقف، تأتي الأُم والأُخت والزوجة تخترق الحصار بحثاً عن ولدها أو أخيها أو زوجها أو عنهم جميعاً، تتعثر مضطربة حتىٰ إذا ما لَقِيَته أمسكته فكلّمته برجاء وتوسّل: «إرجع الىٰ البيت، الناس يكفونك»(١) وقد يتأثر فيتظاهر بإرجاعها فيذهب ولا يعود، وربما ذهبت المرأة الىٰ صُويحباتها وجاراتها لتحثّهن علىٰ القيام بمثل ماقامت به من صرف رجالها، مُبدية لهن نصحاً ومهارةً وشطارة، فيقتدين بها فيكثرن عدداً، وهكذا دواليك: «كانت المرأة تأتي إبنها أو أخاها، فتقول له: إنصرف فالناس يكفونك»(٢).

اسلوب توسل النساء برجالهن، يُعدّ من أخطر الأساليب التي قدمت للعدوّ -بهذا الموقف- خدمات لم يكن يحسب لها أيّ حساب دون أن يشعرن، وهذا من مواطن ذمّ النساء. اذ لعبت العاطفة الساذجة دوراً حسّاساً، وكما سبق أن لعب الحماس المتأجّج بالرجال دوره البالغ، فإنهم ابتدؤا بتلك الحماسة وانتهوا بهذهِ العاطفة.

«الناس يكفونك» أي ليس لوجودك كفرد واحد قيمة أو وزن يُذكر في الساحة، إنّه منتهىٰ الإستصغار لدور الأفراد، ومنتهىٰ الإهانة للقوىٰ الفردية حينما تتظافر وقد ظهر الرجل نفسه قاصراً في ملكة تقييم عطاء دورهِ الفردي الفاعل في الساحة لوحدهِ.

«الناس يكفونك» إلغاء التكليف بتأكيد منطق الإتكالية علىٰ الغير في تقرير المصير، وهو اتجاه اللامبالين واللامباليات في تجاوز الضوابط والمتبنّيات، فحرصوا على الحياة عشقاً للخلود فيها -ولا خلود بها-. وإذا استحوذت الروح

---

(١) البداية و النهاية: ٨/١٥٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٧.

الإتّكالية في نفوس جمهور من النساء والرجال، فإنّه ـ وكقاعدة ـ لابدّ أن يستسلموا للعبودية كمصير، وللإضطهاد كمستقبل تعيس.

تلك الظاهرة الإنهزامية تجاوزت الىٰ الرجال تأثّراً بسذاجة الموقف «ويجيء الرجل إلىٰ ابنه أو أخيه فيقول له: غداً يأتيك أهل الشام، فما تصنع بالحرب والشر؟ إنصرفْ، فيذهب به»(١) هكذا تنقّلت عدوىٰ الدعايات، وانتشرت معاني الشائعات، ولعل الإرهاب الصادر من السلطة وأعوانها لم يفعل فعل الإرهاب التلقائي المتنقّل بين الناس. إنّه الإرهاب الذاتي وحرب الأعصاب الذاتيّة التي تشكّل الخطر الداهم دوماً. ولو لا سعتها لما حدثت الهزيمة بتلك السرعة والسهولة، فقد تضعضع الحصار وتفكّك الطوق المضروب حول القصر.

ثمّة ظاهرة سلبية يَسَّرت التفكّك والإنصراف، هي تواجد أعداد متزايدة من أُناس حضروا علىٰ غير موعد، وليس في أعناقهم بيعة، بضمنهم: العرفاء والمناكب، ومحبّو التفرّج والإطلاع، أهل المصالح وأصحاب الأهداف المتباينة والإنتماءات المختلفة، والموالين لبني أُمية والسلطة، وانتشر الذين كانوا قبل قليل يحضرون المسجد لسماع ابن زياد يخطب تعقيباً علىٰ الحملة الأُولىٰ وإدخالاً للخوف في النفوس. فضلاً عمّن دخلوا الصفوف بقصد التفريق أُولئك جميعاً كان محضرهم سيّئاً مُضرّاً ـ بتوجيه أو بتلقائية ـ، حيث إنّهم شجّعوا التراجع بألسنتهم، ومارسوا ـ بالإنصراف طبعاً الىٰ أحيائهم ومنازلهم ـ دور توليد جوّ من التراجع، يحفّز علىٰ المضي والإنصراف لاستبداد هواجس التهديد والإرهاب في القلوب. ثمّ إنّ انصراف قبيلة مذحج عن زعيمها «هانئ» ساعد علىٰ تضعيف الثقة بإمكانية مواجهة السلطة.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٧.

كما أنّ لإقبال الليل وبدء العتمة، دور أتاح للأفراد الإنصراف بدون تحرّج ولا خجل أو استحياء من قبل بعضهم بعضاً.

و من عوامل التدهور المعنوي للحصار، هو حدوث انسحاب مذحج بأمر «عمرو بن الحجاج الزبيدي» وما أفرز الانسحاب من ايحاءات سيّئة على النفوس، فان اللعبة التي أنجزها «ابن الحجاج» كانت توحي للناس الشيء الكثير من دواعي العجز، سيما أن الانسحاب قد وقع قبيل ساعة من هذهِ الحملة التي تحاصر القصر ـ للمرة الثانية خلال عصر يوم واحد فقط ـ فالناس قد شهدوا أقوى قبيلة ذات حجم كبير، وذات اكبر «حُجة» تواجه بها القصر ـ وهي المطالبة بزعيمها هانئ ـ اذا بها تنسحب الى الوراء. فوقع في روع الناس وَهْمُ القوة الحكومية، مع ضعف ثقتهم بامكانية مواجهة هذهِ السلطة بأيّ حال من الأحوال، وبأيّ حجة من الحجج، الأمر الذي غذى نقاط الضعف في النفوس وتغلّبت في أوساط الناس، لتتعزز فاعلية الاشاعات وتفتّ في عضد الجميع... لا لأن انسحاب مذحج قد أحدث فراغاً كمّياً في القوة الشعبية، وانما بسبب ما أحدثه الانسحاب من تفاقم التشكيك بقدرة الوقوف أمام سلطة محلّية تقف وراءها السلطة المركزية.

إن عملية امتصاص غضب مذحج، وفق لعبة القائد الدخيل «الزبيدي» لم تقف عند هدفها فحسب، بل حققت للأمويين مكسباً مركزياً إضافياً يصب في مجرى الأحداث التي أنقذت الوالي والقصر، لتخلق ـ ظاهرة الانسحاب ـ موجة استنزاف نفسي، شلّت فاعلية القوى المعنوية للأفراد والقبائل التي لم تعد ـ كما كانت ـ تملك قدرة الدفاع عن عزّها وعن زعمائها، بأيّ حجة عرفية، أو شفاعة شخصية أو وسيلة مهما كانت حاشدة جماهيرية.

و هكذا أصبحت السلطة فوق الجميع اكثر من ذي قبل، ومستبدة أشدّ من السابق، كما صار الناس أشدّ شكّاً بأنفسهم إذ تبلورت الريبة لديهم، ليتحولوا

الى أجساد خاوية بلا روح،خالية من الارادة.

و استمرّوا يتفرقون، تخاذلت نفوسهم وخارت عزائمهم، يتذرّعون بالخوف، إذ جرّوا أذيال الخيبة الىٰ خسران مبين، لأنّهم لم يستعدوا لحرب جيش يزيد الذي هدّد معنوياتهم. فساء فهمهم لنوعية المعركة عندما أُعلن عنوانها بأنّها صراع لصالح الزعماء، وتنافسٌ للقادة علىٰ دست السيادة، بل لقد غاب عنهم حقّ الرسول وأهل بيته حينما ساء ظنّهم بالله تعالىٰ، فاضطربوا في حيرة حيال دنياهم وما لهم وما عليهم، إحتياطاً علىٰ متاع الحياة الزائلة، فولّوا الأدبار لواذاً، لا يلوون علىٰ شيء وكأن القضية لا تعنيهم أو تخصّهم، وليس لهم أيّ شيء: «قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ، يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ، ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ، يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيء»(١).

(١) سورة آل عمران: ١٥٤.

الفصل الثاني

في ضيافة قصيرة

«فاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ، وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذينَ لا يُوقِنُونَ»(١).

قرآن كريم

الشخصية المتماسكة:

بقي من الرجال نسبةٌ قليلة مع المبعوث الحسيني، المتماسك الشخصية القوي الإرادة الرابط الجأش، بحيث لم يضطرب مقامه أو يتضعضع وقاره، بدليل أدائهِ الصلاة في المسجد الأعظم قبل مغادرة المسجد وترك منطقة القصر نهائياً «وصلّى المغرب، وما معه إلا ثلاثون نفساً»(٢).

نحن نعتقد أنّ في هذا العدد صفوة مؤمني الكوفة ونخبة رجال الحركة، لِتَعذُّر تأخّر غيرهم معه الى هذا الوقت ثم إنّهم اتفقوا ـ ولأسباب أمنية ـ أن يتفرقوا انتظاراً للجولة الحسينية المرجوة بمقدم الإمام «صلوات الله عليه»... ويبدو لنا أنّ المبعوث «مسلم بن عقيل» كان قد أبى الذهاب مع بعضهم أو

---

(١) سورة الروم: ٦٠.

(٢) الإرشاد للمفيد: ص ٢١٢، و تاريخ الطبري: ٤/٢٧٧.

مع أحدهم، متجنباً توريط مجاهد آخر في داره، متعمّداً الإنفراد بنفسه وحده لصرف الأنظار والعيون عنه حتىٰ ينتهي خارج الكوفة.

هذا، و إنّ من شأن العظماء من أُباة الضيم أن يتسامىٰ أحدهم مترفّعاً عن تكليف غيره في تحمّل مشاق إنقاذ نفسه ـ بعد ما أضحىٰ الأمر في هذه الساعة مسألة سلامة شخصية «بنظر مسلم» وليس اكثر ـ إنه يتأبّىٰ أن يذهب ضيفاً مع رجل يسبّب له «مسلم» مخاطر أكيدة في الدرب أو في الدار، وهو يأنف أن يذهب معه رجلٌ يحرسه من الأخطار فيقع الرجل الحارس في الخطر من حيث يريد تخليص مسلم الذي يرىٰ ببأسهِ الشديد ما يكفي لصدّ الخطر، إنّه لا يشعر بضعفٍ يقتضي الحراسة ـ من رجلٍ أو أكثر ـ مما يثير الشكوك حولهم والملاحقة لهم، فيتعرّضون لاشتباكات يجد مسلم نفسه وهو يحرس حُرّاسه مدافعاً عمّن رضي بمجيئهم للدفاع عنه. فإذا كان البطل سيتعرض مثلاً للخطر فلماذا يرضىٰ أن يُعرّض غيره ممن لهم فرصة النجاة والاختفاء أو يمكنهم ادعاء أنّهم لم يكونوا ضمن التحرّك مثلاً ـ كما ادّعىٰ بعض المجاهدين المعتقلين، وسيأتي ـ.

و خرج البطل الطالبيّ من المسجد بمعيّة عشرة من الرجال فقط، لعلّهم أصرّوا علىٰ مرافقته، لكنّه تمكن من تسريحهم بإبائه المعهود وتعفف موقفه الرفيع، فلم يرضَ بأحد حتىٰ انفرد. إنّها روحية عظماء بني هاشم ونفسية أُباة الضيم(١) من روّاد السؤدد، حين لا يرغبون بأن يبتلي بهم أحد أبداً، حتىٰ لو كان من أفراد شباب بني هاشم... ويمضي الشجاع الهاشمي، هذا الزعيم

---

(١) كابن عمّه الحسين العظيم حينما قام بتسريح صفوة صحابته وأهل بيته ليلة يوم عاشوراء، بقوله «... تفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتىٰ يفرّج الله، فإن القوم إنّما يطلبوني، ولو قد أصابوني لهواعن طلب غيري». فأبوا، إذ السيوف مشرعة مع الرماح يومها... النصّ من خطاب للإمام بكربلاء سجّله المؤرّخون كالطبري: ٣١٨/٤، وابن الأثير: ٢٨٥/٣، وابن كثير: ١٧٦/٨ وغيرهم.

الزكي لوحده متجهاً نحو هدفهِ وهو الخروج من الكوفة.

يستوقفنا هنا تنويه للمؤرّخين، أو هو توهّمٌ للرواة الذين درجوا على القول: إنّ النفر القليل المتبقّين معه قد تركوه «والتفت فإذا هو لا يحسّ أحداً يدلّه على الطريق...»(١). وهذا تصوّر سائد يستدعي الحذر، فلو أراد «مسلم» أن يكون معه أحداً لما عزّ عليه أو عجز عنه، لاستطاع استبقاء من يريد وفق احتمالين:

أوّلهما: افتراض كون المتبقّين هم من الرجال العاديين ليس فيهم شخص من صفوة المجاهدين -وهو افتراض ضعيف- فلو كان كذلك لكان لهم اعتبار في الشجاعة أهّلهم للبقاء طويلاً في هكذا ظروف خطيرة مع هكذا قائد مهدّد -وهم قليلون، ثلاثون فقط ثمّ أصبحوا عشرة فحسب- ومن شأن أفراد شجعان مثلهم أن يبادر أحدهم أو يبادر لهم «مسلم» ليختار أحدهم يدلّه على الطريق أو ينفعه لأيّ شيء آخر، بما تفرضه الضرورة والإضطرار-كما حدث ذلك مع سيّدة من النساء أنظر ص١٩٧- بل كان مسلم «عليه السّلام» يَقْدِر ان يُداري روحيّة هذا الفرد أو الاكثر -بتقدير تخوّفه- حتىٰ يدلّه علىٰ الطريق.

ثانيهما: كون أكثر المتبقّين هم من صفوة المخلصين أو أن كل الثلاثين هم من الصفوة المجاهدة كما قلنا مسبقاً، إذن فكيف ينصرفون ولا يتقدّمون له بخدماتهم ما لم يتم حسب ما أشرنا من اتفاقهم وإباء المبعوث الحسيني إلا أن ينفرد لوحده، معتمداً علىٰ نفسهِ بالنسبة للطريق وسكك الكوفة، لكنّ مسلماً «سلام الله عليه» إذ التبست عليه الطرق والدروب حتىٰ قادته إلى مكان استضافته القصيرة وإلى ماسنعرض إليه مفصّلاً فإنّ الرواة والمؤرّخون إعتقدوا أنّه أراد من يدلّه علىٰ الطريق فلم يجد، وفسّروا التفاتته المذكورة إلتماساً لشخص، لقد غاب علىٰ المؤرّخين المحيطين القيام بتشخيص اولئك البقية، أو

(١) الطبري: ٤/٢٧٧.

تحديد بعضهم.

أليس قادة الألوية الأربعة و أقطاب الشيعة وأبرز وجوه التحرّك الحسيني هم قوام وجود أُولئك البقية؟ أوَليسوا هم صفوة المتصلّبين للحق وعصبة العقائديين المعاندين الذين أثبتوا ـ قبل وبعد هذهِ الأحداث ـ تحدّياتهم للموت والقتل حتىٰ استشهدوا بعزٍّ وعنفوان وعظمة، وأخبارهم عند أُولئك المؤرّخين هم دوّنوها لنا... فإذا استمرّ الكتّاب والخطباء وغيرهم يكرّرون نفس الطريقة القاضية بأن تلك البقيّة هربت من عند «مسلم»، فبماذا يكون جوابهم للسؤال الذي يفرض نفسه: ماهي نوعية شجاعة تلك البقيّة وتحديد شخصياتهم القوية الفذة التي أهّلتهم للبقاء حتىٰ تلك الساعة الحرجة؟

و السؤال الذي يطرح نفسه ايضاً: ثمّ أين ذهب نفس قادة الألوية الأربعة الذين حاصروا القصر، وبقية أبطال الكوفة وفرسانها، ممّن شهدت لهم البطحاء بالبطولات المشهورة؟ إنّ هذا يجب أخذه بنظر الإعتبار، وإلا يصبح تصوّرنا ناقصاً مختلّاً لواقع الأُمور والأحداث.

* * *

لقد رأينا كون المبعوث الحسيني مارس اسلوبه الرسالي السليم، حتىٰ في أحرج المواقف وأشدها مصيرية حيث «حصار القصر» لم يستعمل الخداع والزيف والكذب، لأنّ المجتمع الذي تتفشىٰ فيه فنون النفاق ويخضع لأنواع الوعد والوعيد، يريد حاكماً جامعاً للشرائط المطابقة لميوله، ومسلم تلميذ معلّمهِ القائل: «والله لا أُصلحكم بإفساد نفسي» ولم تتيسّر مدة زمنية كفيلة بالتغلّب على القوىٰ النفاقية الأُموية مع تهذيب أجواء الساحة تدريجياً... إن «مسلم بن عقيل» لم يستعمل ـ وما كان ينبغي له ـ وسائل الإرهاب والإرعاب والإغراء والترغيب، لكي يحافظ علىٰ التوازن أثناء الحصار، أضف الىٰ أن الناس لم يجرّبوه عنيفاً ولا مجرماً، كما جرّبوا زياد بن أبيه وابنه... علماً أن تلك

الأساليب تُكلِّف إنفاقاً مسرفاً بالأموال والدماء والأمن والأعراض.

لو كان هذا القائد الرسالي يريد أن يتحكّم كيفما اتفق وبشتّى الأحابيل والحيل لاستنفد معانيه العقائدية واستحال الى قائد دنيوي طارئ بلا رسالة ولا مبادىء.

قلق الأمير من هذهِ الحملة:

كيف عقّب ابن زياد على هذهِ الحملة؟ يمكن فهم الفرق بين طبيعة قوّة الحملتين أيضاً من خلال الفرق بين كيفية التعقيب الحكومي، وردود الفعل التالية لهما. وبعد ما اطّلعنا مسبقاً على تعقيبه الأول، لنطّلع الآن على التعقيب الثاني لهذهِ الحملة الثانية.

في نفس الأمسية حاول ابن زياد أن يلقي خطاباً عقيب تفكّك الحصار وانصراف الناس لكنّه كان قلقاً خائفاً من نصب كمائن له بالمسجد «قال لأصحابه أشرفوا فانظروا هل ترون منهم أحداً، فأشرفوا فلم يروا أحداً، قال: فانظروا لعلّهم تحت الظلال قد كَمنوا لكم، ففرعوا بَحابحَ المسجد وجعلوا يخفضون شُعَل النار في أيديهم، ثمّ ينظرون هل في الظلال أحدٌ، وكانت أحياناً تُضيء لهم وأحياناً لا تُضيء لهم كما يريدون، فدلّوا القناديل وأنصافِ الدِّنان تُشدّ بالحبال ثمّ تُجعل فيها النيران، ثمّ تُدلّى حتى تنتهي إلى الأرض، ففعلوا ذلك في أقصى الظلال وأدناها وأوسطها، حتى فعلوا ذلك بالظلّة التي فيها المنبر... فلما لم يروا شيئاً أعلموا ابن زياد ففتح باب السُدّة التي في المسجد ثم خرج فصعد المنبر وخرج أصحابه معه فأمرهم فجلسوا حوله...»(١).

هذا، و كان المسجد خالياً تماماً بدليل عملية التفتيش آنفة الذكر، وظلّ ينتظر اجتماع الناس إذ أمَر أحد مستخدميه ويدعى عمرو بن نافع لينادي بلغة

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٨.

معهودة: «ألا برئت الذمّة من رجلٍ من الشرطة، أو العُرفاء، أوالمناكب، أو المقاتلة، صلّىٰ العتمة إلا في المسجد» (١) - المقاتلة بمعنىٰ المرتزقة وهم الغالبية من الناس - فامتلأ المسجد بالمدعوين وغيرهم من محبّي التفرج والإستطلاع والسماع بما يجري. ثمّ أمر ابن زياد بالإقامة للصلاة ليؤمّ الناس في أداء الصلاة، تلك الممارسة السياسية المتّبعة رسمياً، التي غفل عنها الشرطي المعروف بـ«الحصين بن تميم» حين قدّم اقتراحاً لأميره بقوله:

«إن شئت صلّيت بالناس، أو يصلّي بهم غيرك و دخلت أنت فصلّيت في القصر، فإنّي لا آمن أن يغتالك بعض أعدائك» (٢). وكأن المغفّل لم يلتفت إلى:

أولاً: الإهتمام المتزايد لابن زياد بحضوره و انتظاره الناس مذكان المسجد خالياً.

ثانياً: إنّه يريد إلقاء خطاب بنفسه أيضاً.

ثالثاً: أراد التظاهر بالقوّة و المقدرة و انّه المحقّ و صاحب الحقّ السياسي.

رابعاً: إنّ ابن زياد ما أحبّ السماح لأحد بتسنّم منصب إداري رسمي كبير كالصلاة. لذلك أجاب الحصين -وكان رئيساً للشرطة- بقوله «مُرْ حَرسي فليقوموا ورائي كما كانوا يقفون، ودُرْ فيهم، فإنّي لست بداخل إذن» (٣). وهكذا انتهت الصلاة الأميرية التي أدّاها في ظاهر صورتها وصوتها «وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إلا مُكاءً وَ تَصْدِيَة» (٤).

و بدأ خطبته بحمد الله تعالىٰ و الثناء عليه كلفظٍ تقليدي لا مفرّ منه، وقال: «أيّها الناس؛ إنّ مسلم بن عقيل أتىٰ هذهِ البلاد، وأظهر فيها العناد،

---

(١) نفس المصدر، و ابن الأثير: ٣/٢٧٢.

(٢) نفس المصدرين السابقين.

(٣) نفس المصدرين السابقين.

(٤) سورة الأنفال: ٣٥.

وشقّ العصا. وقد برئت الذمّة من رجلٍ أصبناه في داره، ومن جاء به فله ديّته. إتقوا الله عباد الله، والزموا طاعتكم وبيعتكم، ولا تجعلوا علىٰ أنفسكم سبيلاً... ومن أتاني بمسلم بن عقيل فله عشرة آلاف درهم، والمنزلة الرفيعة من يزيد بن معاوية، وله في كل يوم حاجة مقضية، والسلام»(١).

ثمّ صاح عالياً «بشيخ» الشرطة «يا حصين، ثكلتك أُمّك إن ضاع باب سكّة من سكك الكوفة، أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به، وقد سلّطتك علىٰ دور أهل الكوفة، فابعث مُراصدة علىٰ أفواه السكك، وأصبِحْ غداً، واستَبرء الدور، وجِسْ خلالها، حتىٰ تأتيني بهذا الرجل»(٢).

ليست غريبة حالة منح الشرطة إجازة السطو علىٰ الناس والتسلّط علىٰ منازلهم، فهي منسجمة تماماً في سياق الأساليب المقرّرة ضمن المنهاج السياسي الأُموي الذي يبيح المحرمات سلفاً بمقتضىٰ الضرورات الأُموية! فما هو الإسلام وقراراته في الأخلاق السياسية، وما قيمة الكتاب والسنّة إذا عارض التشريع بعض تلك الضرورات المذكورة؟!!

بدأ الشرطة و العرفاء و سائر أهل الأطماع، يتمنون تلك الجوائز الثلاث الموعودة: عشرة آلاف درهم، مع منزلة رفيعة من يزيد، مع قضاء حاجة كل يوم. جوائز يسيل لها اللعاب، فكل واحد منهم تمنّىٰ كشف مكمن مسلم.

بينما يواصل البطل الصبور دربه بهدوء و سكينة و وقار، متنقّلا من شارع الىٰ آخر رجاء بلوغ منفذ يفضي به الىٰ الخارج، وزاد عبء الظمأ علىٰ عبء التعب وإعياء المسير «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ»(٣).

---

(١) الفتوح لابن أعثم: ٥/٩٠، والطبري: ٤/٢٧٩ بلفظ آخر.

(٢) الإرشاد للمفيد: ص ٢١٣، والطبري: ٤/٢٧٩.

(٣) سورة الروم: ٦٠.

تحت المطاردة:

أطلق مسلم عنان فرسهِ باتجاه معاكس للطريق الذي سلكه راجلاً، متخلّصاً مما قد يثيره وجود الفرس من انتباه عيون الطامعين بمطاردته، لأنّهم إذ يلاحقون مثلهُ يلاحقونه فارساً راكباً ولا يحسبونه راجلاً.

في ساعات هذهِ الليلة أُلقي القبض على كثير من الأفراد بمختلف المستويات، منهم بعض رجال النخبة المخلصة ـ حسبما سنتعرّض إليهم لاحقاً ـ الذين اعتقلوا في بيوتهم أو في الطريق إليها، ومنهم من أُعدم،ومنهم من دام اعتقاله سنين في السجون... كما ساد تلك الليلة على صعيد أهالي الإقليم كافة رعب شديد، مخافة اتّساع الإعتقادات على التهمة والظنّة والشبهة، بإيعاز من العرفاء والمناكب والشرطة، ومخافة انتهاك الأغراض بالسطو على الدور بحجة توجيها الأجواء وأجازها الحاكم بغير أمر الله، إذ أعلن فرض الأحكام العرفية، فاستبدّ بأوامره، فاستحوذ الفزع على الناس وأوصدوا أبوابهم جزعاً من هذا الجور المتفشّي.

وصل مسلم الى دور بني جَبَلة و هم من كنده، أثناء سيره الذي تبيّن له أنه لم يكن باتجاه حدود الكوفة كما أراد، وقد بذل من الجهود الشاقة ما لا يعلمه إلا الله... فجأة لاح له عن بُعدٍ شبح عند باب أحد الدور، حيث بدت إمرأة تنتظر أحداً ما، إنتهى به المطاف إليها ليلقي بالسلام ويطلب منها الماء كان يجلس جلسة الرُماة حينما تناول الماء ليروي حشاشته، أرجعت الإناء إلى بيتها وعادت ثانية الى الباب وإذا بالرجل لم يبرح مكانه، فتعجّبت وتساءلت: «يا عبدالله ألم تشرب الماء؟ قال: بلى. قالت: فاذهب الى أهلك، فسكت». ولم يجبها أو يذهب، متحرّجاً من أن يفاجئها بكشف هويّته. لكنّها حاولت حسم الموقف بتكرار السؤال فكرّر السكوت فقالت

بلهجة شديدة العجب: «سبحان الله! ياعبدالله، فمُر الىٰ أهلك عافاك الله، فإنّه لا يصلح لك الجلوس علىٰ بابي، ولا أُحلّه لك!!».

حينها نهض من محلّه فوراً لأنّها لم تُحلّ جلوسه وحرّمت بقاءه. ولم يجد بدّاً من الإنصراف أو الكلام، فرأىٰ تمهيد كشف شخصه الشريف: «يا أَمةَ الله مالي في هذا المصر منزل ولا عشيرة! فهل لك الىٰ أجر ومعروف، ولعلّي مكافؤك به بعد اليوم». فشعرت المرأة بأنّ الرجل الذي أمامها غريب، وأدركت أنّه علىٰ منزلة مرموقة تؤهّله للجزاء والمكافأة والإثابة، فسألت عن ماهيّة المطلب: «يا عبدالله وما ذاك ؟» فلم يطلب الضيافة، بل المنطقي أن يبرز اسمه الكريم فيتجلّىٰ المطلوب تلقائياً، فقال بوقاره المعهود «أنا مسلم بن عقيل كذّبني القوم وغرّوني». فانبهرت قائلة باعتزار: أنت مسلم؟ قال: نعم. وقد تنحّت عن الباب بسرعة ليدخل، وكأنّها كانت تنتظره ليأوي الىٰ دار من دورهِ «فأدخلته بيتاً في دارها غير البيت الذي تكون فيه. وفرشت له، وعرضت عليه العشاء، فلم يتعشّ»(١). فقد استقرّ به المقام لكي يقوم لله مؤدياً الصلوات، منشغلاً بالعبادة، مستغرقاً بالحالات الروحية زلفة الىٰ الله تبارك وتعالىٰ، عازفاً عن تناول الطعام الذي قدّمته هذهِ السيدة الصالحة، مواصلاً الصمت والصيام مع الصبر الجميل علىٰ ماجرىٰ... تارةً تستاء المرأة لإحساسها بالتقصير في أداء حقّ ضيفها العظيم، وتارةً تأنس مفتخرة في إيواء القائد والبطل الطالبي المخذول. تتردّد عليه بين الفينة والأُخرىٰ لتجده مشغولاً بعبادة ربّه منهمكاً بالقيام والقعود والركوع والسجود أو يستغرق في تأمّلاته عقب صلواته... وهي تذكُرُ عبارته الرفيعة «... لعلّي مكافؤك بعد هذا اليوم». أجل وعدٌ نبويّ مقدّس أكّده رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم»

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٨.

بالأصالة عن نفسه وذريّته وأهل بيته وسادة رهطه الطاهر، إذ قال «صلّى الله عليه وآله وسلّم»:

«من صنع مع أحدٍ من أهل بيتي يداً، كافأته عنها يوم القيامة». وقال: «من صنع الى أحدٍ من أهل بيتي معروفاً، فعجز عن مكافأته في الدنيا، فأنا المكافئ له يوم القيامة». وقال «صلّى الله عليه وآله» «من حفظني في أهل بيتي، فقد اتّخذ عندالله عهداً»(١).

* * *

تدعى تلك المرأة الصالحة باسم «طوعة» كانت سيّدة مؤمنة ممّن استأثرت الأحداث باهتمامهن، وقيل أنّها كانت مولاة للهاشميين تخدمهم أيام كانوا في الكوفة، خلال خلافة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه الصلاة والسّلام»... كانت تتطلّع للمستجدات من مجريات الأحداث، مترقّبة مجيء ولدها الذي قد يخبرها بما وقع، وإن كان يغاير ميولها بفعل البيئة التي دفعته نحو الإنحراف. إذ كان صديقاً لأبناء المقرّبين للسلطة، كصديقه عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث، وقد توسّط له «محمد بن الأشعث» ليكون في سلك الشرطة عند السلطة... وقيل عنها إنها كانت عند قيس الكندي ثمّ طلّقها فتزوّجها أسد بن بطين الذي أولدها هذا الولد(٢). وقيل كانت للأشعث بن قيس أعتقها فتزوّجها أسيد الحضرمي فأولدها ولداً سمّي بلالاً(٣).

إنّ هذهِ المرأة الصالحة انشغلت بضيفها فنسيت ولدها ولعلّها كرهت

---

(١) ذخائر العقبى، لمحبّ الدين الطبري: ص ١٨ - ١٩.

(٢) الفتوح لابن أعثم: ٨٨/٥.

(٣) تاريخ الطبري: ٢٧٧/٤.

مجيئه، لشعورها بأنّ مثله لا يليق أن يطّلع على سرّ هذا البطل المطلوب للطغاة. وإنّما تأخر عن المجيء لميله للّهو في الليل «قال بعضهم: كان يشرب مع أصحاب له»(١) وحينما جاء الى الدار لاحظ اهتمام امّه، في تردّدها على البيت الداخلي الثاني. لاحظ تكرارها غير المعهود، فتساءل مع نفسه، وصمّم أن يسألها، فتجاهلت سؤاله، وحين كرّر السؤال أرادت صرف ذهنهِ عن ذلك، لكنّه ألحّ على الجواب، فخشيت أن يذهب بنفسه ليعرف الأمر، فرجّحت إخباره شريطة أخذ العهود والمواثيق عليه «يابني لا تحدّثن أحداً من الناس بما أُخبرك به، وأخذت عليه الأيمان فحلف لها»(٢). غير أن الجوائز الثلاث التي وعدَها ابن زياد تهون فيها أغلظ العهود والمواثيق المقدّسة.

لقد أخبرته فأدرك الأمر، و تظاهر بصواب عملها... وليس خافياً أنّها سبّبت أتعاباً كثيرة لعواطفها التي دفعتها لتكرار الذهاب الى تلك الدار، ويبدو أن التكرار الملفت للنظر كان مخاض تصرّفات عاطفية، وليس لضرورات الشراب والطعام بدليل امتناع الضيف عن الأكل، وانقطاع مسلم الى ربّه. وظنّ «بلال» التعيس أنّه قبض الدنيا كلّها بيده، فأمضى ليلته مسروراً مبتهجاً جذلاً، تحدّثه نفسه بما سيظفر به غداً من شأن وجوائز، متجاوزاً العهد والميثاق مع الله وامّه «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرحْمٰنِ نُقَيّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ»(٣).

إستمرّ مسلم «سلام الله عليه» في صلواته مختلياً بخالق الوجود والحياة، إذ قرّر قضاء الليل مع الباري الكريم حتى الصباح حين يتّخذ ليومه الثاني خطواته المناسبة، كأن يحصل من المرأة بعض معالم الطريق للخروج، أوربما

---

(١)و(٢) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٨.

(٣) سورة الزخرف: ٣٦.

يسفر الفجر عمّا يُخبّىء الدهر.

و نظراً للإعياء البدني الذي أصابه، فقد استسلم للكرىٰ فغفا لحظات ليرىٰ في عالم الرؤيا عمّه الإمام علي أمير المؤمنين «عليه السّلام» «فأخبره بسرعةِ اللحاق به، فأيقن عند ذلك بدنوّ الأجل المحتوم منه» واستفاق من إغفاءته العابرة، ليشعر بقرب حصوله علىٰ شرف الشهادة، وليدرك بأنّ العدو يتربّص به ريب المنون... بعدها نَشِط البطل العابد ليغتنم آخر ساعاته من الدنيا فيملأها تزلّفاً لربّ العالمين وتملّقاً للقاء موضع الرضا محلّ الشوق والمحبة، ومصافحة محمّد وآله وصحبه، وأبىٰ الكرىٰ أن يأخذ بجفونه بعدها حتى التقىٰ.

راح يُعدّ نفسه لمواجهة المصير الأكيد بلا ضيق أوضنك، بلا ارتباك أو ضعف، وبدون تردّد أو خوف، بل بصلابة نادرة وصمود يثير العجب، ألم يقل بإيمان اليقينيّين الأحرار:

فصبراً لأمر الله جلّ جلاله فحكم قضاء الله في الخلق ذائع

«وَاصْبِرْ، وَمَا صَبْرُكَ إِلّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ»(١).

---

(١) سورة النحل: ١٢٧.

الفصل الثالث

حرب الشوارع

أقسمت لا أقتل إلّا حُرّا
و إن رأيت الموت شيئاً نُكرا
مسلم

كيف اندلعت المعركة؟:

خرج ابن تلك المرأة الصالحة مصبحاً، كي يبادر بتقديم الخبر الخطير، وليس عجباً من أمثال هذا أن ينقضوا العهود وينكثوا المواثيق حتىٰ مع الأُمّهات... راح الخبيث ابن الطيّبة يهرول الى «عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث» ليخبره، فأسرع هذا الىٰ أبيه ليهمس له وهو جالس في القصر منذ الصباح الى جانب ابن زياد الذي تساءل عمّ همس به فأجابه محمد بن الأشعث بالإيجاب «فنَخَس (ابن زياد) بالقضيب في جنبهِ، ثم قال: قم فأتني به الساعة(١)... ولك ما أردت من الجائزة والحظّ الأوفر»(٢) وأوعز الىٰ عمرو بن حريث ـ وكان يشرف علىٰ المرتزقة ـ أن يبعث مع ابن الأشعث عدداً من

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٩.
(٢) الفتوح لابن أعثم: ٥/٩١ - ٩٢.

الأقوياء ليأتوا به، وأمره بأن يختارهم من قبيلة قيس، لامتناع باقي الرجال عن مواجهة رجلٍ كمسلم بن عقيل «وإنّما كره أن يبعث معه قومه لأنّه قد علم أن كل قوم يكرهون أن يُصادَف فيهم مثل ابن عقيل، فبعث معه عمرو بن عبيدالله السُلَميّ في ستين أو سبعين من قَيْس»(١) وقيل أنّهم كانوا مائة رجلٍ(٢) في أول دفعة من الدارعين بالسلاح.

إنّ لترشيح هذا العدد الكبير جملة عوامل أولها وأهمّها خصائص الشجاعة المستجمعة بخصمهم العنيد، ثم تحسّباً من وجود أنصار له على مقربة منه، أو مخافة التحاق مَن قد يسمعون به... واتّجهوا بجمعهم وكيدهم إليه حيث يستقر، وقد تناهت الى سمعه جلبة مجيء الجموع «سَمِع وقع حوافر الخيل وأصوات الرجال».

نهض البطل الطالبي من على مصلّاه، واستوى واقفاً يلبس للحرب لامّتها ومدرعتها، بعزم عزّ العابدين العارفين ويمتشق سيفه الذي تقلّده، فما استاءت المرأة العجوز ممّا أصبح يتهدّد ضيفها العظيم، المنفرد لوحدهِ بحربهِ الملتحمة وشيكاً،وقفت حائرة محرجة، يعتصر القهر قلبها، لكنّه راح يُهدّء روعها بكلمات: «قد أدّيتِ ما عليكِ من البرّ والإحسان، وأخذتِ نصيبكِ من شفاعة رسول الله «صلّى الله عليه وآله» وقصّ عليها الرؤيا (٣). فهجموا على الدار بدون مراعاة لقيم عربية أو أخلاق إسلامية توجب صيانة حرمة البيوت، وتفرض إنذار الطرف الآخر ببدء القتال. رغم علمهم بأنّه شخص واحد حالياً -بتأكيد بلال الواشي به- لكنّهم ماأرادوا لهذا الواحد أن ينتبه لهم فيمتشق بوجوههم سيفه، فرجّح قائدهم ابن الأشعث أن يباغتوه في داخل الدار وهو

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٩.

(٢) الأخبار الطوال: ص ٢٥٤.

(٣) نفس المهموم، ص ١٠٨ من الطبعة المحقّقة.

غافل عنهم أيسر من أن يتأهب لهم، علماً بأنّ قائد المجموعة امتنع عن التوقف عندالباب لينادي مسلم كي يخرج من الدار للتسليم لهم، بحكم يقينه بأنّ مثل مسلم بن عقيل لن يُسلِّم قط، ولن يستعطفهم أو يترجّاهم لئلّا يقتلوه ولا يؤذوه. بل سيردّ عليهم بقوة نادرة حسبما عهدوه من شجاعته.

كان ثابت القدم، قويّ القلب، شديد البأس، رابط الجأش، راسخ الجنان، بطلٌ تعلّمَ من أبيه وعمّه ماهزّ عرش الظالمين وهدّدا. متأهّباً للخروج لهم والنزال معهم حين هجومهم عليه. «واقتحموا عليه الدار فشدّ عليهم يضربهم بسيفه حتىٰ أخرجهم من الدار، ثمّ عادوا إليه فشدّ عليهم كذلك»(١). يصف مؤرّخ آخر -وهو المسعودي- بداية القتال بقوله: «فاقتحموا على مسلم الدار، فثار عليهم بسيفه، وشدّ عليهم فأخرجهم من الدار، ثمّ حملوا عليه ثانية، فشدّ عليهم وأخرجهم أيضاً، فلمّا رأوا ذلك منه (أي عجزهم عنه) عَلَوا ظهور البيوت، فرموه بالحجارة، وجعلوا يُلهبون النار بأطراف القصب ثمّ يُلقونها عليه من فوق البيوت، فلما رأىٰ ذلك، قال: أكُلُّ ما أرىٰ من الأَجْلاب لقتل مسلم بن عقيل؟! يا نفس اخرجي الىٰ الموت الذي ليس منه محيص! فخرج إليهم مصلتاً سيفه في السكة (الطريق) فقاتلهم»(٢) بينما يصوّر لنا خروجه المؤرّخ ابن أعثم الكوفي، فيقول: «وخرج مسلم في وجوه القوم كأنّه أسد مغضب، فجعل يضاربهم بسيفه حتىٰ قتل منهم جماعة...»(٣).

و هو يصول وسطهم بقوتهِ الخارقة لكل قدراتهم مجتمعة متظافرة، دون أن يجهلوا كونه أحد أهم سيوف مدارس الحربية المحمدية. سيّما أنّه يحس بدنوّ أجله حين قال مسبقاً «يانفس اخرجي الىٰ الموت الذي ليس منه محيص». بل انّنا

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٩.
(٢) مروج الذهب: ٣/٦٨.
(٣) الفتوح لابن أعثم: ٥/٩٣.

نراه بصورة أكثر وضوحاً في استقباله للموت بلا تهرّب ولا هزيمة. ففي البيتين التاليين، نجده كيف يخاطب نفسه ذات الهمّة الكبيرة والثقة العالية، يخاطب النفس لتأنس بما تكره، والنفس لدىٰ الرسالي الباسل المستهين بالحياة الدنيا، تؤكد على حتميّة التسليم لما يُقدّره الله ممّا لا يمكن أن يلغيه أيّ انسان مهما بالغ في تجنّب المحاذير أثناء الأيام الماضية أو اللقاء الحاضر، فلا شكّ بأنّه سيتجرّع ـ كما قال في البيت الأول ـ كأس الموت، ولكن بصبر المرابطين العظماء، ومعرفة الحكماء بكيفية تسيير الأحداث وتسلسل الوقائع طبق قوانين هوىٰ الله «حكم قضاء الله في الخلق» وحسبه الصبر الطويل حتىٰ «يقضي الله أمراً كان مفعولاً»، لذلك كان مسلم «سلام الله عليه» فصيح النطق صريح المنطق حين شفع هجومه بنشيد جميل شجاع:

هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع ... فأنت لكأس الموت لاشكّ جارع
فصبراً لأمر الله جلّ جلاله ... فحكم قضاء الله في الخلق ذائع

فتفرّقوا من حوله متشرذمين، وتجرّزوا من سيفه منهزمين، قد تركوا وراءهم جموع قتلاهم والمجروحين، ويصرخ بهم قائدهم ابن الأشعث كي يثبتوا ولا ينهزموا، لكنّهم يكرّون عليه وما يلبثون حتىٰ يفرّوا من بين يديه، واتسع نطاق القتال فشمل عدّة شوراع وطرق. وهو يواجههم أفراداً وجماعات ليلقّنهم من الدروس ما لا يُنسىٰ، حيث كان إذا أمسك بأحدهم رفعه وجلد به الأرض، أو ألقى به الىٰ مسافةٍ بعيده، بل سجّل المؤرّخون والرواة أنّه رمىٰ بعضهم فوق أعالي المنازل، كما جاء عن ابن الهروي، وفي اسناد ينتهي إلىٰ سفيان بن عيينه فعمرو بن دينار، قال «وكان مثل الأسد، لقد كانَ من قوّته أنّه يأخذ الرجل بيده، فيرمي به فوق البيوت»(١).

---

(١) بحار الأنوار: ٤٤/٣٥٤.

إرادة العزّ و الحرية:

إضطرّ قائد المفرزة الأُموية ابن الأشعث الىٰ التفكير بطلب إمداد لنجدة موقفه الفاشل، فلاطاقة لباقي المرتزقة علىٰ الوقوف بوجه هذا المقاتل الوحيد، لأنّه كان أكثر من واحد، إنّه بمثابة جيش وامّة في الناس، وهذهِ صفة عامة هامة لرهط رسول الله والطابع الشامل لفرسان مدارس الرسالة والرسول «صلّى الله عليه وآله».

فأوّل معالم التقهقر، إبلاغ ابن زياد بأنّهم أخفقوا بعملية القبض عليه، وهو مازال الآن يقاتلهم وأنّ ميزان القوىٰ يميل الى البطل المنفرد بإدارة القتال، وصل محمد بن الأشعث ـ أو رسولاً عنه ـ الىٰ القصر، ليؤكّد أمام ابن زياد مصرع بعض رجاله وجرح الآخرين، وعجز الباقين، والحاجة الجادّة للنجدة والإمداد! فصاح ابن زياد ـ كأنّه يخاطب ابن الأشعث ـ بقوله: «سبحان الله! بعثناك الىٰ رجل واحد تأتينا به فثلم في أصحابك هذهِ الثلمة العظيمة»(١) فشعر ابن الأشعث باستخفاف بشخصه، واستهانة بقيادته، الأمر الذي جعله يُذكّر الأمير الجالس علىٰ أريكته وكرسيّه الوثير، دون أن يحضر ليشهد بنفسه ابن عقيل مقاتلاً عملاقاً في الساحة والشارع. ولكي يُذكّره اضطرّ أن يعترف ذاتياً بعظمة شجاعة المبعوث الحسيني وجلال جهاده، فيردّ على تلك الإهانة الرسمية الموجّهة له بقوله:

«أتظنّ أنّك أرسلتني الىٰ بقّال من بقّالي الكوفة، أو جرمقاني من جرامقة الحيرة؟! أما تعلم أنّك بعثتني إلىٰ أسد ضرغام، وسيف حسام في كفّ بطل همام من آل خير الأنام»(٢).

---

(١) الفتوح لابن أعثم: ٤/٩٣.

(٢) الفتوح لابن أعثم: ٤/٩٣-٩٤.

رغم وصول الدفعة الثانية من المرتزقة، فقد بقي «الأسد الضرغام» ينال بسيفه رقابهم ويضربهم «فوق الأعناق، ويضرب منهم كلّ بنان» فينهزمون أمامه انهزام المعزىٰ من الذئب، متنقّلاً بهم من طريق الىٰ آخر، وهم يتفرقون من عندهِ خشية بأسه الشديد.

ثاني معالم التقهقر و العجز، أنّهم عرضوا عليه الأمان رجاء سلامته، إذ ناداه ابن الأشعث: «يافتىٰ لك الأمان، لا تقتل نفسك». فلم يحفل بهذا العرض الكاذب ليمضي شامخاً بانشودة الحرية:

أقسمت لا أُقتل إلّا حرّا ... و إن رأيت الموت شيئاً نكرا
كُلُّ امرىء يَوماً مُلاقٍ شرّا ... و يُخلط البارد سُخناً مُرّا
رُدّ شعاعُ الشمسِ فاستقرّا ... أخافُ أن أُكْذَبَ أو أُغَرّا(١)

«فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ»(٢) وهم يلوذ بعضهم ببعض،لقد أعلن عن عمق موقفه المصمّم علىٰ مواصلة القتال دون أن يسلّم نفسه... يقول أحد الدارسين للأدب(٣) حول تلك الأبيات المعبّرة عن فحوىٰ الحرية ومضمون التحدّي:

«و هذا الرجز هو من الناحية الفنية بأعلىٰ درجة في البلاغة و التصوّر عمّا يختلج النفوس... فهو قبل كل شيء مُصمّم علىٰ أن يحتفظ بحرّيته، ولو أدّىٰ هذا الىٰ قتله، وهو يعلن في صراحة وصدق أنّ الموت شيء منكر، ولا يقول كما يقول غيره ممّن يغالطون أنفسهم: إنّ الموت شيء محبّبَ إلىٰ نفسهِ، وإنّما يعبّر عن نفسيّته تعبيراً صادقاً، فالموت لا يحبّه، ولكنّه لا يفرّ منه مادام قد صمّم علىٰ الاحتفاظ بحرّيته.

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٨٠.

(٢) سورة الصافات: ٩٣.

(٣) (حياة الشعر في الكوفة) د. يوسف خليفة.

«فيُحدّث نفسه بأنّ الدنيا متقلّبة، وكل امرىء فيها لابدّ أن يلاقي ما يسوؤه، وهو يعرض هذا الحديث النفسي في صورة فنّية بارعة».

«فالبارد الحلو لابدّ أن يُخلط يوماً بساخنٍ مُرّ، والأيام الناعمة القليلة لابدّ أن يشوبها هجير القيظ ولفحة الحرّ، بل أن شعاع الشمس المتدفق في حيوية ونشاط لابدّ أن يرتدّ في النهاية ويستقر... يقول الاستاذ الكاتب أيضاً:

«إنّ هذا هو السرّ الذي يجعل من هذهِ السطور القليلة من الرجز تؤثّر في نفوسنا تأثيراً قوياً، يجعلنا نشعر بما كان يعانيه قائلها من صراع داخلي هائل لا يعدله إلا صراعه الخارجي مع أعدائه»(١).

ألحّ محمد بن الأشعث بتقديم الأمان، خوفاً علىٰ جنودهِ أن يستهلكهم سيف أبيّ الضيم هذا المجاهد الحرّ، فكرّر «مسلم» إباءه وامتناعه وقسمه بالقتل حرّاً، وكانت معاني ارجوزته تملأ مسامعهم، فعقّب عليها ابن الأشعث: «إنّك لا تُكذب ولا تُخدع ولا تُغر، إنّ القوم بنو عمّك وليسوا بقاتليك ولا ضارّيك»(٢) فأجاب المجاهد وهو يقاتلهم عن يمينه وشماله: «لا حاجة الى أمان الغدرة»(٣) وقد عُرف ابن الأشعث كونه من عائلة رجالها لا يحفظون عهداً لشهرتهم بكثرة الخيانة وتكرارها.

كان صاحب اقتراح الأمان هو ابن زياد نفسه الذي رأى أنّ الإمداد لا يكفي وحده، فاقترحه لابن الأشعث بالقول: «أعطه الأمان، فإنّك لن تقدر عليه إلا بالأمان»(٤) وبالرغم من كثرة جراح جسد المجاهد وسيل دمائه، فقد استمرّ يخوض أعنف اشتباك ضدّهم وهم تارةً يتراجعون وأُخرىٰ يتحاومون

---

(١) (حياة الشعر في الكوفة) د. يوسف خليفة.

(٢) تاريخ الطبري: ٤/٢٨٠.

(٣) الفتوح لابن أعثم: ٥/٩٤.

(٤) نفس المصدر.

عليه، وضاق ابن الأشعث ذرعاً منهم، فصاح بهم: ذروه حتىٰ اكلّمه، ودنا علىٰ تحفظ وحذر ليقول: «يا ابن عقيل لا تقتل نفسك، أنت آمن ودمك في عنقي». فأجابه المجاهد الجريح: «أتظنّ يا ابن الأشعث، أنّي أُعطي بيدي أبداً وأنا أقدر على القتال، لا والله لا كان ذلك أبداً»(١). ثمّ هجم مسلم عليه فولّىٰ هارباً مذعوراً.

أمّا ثالث معالم عجزهم، فلجوئهم الىٰ تعزيز مواقع سطوح المنازل التي في الشارع المحتمل إنتقال الإشتباكات إليه، فأُثخن بالجراح الكثيفة حيث نالت الحجارة ومشاعل النار من جسده نيلاً دامياً، فيما صمد يواجههم، مستنكراً جلفيّتهم الفجّة باستعمالهم الحجارة وشُعل النار من سطوح البيوت، خلافاً وخرقاً لأخلاق القتال طبق العرف العربي إن لم يراعوا العرف الشرعي. فخاطبهم منددّاً بأدبهم:

«ويْلكم! ما لكم ترمونني بالحجارة كما تُرمىٰ الكفّار؟! وأنا من أهل بيت الأنبياء الأبرار! ويْلكم! أما ترعون حقّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وذرّيته؟!!» وما كان يستدر عواطفهم بدليل أنّه شدّ عليهم بقوة «ثمّ حمل عليهم، علىٰ ضعفه فكسرهم، وفرّقهم في الدروب»(٢).

نظراً لعدم تحكّمه بمن في السطوح ـ رماة الحجارة ـ كما يتحكّم بمن يقاتلونه في الشارع، فقد أخذت منه الدماء النازفة مأخذاً كثيراً حتىٰ ظهر عليه الإعياء ملحوظاً، حيث أسند ظهره الىٰ حائط بعد تلك الحملة الشديدة، وشعر بحاجته الىٰ شرب الماء: «اللهمّ إنّ العطش قد بلغ مني» وكان أعداؤه من الخوف بدرجة أنّهم تمنّعوا عن الإقتراب منه لأسره أو لسقيه الماء «فلم يجسر أحد أن

---

(١) الفتوح: ٥/٩٥.

(٢) نفس المصدر: ٥/٩٥.

يسقيه الماء، ولا قَرُبُ»(١). ومن بعيد يصرح بهم ابن الأشعث، دون أن يدخل المعركة بنفسه: «ويْلكم إنّ هذا لهو العار والفشل أن تجزعوا من رجلٍ واحد هذا الجزع. ثمّ صاح بهم: إحملوا عليه بأجمعكم حملة واحدة». لكن الجريح الجليل مازال يعادلهم ويكافئهم بجمعهم «فحملوا عليه، وحمل عليهم»(٢).

الأسير العظيم:

ولكن كيف تمَّ أسره بعد كثرة النزف والإعياء؟ هناك روايات متباينة، قيل مثلاً: عملوا له حفرة ستروها، ثمّ انكشفوا من أمامه في آخر حملاته، فلما وصل الفخ سقط فتكالبوا عليه وأسروه. وقيل: أنّه «طُعن من ورائه فسقط الىٰ الأرض، فأُخذ أسيراً»(٣). وقيل: إنّه قَبِل مؤخّراً عرض الأمان وإن لم يثق به، لكن قرائن عديدة تخالف ذلك لأنّه أبىٰ قبول الأمان لخداعهِ... ومهما تكن طبيعة كيفية أسره، فإنّ المكر والخداع والغدر هوأصل قواهم المسخّرة للسلطة.

ترك المرتزقة جرحاهم يئنّون، واحتشدوا حول الأسير الباسل النازف بالدماء، حتىٰ أن الدم كان يسيل من شفتيه اللتين تعرّضتا لضربة قاسية، إذ اختلف مسلم وبكير بن حمران الأحمري بضربتين، نال الأحمري ضربة «في رأسهِ منكرة يعني شديدة، وثنّىٰ (مسلم) بأُخرىٰ على حبل العاتق، كادت تطلع الى جوفهِ»(٤) قيل مات ابن حمران فيما بعد بتأثيرها.

إن كل ما في بدن مسلم من جراحات لم تكن همّاً من همومه، بقدر ما شغله أمر مجيء سبط رسول الله «صلّى الله عليه وآله»، وانصبّ اهتمامه بمصير

---

(١) و(٢) الفتوح: ٥/٩٥.

(٣) الفتوح: ٥/٩٦.

(٤) تاريخ الطبري: ٤/٢٨٠.

الركب الحسيني، فالتاعَ ألماً، إعتصر قلبه حتىٰ دمعت عيناه، فرآه بعضهم فظنّوا أنّه يبكي لحاله ـ سيّما وقد سُلب سيفه منه ـ فقال له أحدهم بغباء:

«إنّ من يطلب مثل الذي تطلب، إذا نزل به مثل الذي نزل بك، لم يبك». فردّه مسلم رائد الإرادة والإباء: «إنّي والله ما لنفسي بكيت، ولا لها من القتل أُرثي، وإن كنت لم أحبّ لها طرفة عين تلفاً، ولكن أبكي لأهلي المقبلين إليّ، أبكي لحسين وآل حسين»(١). صريحاً لا متبجّحاً في إعلان تأهّب نفسه للموت، مقرّاً باعتزازه بنفسه التي لا يحبّ لها طرفة عين تلفاً، ولا يرغب أن تتعرض للأذىٰ والضرر لكنّه قيدَ واقع قتاليّ قائم، لم يُنسهِ أمر «حسين وآل حسين» ثمَّ التفت الىٰ ابن الأشعث متسائلاً عمّا إذا يتمكن من أن يبغث نيابة عنه ـ أي مسلم ـ من يثني الإمام عن القدوم «وإنّ ماترىٰ من جزعي فلذلك». لكنّ ابن الأشعث لم ينفّذ ذلك فيما بعد.

لقد أحاطوا الأسير من جميع الجوانب، وجيء له «ببغلة فحُمل عليها» وساروا يقصدون القصر، حتىٰ وصلوا بابه واستأذنوا بالدخول، وقد وقف البطل العملاق شامخاً بدمائه وسط حفنة من الشرطة والجلاوزة والأوباش وبعض الناس يحملقون عجباً بالمجاهد والجراح، وتتفرّس أعينهم بعض مواضع النزف أو مواضع السيف التي جمد عليها الدم الزكيّ لهذا القائد الفذ.

عند باب القصر هناك من يقف ينتظر إذن الدخول علىٰ ابن زياد، أمثال عمّارة بن عقبة بن أبي معيط، وكثير بن شهاب، وعمرو بن حريث، إذ طلب «مسلم» شربة ماء من إناء لاح له عن قرب، فامتنع «مسلم بن عمرو الباهلي» أن يسقيه لؤماً وخسّة نفس معهودة حين قال: «أتراها ما أبردها؟! لا والله لا تذوق منها قطرة أبداً، حتىٰ تذوق الحميم في نار جهنّم!» فامتعض

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٨٠.

الحضور من ذلك المنطق الجلفي تجاه فارس عظيم مخضّب بالدماء شديد الظمأ، فانصرف أحدهم ليأتي له بماء من دار قريب، كان مسلم قد وجّه استفهاماً عن صاحب الجواب الفجّ: «ويحك من أنت؟!»(١) فتظاهر بالزهوّ والفخر والخيلاء مُعلناً عن نوعيّة معدنه: «أنا ابن من عرف الحقّ إذ أنكرته، ونصح لإمامه إذ غششته، وسمع وأطاع إذ عصيت وخالفت، أنا مسلم بن عمرو الباهلي!!» فأجابه الجريح المجيد «لأُمك الثكل، ما أجفاك وأفظك وأقسىٰ قلبك وأغلظك؟! أنت يا ابن باهلة أولىٰ بالحميم والخلود في نار جهنم منّي(٢) إذ آثرت طاعة بني سفيان علىٰ طاعة الرسول محمَّد صلّى الله عليه وآله!»(٣).

ثمّ جلس مستنداً الى حائط، وجيء له بماء بارد بقُلّةٍ عليها منديل ومعه قدح، فقدم له، وتناوله ليشرب فامتلأ القدح دماً من جراح شفتيه وثنيتيه، فسُكب له ثانية فأراد أن يشرب فامتلأ دماً أيضاً، وحينما سُكب ثالثة وتناول القدح ليشرب سقطت ثنيتاه في الإناء ففاض دماً عبيطاً. فلم يكن منه سوىٰ القناعة بما قسم الرحمٰن، وهكذا وَطّن نفسه علىٰ الإستشهاد ظامئاً، قائلاً بموجز من منطق العزّ والرضا:

«الحمد لله. لو كان من الرزق المقسوم لشربته»(٤).

---

(١) الطبري: ٤/٢٨١، والإرشاد: ص ٢١٥، وفي الفتوح أنّه قال: «ويلك ياهذا! ما أجفاك وأفظك وأغلظك؟! أشهد عليك أنك إن كنت من قريش فإنك طليق، وإن كنت من غير قريش فإنّك مدّع الى غير أبيك. من أنت يا عدوّالله؟!».

(٢) الطبري: ٤/٢٨١-٢٨٢.

(٣) الفتوح: ٥/٩٦.

(٤) الطبري: ٤/٢٨٢، والإرشاد: ص ٢١٥.

الباب السادس

التصفيات الجسدية وأريحيّة التضحية

إن المفاهيم والمثل الصالحة لا تسند أركان حكم بنظر الأمويين، اذ أكدت العهود التي مرّت بالمسلمين ـ وعلى يد كافة أمراء و ولاة بني أمية ـ إن التمسك بالقيم والأخلاق لايُرسي دعائم حكومة دائمة، وإن الإلتزام بحدود الدين ومعالم الشريعة ينبغي أن يكون ظاهرياً شكلياً من أجل البقاء طويلاً في الحكم، إنها نظرية في السياسة والإدارة، برع الأمويون بتطبيقها وتعميمها.

مقابل كل ذلك أكّد أقطاب العقيدة ورجالات الرسالة بأن المبادئ هي فوق السلطة، وأن الشريعة أعلىٰ من السياسة والحكم، وأن الاسلام فوق كل شيئ، وليس ثمة ضرورة للحياة بدون قيم العقيدة في حيّز التطبيق السوي المستقيم، ولا مجال عندهم للظفر بالسلطة على حساب الرسالة، بل العكس هو الصحيح فلابدّ من حفظ الرسالة أصيلة مصونة على حساب السلطة وفي مواجهتها، حتّىٰ وإن ثبت العجز عن بلوغ مستوىٰ السلطة.

لكن في هذا يكمن خطر التعرض للتصفيات الدامية، أجل، وهكذا كان،فقد شهدت الأُمة

أحداثاً حافلة بالدماء الزكية الطاهرة لآل محمد العظيم «صلّى الله عليه وآله وسلّم» قدّموها ذوداً عن حياض الرسالة الاسلامية، فبدأت التضحيات وكانت القرابين، وظهرت تتجلّى للعيان مفارقات المتصارعين في حلبة معركة مبدئية حامية الوطيس، بدأت وما برحت لحدّ اليوم دائرة الرحى.

في هذا الباب الأخير، سنجد مسلماً وفريقاً من فرسان الكوفة وأبطالها الأتقياء وهم يدخلون رحاب التضحية بأريحية بالغة، قد حار العدو في فهمها كموقف هانئ المذحجي وميثم التمار وهما من الذين ضربوا أروع الأمثال من بين هذا الفريق.

كما رأت السلطة تلك التضحية الأريحية لمسلم بن عقيل مبعوث سبط النبي. مقابل كل ذلك نجد الخرق الأخلاقي للسلطة والجلفية الفجّة التي يأباها الطبع العربي السليم، حينما نفّذت بالضحايا فنوناً مبتكرة للقتل، والتنكيل بالأجساد بعد القتل، تنكّراً لأبسط القيم الانسانية والعربية التي يدّعونها. إنه سلوك طبيعي للأجلاف الذين يتجاوزون التشريع ويحاربونه.

الفصل الأوّل

أوّل الشهداء

«... و تأمّرتم علىٰ الناس من غير رضاً، و حملتموهم على غير ما أمر الله به، وعملتم فيهم بأعمال كسرىٰ وقيصر، فأتيناهم لنأمر فيهم بالمعروف... و...».

المبعوث الحسيني

معركة الكلمة و المعتقد:

تأهّبت السلطة و اتّخذ الحرس و الشرطة أماكنهم الخاصة خارج وداخل القصر، وفي الداخل حيث يهيّأ ابن زياد نفسه بابّهة ومباهاة ليواجه شخص هذا المبعوث الحسيني وعضو الوجود المحمّدي بُغية التنكيل به، واهماً أنّه سيضعف أو يتضاءل كأسير جريح يقف أمام سلطان يتكلّم بلهجة التعالي والكبرياء.

و إذا كان كل شرطي يقف بباب القصر يوحي للناس بأهمّيته أو أنّه هو الذي أسّر البطل، وكأنّه يتحدّىٰ إرادة الجمهور التي دعت الى مجيء مسلم كمبعوث عن الإمام السبط، وإذا كان ابن باهلة كما رأيناه-في صفحة سابقة ص٢١٠-بتلك الغطرسة والغرور والطغيان، فما بالك بما سيكون عليه ابن زياد

من تكلّف الظهور بمظاهر الزهوّ والخيلاء وسائر تلك الصفات؟! وأمر بإدخال الأسير الرسالي.

أُدْخِل مسلم، فكان كما هو أبيّاً نبيلاً يتسامىٰ علىٰ التوهين، ويترفّع علىٰ التخويف، وبينا هو يسير دون أن يُسَلِّم علىٰ ابن زياد - كما تفرض آداب السلاطين طغاة القصور - إذا بشرطي يتنبّه فيقول له: «هلّا تُسلّم علىٰ الأمير؟!» فاستخفّ به وصادر قيمة الأمير، باسقاط اعتباره اللاشرعي، حين قال:(١) «اُسكت لا اُمّ لك، مالك والكلام، والله ليس هو لي بأمير فأُسلّم عليه!!» فاستشاط ابن زياد غيظاً واحتقن وجهه حقداً، لأنّه انتزع شرعيّة الإمارة والحكومة منه، فحاول أن يداري مقامه الإستبدادي، فقال: «لا عليك، سلّمت أم لم تسلّم فإنّك مقتول». ولم يفلح باستعادة هيبته، إذ أجابه المجاهد بذكر حقيقة تهون عندها عملية قتلهِ بهذهِ اليد الشرّيرة «إن قتلتني فقد قَتَل من هو شرٌ منك من كان خيراً منّي». ففقد العدوّ صوابه، لأن الأسير لم يَخَف أو يتضاءل، ولأنه ألحقه بسفّاكي الدماء وقتلة المصلحين العظماء - كمعاوية قاتل الحسن سبط الرسول «صلّى الله عليه و آله» - فاضطرّ الىٰ استعمال التمويه والتضليل المعتاد لدىٰ رموز الإستبداد: «ياشاق يا عاق، خرجت علىٰ إمام زمانك، وشققت عصا المسلمين، وألقحت الفتنة!!» لكنّ مسلماً ليس بطل معركة ميدانية فقط، أو فارس الساحة والسيف فحسب، إنّه يحذق أيضاً قتالهم بساحة الحوار، وحلبة الهجوم بالحجج الدامغة ليلغي أهليّتهم للسيادة علىٰ المسلمين باسم الاسلام، فقال باختصار:

---

(١) الفتوح لابن أعثم: ٩٧/٥، و هناك قولان عن الطبري والطريحي، فالثاني يروي أنه قال: «السلام على من اتبع الهدىٰ، وخشي عواقب الردىٰ، وأطاع الملك الأعلىٰ». في حين روىٰ الأول جواباً لا يعدو كونه موضوع منسوب إليه: «إن كان يريد قتلي فما سلامي عليه! وإن كان لا يريد قتلي فلعمري ليكثرن سلامي عليه!» إنها سذاجة مفتعلة، لعلم مسلم بما تنطوي عليه نفس عدوّه كما سيفصح الحوار.

«كذبت يا ابن زياد، والله ما كان معاوية خليفة باجماع الأُمة، بل تغلّب علىٰ وصيّ النبيّ «صلّى الله عليه وآله وسلّم» بالحيلة، وأخذ الخلافة بالغصب، وكذلك ابنه يزيد. وأمّا الفتنة؛ فإنّك ألقحتها أنت وأبوك زياد بن علاج -ثمّ أضاف قائلاً:- وأنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة علىٰ يد شرّ بريّته، فوالله ما خالفت ولا كفرت ولا بدّلت، وإنّما أنا في طاعة أمير المؤمنين الحسين بن علي ابن فاطمة بنت رسول الله «صلّى الله عليه وآله»، ونحن أولىٰ بالخلافة من معاوية وابنه، وآل زياد»(١).

حار ابن زياد أمام صراحة هذا البيان، لاجئاً إلىٰ التمويه المعتاد، بقوله: «يافاسق! ألم تكن تشرب الخمر وأنت في المدينة!!!» مستغفلاً شأنه متغابياً عن أزلامه الحضور الذين لا يصدّقون صاحبهم الأمير ذلك السكّير الذي يشرب حتىٰ الثمالة: «أحَقّ والله بشرب الخمر منّي، من يقتل النفس الحرام، وهو في ذلك يلهو ويلعب كأنّه لم يصنع شيئاً»(٢). أحسّ العدوّ بعدم انطلاء تهمة شرب الخمر علىٰ مثل هذا الرجل الجليل المتمسّك بمبادئ إسلامه الذي لا يُسلب منه مهما عبث عدوّه بالتعبير، فاستعمل لهجة سلب التأهيل الإلهي للحكم بقوله: «يا فاسق! منّتك نفسك أمراً حالك الله دونه وجعله لأهله» وكأنّه أراد ختم الحوار بتلك العبارة التعسّفية، لكنّ مسلم جرّه جراً ليحاججه بصراحة حين صاح به: «ومن أهله يا ابن مرجانه» أو قال «ومن أهله إذا لم نكن نحن أهله». قال ابن زياد: «أهله: يزيد ومعاوية». فأطلق الواثق بعقائديته، المطمئن ليقينه بربّه كلمة الحسم حول من اختاره الله ومن اصطفاه:

---

(١) الفتوح لأبن أعثم: ٥/٩٧، ٩٨.

(٢) الفتوح لابن أعثم: ٥/٩٨، ٩٩، وفي الطبري «... من يَلَغ بدماء المسلمين وَلْغاً فيقتل النفس التي حرم الله قتلها، ويقتل النفس بغير النفس، ويسفك الدم الحرام...» ٤/٢٨٣.

«الحمد لله. كفىٰ بالله حكماً بيننا وبينكم». وسكت، كأنّه كفّ عن الكلام، فيما بادر العدوّ للقول: «أتظنّ أنّ لك من الأمر شيئاً؟» فانبرىٰ إليه بصلابة الواثقين ومنطق اليقينيين: «لا والله ما هو الظنّ، ولكنّه اليقين».

لقد جزع ابن زياد من هذا الحوار الذي فشل فيه، إذ عجز عن قول ما يكون حجة له غير مردودة ولا مدحوضة وأسِف لأنّه لفظ كلمة «الظنّ» لينبري له الأسير العظيم فيلفظ نقيضها وعكسها بنبرة قوية بالغة «ولكنّه اليقين» فراح يرعد ويزبد ويهدّد تعويضاً نفسياً عن عجزه في معركة الحوارالصريح حين قال: «قتلني الله إن لم أقتلك قتلةً لم يقتلها أحد في الإسلام!!!».

إذن فقد ثبت فشله الذريع في هذا الصراع، فلماذا لا يحاول عكس صورة لقوته المتغطرسة مقابل ضعفه التام في ذلك المجال من المواجهة، وأكّد له مسلم كونه لا يرهب سيف القتل كيفما تمّ القتل حتىٰ لو كانت الكيفية مستنكرة في الإسلام، لأنّ ابن زياد أثبت سلفاً جرأة الخروج علىٰ الإسلام الحنيف: «أما إنّك أحقّ من أحدث في الإسلام ما لم يكن فيه، أما إنّك لا تَدَعُ سوء القِتْلة، وقُبح المثلة، وخبث السريرة، ولؤم الغلبة،ولا أحد من الناس أحقّ بها منك»(١)... ثم التفت الى الحاضرين ليرىٰ مَن قد يوصي إليه.

عودة إلىٰ معركة الكلمة:

لا يشكّ «مسلم» بأنّ كل الحاضرين يوالون السلطة ويمالئونها ويريدون رضاها، وهم يواصلون التنصّل عن الإسلام وأبسط الأخلاق التي ينبغي اتباعها، لكنّه مصمّم علىٰ تقديم وصية عنه قبل قتله، علّ بعض الوصية

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٨٣.

تتحقّق، ولا يخلو الإيصاء من منفعة كشف معدن تلك العناصر، كعمر بن سعد بن أبي وقاص الذي اختاره «مسلم» فامتنع عن التجاوب مجاملة لابن زياد الذي سمح له بسماع الوصية «فقام معه فجلس حيث ينظر إليه ابن زياد».

تحتوي الوصية على ثلاث نقاط، خلاصتها:

«إنّ عليَّ بالكوفة ديناً استدنته منذ قدمت الكوفة سبعمائة درهم فاقضها عنّي (ببيع سيفه ودرعه طبعاً). وانظر جثّتي فاستوهبها من ابن زياد فوارها. وابعث إلى حسين من يردّه فإني قد كتبتُ إليه أُعلمه أنّ الناس معه ولا أراه إلا مقبلاً»(١) بعد أن استمع ابن سعد إلتفتْ فوراً لابن زياد ليكشف علناً مضمون الوصية دون أن يطلب منه ذلك وبدون حياء وبالرغم من قول «مسلم» له ابتداء: «وقد يجب لي عليك نُجْحُ حاجتي، وهي سرّ»(٢).

أجل، تعجّل ابن سعد فخرق أبسط القيم الأخلاقية حين قام فقال لابن زياد بسفاهة ملحوظة: «أتدري ما قال لي؟ إنّه ذكر كذا وكذا». فسخر ابن زياد من تلك الخيانة السريعة وهذا الخائن العجول، مشيراً إلى كون هذهِ الخيانة صفة أصيلة فيه إذ قال: «إنّه لا يخونك الأمين، ولكن قد يؤتمن الخائن!!» وشهد شاهد من أهلها، واعترفوا بذنوبهم حين يفضح بعضهم البعض ويعيب أحدهم الآخر.

ولا يحسبن المرء أنّ مسلماً كان شديد الإطمئنان بهم، فهم على حدّ سواء في تجاوزهم الإسلام وأعراف العرب والإنسانية، بيدَ أنّه آثر التوصية لتبقى مضامين وصيّته رهن الضمير الإسلامي والإنساني، مؤكّداً أنّ الموت لا يُنسيه

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٨٢، و الإرشاد: ص ٢١٥.

(٢) نفس المصدرين.

واجباته الدينية والوجدانية. ثمّ أوحىٰ الى علمه بما ستؤول إليه نقمة الأحقاد من تنكيل بجثته الطاهرة، لإنه سوف لا يقتل بشكل اعتيادي وكانت النتيجة كما توقّع عن جثته... لذلك عقّب ابن زياد محدّثاً خليله الخائن «أمّا ماله فهو لك ولسنا نمنعك أن تصنع فيه ما أحببت. وأما حسين فإنه إن لم يُردْنا لم نُرده وإن أرادنا لم نكفّ عنه. وأما جثّته فإنّا لن نشفعك فيها، لأنه ليس بأهل منّا لذلك، قد جاهَدَنا وخالَفَنا، وجهد على هلاكنا»(١).

أو أنّه وجّه الكلام إلىٰ مسلم «عليه السّلام» قائلاً: «وأمّا جسدك، إذا نحن قتلناك فالخيار في ذلك لنا، ولسنا نبالي ما صنع الله بجثتك... ولكنّي أُريد أن تخبرني يا ابن عقيل، بماذا أتيت الىٰ هذا البلد؟ شتّتَ أمرهم وفرّقتَ كلمتهم ورميت بعضهم علىٰ بعض»(٢). بهذا الكلام التقليدي يحاولون دائماً إسباغ الصفة الشرعية علىٰ مقامهم ومنح أنفسهم صفة الوصاية علىٰ الأُمة، إبقاءً للسيادة الإسلامية بأيديهم نيابة عن الله والرسول حسب زعمهم.

فأجابه الأسير الجريح صادعاً بصراحة معهودة من لدنه:

«لستُ لذلك أتيت هذا البلد، ولكنّكم أظهرتم المنكر، ودفنتم المعروف، وتأمّرتم علىٰ الناس من غير رضا، وحملتموهم علىٰ غير ما أمر الله به، وعملتم فيهم بأعمال كسرىٰ وقيصر، فأتينا لنأمر فيهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر، وندعوهم الىٰ حُكم الكتاب والسنّة وكنّا أهل ذلك، (إذ) لم تزل الخلافة لنا وإنا قُهرنا عليها، لأنّكم أول من خرج علىٰ إمام هدىً، وشقّ عصا المسلمين، وأخذ هذا الأمر غصباً، ونازع أهله بالظلم والعدوان. ولا نعلم لنا ولكم مثلاً، إلا قول الله تبارك وتعالىٰ «وَسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ»(٣).

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٨٢.

(٢) الفتوح: ٥/١٠١.

(٣) الفتوح: ٥/١٠١، والآية رقم ٢٢٧ من سورة الشعراء.

لقد كشف النقاب ـ بهذا النصّ المختصر ـ عن معالم فساد العناوين الدينية التي يتبجّح بها ولاة الأُمويين، وانتزع صلاحية التكلّم باسم الإسلام، وختم خلاصة موقفه بالآية التي تقرّر مصير الطرفين في نهاية المطاف إذ «العاقبة للمتقين». فلم يجد ابن زياد ردّاً عليه، أو قدرةً للنقاش حول تلك المسلّمات البيّنة التي يكون الجدل فيها ضرباً من ضروب المغالطات المؤدّية الىٰ كشف مزيد من الحقائق علىٰ لسان الأسير الجريح. لذلك بان عليه العجز بلجوئه الىٰ الشتم والسباب «فراح يسبّ عليّاً والحسن والحسين» الذين من سبّهم فقد سبّ الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم» ومن سبّ الرسول فقد سبّ الله، كما نصّ النبي ـ إنظرهامش ٢ ص٣٧ من هذاالكتاب ـ فسكت مسلم ترفّعاً «وأخذ مسلم لا يكلّمه» ـ بتعبير الطبري ورواية المفيد وابن الأثير ـ وجاء أنّه ـ بعد تمادي ابن زياد في شتم آل البيت النبوي ـ ردّ عليه بمعهود منطقه الرصين:

«أنت و أبوك أحقّ بالشتيمة منهم (آل محمّد صلّى الله عليه وآله) فاقض ما أنت قاضٍ، فنحن أهل بيت موكل بنا البلاء(١). إقض ما أنت قاضٍ يا عدوّ الله»(٢). حينها أعلن ابن زياد انتقامه بإعدامه، ولكن كيف أمر بأن يقتلوا مبعوث العقيدة؟!.

أوَ فخراً عند الموت؟!:

طالما تكرّرت الترحيبات الحارّة بالنهاية الحُرّة، علىٰ لسان رجل الإسلام الباسل، سواء خلال الإشتباكات المسلّحة أو أثناء معركة الكلمة، وهذهِ شذرات من تحدّياته وترحيباته الأريحية:

---

(١) الفتوح: ٥/١٠٢.

(٢) الأعيان للأمين: ج٤ ق١ ص ١٧٤.

- أقسمتُ لا أُقتل إلّا حُرّا.
- هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع.
- فصبراً لأمر الله جلّ جلاله.
- أتظنّ يا ابن الأشعث أنّي اعطي بيدي أبداً وأنا أقدر على القتال؟! لا والله ما كان ذلك أبداً.
- إن قتلتني فقد قتل من هو شرٌ منك من كان خيراً منّي.
- فاقض ما أنت قاضٍ يا عدوّ الله.
- إنّك لا تدع سوء القتلة، وقبح المثلة، وخبث السريرة، ولؤم الغلبة.
- و أنا أرجو أن يرزقني الله الشهادة على يد شرّ بريّته.
- و سيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون.

لا غرو أو غرابة، فهذهِ هي سيرة اليقين لدى أقطاب الرسالة الأفذاذ، الذين بلغوا شأواً من الكمال والرقي في النظر إلى الحياة الدنيا، زهداً بها واعتزازاً بالفوز مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أُولئك رفيقاً.

إنّ حكم الإعدام الصادر ضدّه، لم يكن غريباً ولا مفاجئاً، بيدّ أن تنفيذه كان بكيفية انتقامية قاسية، وهي بأن يلقوا بالضحية العظيم من أعلى القصر الى الأرض، إشباعاً لغريزة الانتقام، وإرواءً لروح الحقد الدفين.

أوكل ابن زياد تنفيذ العملية الى أحد الجلاوزة الجرحى خلال إشتباكات الشوارع كما قيل واختيار هذا الجريح ـ بفرض صحة الخبر ـ يأتي إمعاناً بالتشفّي ومبالغة بالتنكيل.

كان البطل يصعد سلالم القصر وسط حشد من الجلاوزة القتلة، شامخ الأنف راضياً مرضياً بخضاب دماء جراحهِ، مقتنعاً بالقدر الإلهي الآتي، مغتنماً آخر فرصة من عمره ـ العامر بالتعبّد والتهجّد ـ لكي يُسَبّح الله ويحمده

ويستغفره شاكراً له على حسن بلائه، شاكياً إليه سوء الناس وسيّئات مواقفهم، إذ كان: يُكبِّر ويستغفر، ويصلّي على ملائكة الله ورسلهِ، وهو يقول: اللهمّ احكم بيننا وبين قوم غرّونا وخذلونا»(١).

أطلّوا به من أعلى القصر، و كان الناس يتجمّعون ويتساءلون عمّا سيكون، إذ فوجئوا بجسدٍ مضمّخ بالدماء يهوي من فوق القصر إلى الأرض يتبعه رأسه الشريف الذي هوى خلفه، فسالت الدماء كل مسيل، والناس من الأمر في ذهول، ينظر بعضهم الى بعضٍ «نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ»(٢).

نزل القاتل مرعوباً فزعاً من شيء لاحظه، فسأله ابن زياد عن قلقه: ما شأنك ؟ أقتلته؟ قال باضطراب وتلعثم: نعم، أصلح الله الأمير إلا أنّه عرض لي عارض فأنا فزع مرعوب! فسأله ساخراً: ما الذي عرض لك ؟ فقال بارتباك وقلق: رأيت ساعة قتلته رجلاً حذاي (بجانبي) أسود كثير الشعر كريه المنظر، وهو عاضّ على اصبعيه، أو قال شفتيه (باشتباه الراوي) ففزعت منه فزعاً لم أفزع قط مثله!! فضحك ابن زياد وعقّب مبتسماً مستهزءً بقوله:

«لعلّك دهشت! وهي عادة لم تعتدها قبل ذلك !»(٣).

يبدو جليّاً أن ابن زياد معتاد على تلك العادة ـ عادة قتل الأتقياء الأنقياء الصلحاء الأحرار ـ حتى بلغ درجة لا يستغرب معها حدوث هذهِ الظاهرة المرافقة له دوماً في كل جريمة والملازمة لروحه في كل جناية دمويّة بشعة كان يقدم عليها. ففيما كان الله عزّوجل يملي للظالمين ويمهلهم كان ابن زياد قد مرَّ بعدة حالات نظير تلك الحالة، بفعل تسليط الله الجبّار مخلوقاً بشع الشكل

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٨٣.

(٢) سورة محمّد: ٢٠.

(٣) الفتوح لابن اعثم: ٥/١١١.

رهيب الهيئة، يسلب من النفس الشريرة توازنها واستقرارها، ويسلّط الله المنتقم الضغط النفسي والروحي بشدّة تثير الرعب ليتعذّب في الدنيا إلى حين، وقد يحدث هذا الإرهاب الإلهي للمجرمين في ليالي متعاقبة بعد الجريمة(١)... «وهذه عادة لم تعتدها قبل ذلك!» «إنّما يُريدُ الله أنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها في الدُنْيا»(٢) «وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ العَذابِ الأدْنىٰ دُونَ العَذابِ الأكْبَر»(٣). ذلك العذاب العظيم الذي لن يتحوّل الى عادة يعتاد عليها المتعوّدون على الإثم والعدوان «وَلَوْ يَرَى الذينَ ظَلَمُوا إذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً، وَ أنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذاب، إذْ تَبَرَّأَ الَّذينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبابُ»(٤).

كما سأل ابن زياد جلاوزته الذين شهدوا و شاركوا بتنفيذ الجريمة: «ما كان يقول وأنتم تصعدون به؟» أجاب القاتل بنفسه: «كان يُكبِّرُ ويسبّح ويستغفر، فلما أدنيته لأقتله قال: اللهمّ احكم بيننا وبين قوم كذبونا وخذلونا وقتلونا. فقلت له: أدنُ منّي، الحمد لله الذي أقادني منك، فضربته ضربة لم تغنِ شيئاً فقال لي: أمَا ترىٰ فيَّ خدشاً تخدشنيه وفاء من دمك أيّها العبد؟!»(٥).

فعجب ابن زياد لهذا التفاخر و التسامي بهكذا موقف في ساعة الموت، وذهل لشخصيّة هذا القائد البطل، واندهش لشأن هذا الضحية العظيم، فأفلت لسانه معجباً بقوله:

---

(١) تناولنا هذهِ الحالة في بحث مستقل خاص بـ«ظاهرة تأنيب الضمير لدىٰ أعداء آل محمّد» لأنها حالة متكررة عبر التاريخ وذات دلالات بالغة الأهمية.

(٢) سورة التوبة: ٨٥.

(٣) سورة السجدة: ٢١.

(٤) سورة البقرة: ١٦٥ و ١٦٦.

(٥) تاريخ الطبري: ٤/٢٨٣- ٢٨٤.

«أوَ فخراً عند الموت؟!»(١).

أجل، مضىٰ مسلم حسبما اشتهىٰ محقّقاً قَسَم حُبّ الحرية الكاملة للذات، والعبودية المطلقة لله، والتفاني التام«لقضايانا العقائدية»ومبادئ الدين المفدّىٰ مضىٰ رمز المفاخر الخالدة ـ باعتراف العدوّ والصديق ـ قاطعاً مراحل حياته وأدوار جهادهِ بالعزّ والإباء والتحدّي والفخر حتىٰ «عندالموت!».

(١) مروج الذهب: ٣/ ٧٠والطبري: ٤/ ٢٨٤.

الفصل الثاني

إعدام المجاهد هانىء بن عروة

«الىٰ الله المعاد، اللهمّ الىٰ رحمتك و رضوانك، اللهمّ اجعل هذا اليوم كفّارة لذنوبي، فاني، إنما تعصّبت لابن بنت نبيّك محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم».

المجاهد الجليل هانىء

محاولة لانقاذهِ:

تفشىٰ الذعر بين الناس المتخاذلين، الخائبين في تحقيق آمالهم بالخلاص، وأحسّوا بدورهم الانهزامي حين تخلّوعن التكليف حيال القضية، ليشعروا بأنهم هم المسؤولون عمّا جرىٰ لممثل الامام الحسين «عليه السّلام»، إذ تفرقوا وانصرفوا الى بيوتهم، جراء توجيه تهديدات الحكومة التي تسندها قوة الشام المركزية، والتي تستمد «شرعيتها الأموية» من يزيد «خليفة» أبيه.

رأى ابن زياد أن يعزز الفزع، و ذلك باصدار حكم الإعدام بحق نخبة من المجاهدين الكوفيين الذين اعتقِلوا، وكان أهمهم واكبرهم المجاهد الجليل هانئ بن عروة، رغم سِنّه الذي ناهز على التسعين ـ قيل كان تسع وتسعون عاماً ـ فما اقتصر الوالي علىٰ السجن المؤبد للمجاهد، طالما أن سلطته آمنة من مخاطر

مذحج المقيدة بأوامر ابن الحجاج الزبيدي وأمثاله من المتواطئين مثل «كثير بن شهاب المذحجي» وغيره، وطالما كان يروم إذلال القبيلة وسلب فاعلية إرادة قوىٰ القبائل، مع إسقاط اعتبار زعمائها المعارضين للتسلّط الأموي، فأصدر حكمه بالقضاء علىٰ شخص هذا الزعيم العنيد.

و بما أن «محمد بن الأشعث» كان ثالث الثلاثة الذين استدعوا هانىء واستدرجوه الىٰ القصر، فقد خشي من نقمة أفراد مذحج الذين سيتعرضون لسيوفهم، مما دعاه للتوسط لدىٰ ابن زياد، علّه يثنيه عن قتله، بأن يهب حياته له من أجل سلامته من النقمة والثأر، فراح يتوسّل في محاولة مضطربة، حين قام بقلق وارتباك ، ليقول:

«أصلح الله الأمير، إنك قد عرفت شرفه في عشيرته، وقد عرف قومه أني وأسماء بن خارجة جئنا به إليك. فأنشدك الله أيها الأمير إلا وهبته لي، فإني أخاف عداوة أهل بيته، وانهم سادات أهل الكوفة، واكثرهم عددا»(١) «وهم أعزّ أهل المصر، وعدد أهل اليمن»(٢).

فما كان من «الأمير» إلا أن نهر ابن الأشعث وأهانه ليجلسه بمكانه ساكتاً محتقراً، إذ لا قيمة له ولإسماء بن خارجة. واقتيد القائد المذحجي البطل الىٰ حيث مصرعه الجليل، ومما يدلّ علىٰ اطمئنان السلطة بكامل تحكّمها بزمام مذحج، هو حال إخراجه لإعدامه علناً وفي أحد الأسواق القريبة للقصر وكان مكتوف اليدين، إذ استاء المجاهد الطاعن بالسن، وأسف لغياب قبيلته التي أخذ يناديها:

«وامذحجاه. ولا مذحج لي اليوم. وامذحجاه واين مني مذحج!»(٣).

---

(١) الفتوح لابن أعثم: ١٠٤/٥.

(٢)و(٣) تاريخ الطبري: ٢٨٤/٤.

في ذلك الوقت طبعاً، قام ابن الحجاج الزبيدي باجراءاته اللازمة من تجميع المذحجيين، تجنّباً لإنقاذ سيّدهم المجاهد أولاً، ولإخضاعهم للأمر الواقع إستسلاماً لإرادة السلطة، فلا يُحدث بعضهم ردود فعل شديدة لدىٰ وصول خبر الإعدام ثانياً.

«فلما رأىٰ (هانىء) أن أحداً لا ينصره، جذب يده فنزعها من الكتاف، وهو يقول متلفتاً: أما من عصا أو سكين، أو حجر، أو عظم يحاجز به رجل عن نفسه؟ فوثبوا إليه فشدّوه وثاقاً»(١) ثم قالوا له: أُمدد عنقك. فأجابهم برباطة جأش: «لا والله ما كنت بالذي أُعينكم علىٰ نفسي»(٢). وتقدم اليه جلّاد يدعىٰ «راشد التركي» ليضربه ضربة لم تصبه، فوطن الشيخ الجليل نفسه علىٰ الإستشهاد، مناجياً ربّه تقرّباً اليه بروح المحنة ويدعوه بمعنى الموقف وسرّ القضية:

«الىٰ الله المعاد، اللهمّ الىٰ رحمتك و رضوانك، اللهمّ اجعل هذا اليوم كفّارة لذنوبي، فإني إنما تعصّبت لابن بنت نبيّك محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم»(٣).

سحل الشهيدين ـ وتبشير يزيد:

بأمر الوالي قام الشرطة بشدّ الحبال في أرجل الشهيدين الجليلين، وجرت عملية سحل الجثتين الداميتين في السوق والشوارع والأزقة، تنكيلاً بهما وبقضيّتهما، وإرهاباً للجمهور الخائب المتخاذل عن نصرة أهدافه المنشودة. وليست هذهِ العملية الأُموية الوحيدة المعيبة التي يندىٰ لها الجبين البشري،

---

(١) تاريخ الطبري: ٤/٢٨٤.

(٢) الفتوح لابن أعثم: ٥/١٠٥.

(٣) نفس المصدر السابق.

لكنها أول عملية من نوعها في التاريخ الاسلامي، يتمّ بها سحب أجساد الشهداء وسط الشوارع والطرقات.

كما سُلب «مسلم» جميع ما علىٰ جسدهِ مع الأسلحة، سلبه المدعو «محمد بن الأشعث» الذي فضحه ـ أحد معاصريه ـ مستنكراً فعلته ومواقفه بقوله:

و تركت عمّك (١) أن تقاتل دونه فشلاً، ولو لا أنت كان منيعا

و قتلت وافد آل بيت محمَّدٍ و سلبت أسيافاً له ودروعا (٢)

و بأمر ابن زياد عمدوا الىٰ صلبها قرب القصر وتحت حراسة مشدّدة، وعليه فهناك ثلاث حالات اقترفتها السلطة تجاوزاً علىٰ الإسلام، كما تنبّأ المجاهد «مسلم» بنظره الثاقب خلال ردوده علىٰ ابن زياد، الحالة الاولىٰ: أنه أُلقي من أعالي القصر الىٰ الأرض. الثانية: السحل في الشوارع ـ هو وهانىء ـ. الثالثة: صلبهما لعدة ايام.

و مما يسترعي الانتباه هنا، هو عمق إحساس المبعوث مسلم و دقة إدراكهِ لطبائع الطغاة المنطوية علىٰ لذة التمثيل والتنكيل بجسد الضحية. الأمر الذي دعاه لينصّ في وصيّته ـ المذكورة سابقاً ـ علىٰ أن يدفن جسده بعد مقتله. علماً أنه خاطب خصمه «الوالي الأُموي» مؤكداً علمه التامّ بخصائصه الموروثة والمكتسبة النفسانية والسلوكية، حين قال له: «أما أنك أحقّ من أحدث في الاسلام ما لم يكن فيه، أما أنك لا تدع سوء القتلة، وقُبح المثلة، وخبث

---

(١) يعتبر ابن الاشعث من القبائل اليمنية التي منها المجاهد هانىء أيضاً، وفي رواية يقول الشاعر «وتركت ابن عمك أن تقاتل دونه...».

(٢) مروج الذهب للمسعودي: ٦٨/٣، وأنساب الاشراف للبلاذري: ٨٦/٢ وليس السلب بأمر مستغرب علىٰ محمد بن الأشعث، أو عائلته المعروفة بهذهِ الأفعال، فابنه عبدالرحمن هو «الذي سلب الحسين بن علي قطيفة (بكربلاء) فسماه أهل الكوفة: عبدالرحمن قطيفة». مختصر البلدان لابن الفقيه: ص١٧٢، ط ليدن.

السريرة، ولؤم الغلبة...»(١).

* * *

لقد تمّ تجهيز الرأسين الكريمين للشهيدين ليرسلا بالبريد الى دمشق، وقيل بوجود رأس ثالث في البريد، هو رأس المجاهد «عمارة بن صلخب الأزدي» -سنذكره لاحقاً- حمل هذا البريد كلاً من «الزبير بن الأروح، وهانئ بن أبي دحية» أمرهما ابن زياد بالانطلاق الىٰ الشام، وقد غمرته فرحة الغلبة، وهو يسلّمهما رسالة خاصّة كتبها ليزيد، فيما يلي نصّها:

«أما بعد: فالحمد لله الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقه، وكفاه مؤونة عدوه... أُخبر أمير المؤمنين أكرمه الله، أن مسلم بن عقيل لجأ الىٰ دار هانيء بن عروة المرادي، واني جعلت عليهما العيون، ودسست اليهما الرجال، وكدتهما حتىٰ استخرجتهما وأمكن الله منهما، فقدمتهما فضربت أعناقهما، وقد بعثت اليك برأسيهما، مع هانيء بن أبي دحية الهمداني، والزبير بن الأروح التميمي، وهما من أهل السمع والطاعة والنصيحة. فليسألهما أمير المؤمنين عما أحبّ من أمر، فإن عندهما علماً وصدقاً وفهماً وورعاً»(٢).

فهِمَ يزيد مضمون الرسالة، ومعنىٰ «الورع» الأموي، ففرح بذلك وبالهدية المتمثلة برأسي الشهيدين، فكتب اليه مشجعاً إياه مشوقاً له علىٰ إنجاز الكثير من تلك الأعمال، وتقديم المزيد من هذهِ الهدايا، مع مواصلة الرسائل دون انقطاع، مادحاً ابن زياد علىٰ مكائدهِ و «ورعه» الملموس، مشدّداً عليه بتطبيق سياسة «الأخذ علىٰ التهمة» من باب «التحرّج والورع» علىٰ العرش،كان نصّ رسالته الجوابية كالآتي:

---

(١) تاريخ الطبري: ٥٨٣/٤.

(٢) تاريخ الطبري: ٥٨٥/٤، والارشاد: ص٢١٧، والفتوح لابن أعثم: ١٠٨/٥ بتفاوت لفظي يسير.

«أما بعد: فإنك لم تعد أن كنت كما أُحب، عملت عمل الحازم، وصُلْتَ صولة الشجاع الرابط الجأش، فقد أغنيت وكفيت، وصدقت ظني بك ورأيي فيك، وقد دعوت رسوليك فسألتهما وناجيتهما، فوجدتهما في رأيهما وفضلهما كما ذكرت، فاستوص بهما خيراً.

و أنه قد بلغني أن «الحسين بن علي» قد توجّه نحو العراق، فضع المناظر والمسالح، واحترس على الظن، وخذ على التهمة، واكتب اليّ في كل ما يحدث من خبر»(١) «... في كل يوم بما يتجدّد لك من خير أو شر»(٢).

* * *

و لمقتلهما -مسلم و هانئ- على يد ابن زياد، ثارت عواطف الرجال، وجزع الأحرار، فاندفع بعضهم ليثير حمية مذحج ونخوتها، كي تنتقم لكرامتها من ابن زياد، فقال أبو الأسود الدؤلي مثلاً:

أقول: وذاك من جزع ووجد ... أزال الله ملك بني زياد
هم جدعوا الأُنوف وكن شمّاً ... بقتلهم الكريم أخا مراد(٣)

و مما قاله الأخطل بن زياد:

و لم يك عن يوم ابن عروة غائباً ... كما لم يغب عن ليلة ابن عقيل
أخو الحرب صراها، فليس بناكل ... جبّار، ولا وجب الفؤاد ثقيل(٤)

بينما حفل المقطع التالي، بروح تحريض شديد اللهجة على القبيلة، مستنكراً الصمت المخزي حول ما يجري، مصوّراً الجريمة الدامية النكراء،

---

(١) الارشاد: ص ٢١٧-٢١٨.
(٢) الفتوح: ٥/١٠٩.
(٣) أنساب الأشراف: ٢/٨٤.
(٤) أنساب الأشراف: ٢/٨٥.

تصعيداً لحرارة الانتقام وتعجيله، وقدأخفى قائلها اسمه تحسّباً لردود فعل اموية.

اذاكنت لا تدرين ما الموت فانظري ... الىٰ هانئ في السوق وابن عقيل

الىٰ بطلٍ قد هشّم السيف وجهه ... وآخر يهوي من طمار قتيل

تري جسداً قد غيّر الموت لونه ... ونضح دمٍ قد سال كل مسيل

فتى كان أحيىٰ من فتاة حيية ... وأقطع من ذي شفرتين صقيل

وأشجع من ليث بخفّان مصحر ... وأجرء من ضارٍ بغابة غيل

أصابهما أمر الأمير فأصبحا ... أحاديث من يسري بكل سبيل

أيركب أسماء(١) الهماليج آمناً ... وقد طلبته مذحج بذحول

تطوف حواليه مراد، و كلّهم ... علىٰ رقبة من سائل و مسول

فإن أنتم لم تثأروا لأخيكم ... فكونوا بغايا أُرضيت بقليل(٢)

و قد استطاع ـ فيما بعد ـ أحد المتحمّسين المذحجيين من الثأر لدم المجاهد هانئ، وهو «عبدالرحمن بن الحصين المرادي» الذي حضر واقعة خازر بالموصل، يوم انتصار المجاهد «المختار الثقفي» علىٰ ابن زياد، إذ سمع «عبدالرحمن» قائلاً يقول: «هذا قاتل هانئ بن عروة» وكان يبحث عنه، فظفر براشد التركي وحمل عليه فطعنه بالرمح(٣) فقتله.

وانشأ يقول مترنّماً:

---

(١) إنه يذكر «اسماء بن خارجة» فقط لإنه بصدد استفزازه للقبيلة وتحريضها، ولم يذكر الآخرين اللذين شاركا أسماء في استدعاء هانئ والغدر به، لأن ابن الحجاج وابن الاشعث ـ في تصور الشاعر الثائر ـ لا يحسن التحريض ضدهما لما في ذلك من تهديد لوحدة صفّ مذحج واليمنيين عموماً.

(٢) الخوارزمي، مقتل الحسين: ٢١٥/١، وقد وردت هذهِ الأبيات في المصادر التاريخية بتفاوت ملحوظ، كما اختلفت الآراء بشأن قائلها، انظر: الطبري، والمفيد، وابن اعثم، والمسعودي، والدينوري، وابن كثير، وابن الأثير، الذي ذكر نسبتها للفرزدق الشاعر المعروف.

(٣) تاريخ الطبري: ٢٨٤/٤.

إني قتلت راشد التركيّا
ولّيته أبيض مشرفيّا
أُرضي بذاك الله والنبيّا(١)

بعد إهداء الرأسين الكريمين ليزيد، اختفت آثارهما، ولم يعرف مصيرهما. لكنّ ثمّة خبر يخصّ رأس الشهيد هانئ، فقد تبيّن مكانه بعد مائتين وأربعين سنة تقريباً سنة ٣٠٤للهجرة ـ حين تمّ العثور على خمسة آلاف رأس موجودة بعناية خاصة في أحد أبراج سور «القندهار» موضوعة داخل سلال من الحشيش، أمكن معرفة (٢٩) رأساً منها فقط، حيث كان في أُذن كل رأس من تلك الرؤوس رقعة مشدودة بخيط من الابريسم باسم صاحب الرأس، أحدها كان رأس «هانئ بن عروة». أما تاريخ وصول تلك الرؤوس الى البرج، فهو سنة (٧٠) للهجرة ـ كما سُجل على الرقاع ـ (٢) أي بعد عشر سنوات من استشهاد هانئ .

يبدو لنا أن عدم دفن تلك الرؤوس، والحرص على إبقائها تحت عناية خاصة بمختلف السبل والفنون، إنما هو لون من ألوان السلوك المطبوع عليه الجبابرة، وضرب من ضروب طبائع الطغاة، الشغوفين بتخليد آثار أعمالهم القائمة على الفتك والبطش وفق الكيد والمكر المنصوب للضحية، تلك الطبائع التي تميل الى تأكيد أعمالها الفخورة بها، وذلك بالابقاء على الشواهد الدالّة عليها، وحفظها كرمز للغلبة وقدرة الغالب ضدّ كل من يتحدّى أو يعارض جبروتهم،فهي عملية تصوير لأحداث سلفت لم يخلّدها رسّامون ونحّاتون بفنونهم الخاصة، إشباعاً للطباع المتعطّشة لإثبات الوجود بالممارسات الدموية

(١) أنساب الأشراف للبلاذري: ٨٣/٢.
(٢) انظر تاريخ الطبري / الجزء الثامن / صلة تاريخ الطبري / حوادث سنة ٣٠٤ للهجرة.

الضاربة، معبّرة عن لا أُبالية حيال قيم الاسلام... فهذهِ الرؤوس تتبادل كهدايا، وتنقل من مكان الىٰ آخر في خزائن أو أبراج أو غرف خاصة، مصداقاً لآثار تجبّر المتجبّرين.

لقد كان «هانئ بن عروة» من كبار رجالات العقيدة الراسخة المعروفين في الكوفة، ومن المؤمنين الأشدّاء والمجاهدين الاجلّاء، إذ لم يبخل في البذل والعطاء رغم شيخوخته وبلوغه من الكبر عتيا.

الفصل الثالث

بقية المجاهدين الأحرار

كان فيهم المراسل أو الجندي المجاهد و الفارس القائد، وكان فيهم الجدلي واليزدي، وكان الهمداني والكندي والحميري والصائدي. فهم يختلفون سناً ويتفاوتون رُتباً ويتباينون نسباً، بيدَ أنهم موحّدون ربّاً ومتوحّدون ديناً ومتّحدون هدفاً «رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه».

الاعتقالات الموسّعة:

أسفر نشاط الشرطة و العرفاء و عموم النفعيين والانتهازيين، عن إلقاء القبض علىٰ الكثير من المنخرطين في الحركة، منذ بدأ حصار القصر ينهار ويتداعىٰ، وقبل استشهاد المبعوث الحسيني. فكانت أوسع عمليات اعتقال الناس، هي عملية رفع رايات الأمان الخادعة، التي من دخل تحتها فهو آمن. ولعلّها أوسع عمليات الاعتقال التي مرّت علىٰ عموم الكوفيين، وخصوص الملتزمين بخط آل محمّد «صلّى الله عليه وآله وسلّم»، الذين تستهدفهم هذه الاعتقالات الموسّعة، في محاولة محمومة للتفتيش عن تلك العناصر ذات الولاء الشديد للبيت النبوي العظيم.

حسبنا الاشارة الى أن عدد المعتقلين قد تجاوز المئات،الى عدة آلاف تحت ظروف سيّئة لسجون رطبة تفتقر للشروط الصحية اللازمة.

إن تفسير اتساع نطاق القبض علىٰ التهمة والظنّة والشبهة، وسرّ امتلاء السجون بمن يُتوقع ولاءهم لآل الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم»، -رغم تفرق الحركة بتخاذل الناس- يكمن في قلق السلطة لتحسبها من مشاركتهم في نصرة الامام الحسين القادم وشيكاً -في الطريق-، وقد ولّد حبسهم يأساً مريراً من فرصة الاسهام في الجولة الثانية بقيادة سبط رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم». لقد مكثوا طويلاً في السجون الأموية تعتمل بداخلهم روح التمرد والثأر، حتىٰ أفلحوا -فيما بعد- بتفجير اكثر من ثورة ضدّ السلطة، وبمشاركة عامة جمهور الكوفة، فكانت «ثورة التوابين» وثورة «المختار الثقفي» وغيرهما.

لا يوجد رقم تقريبي عن إحصائية السجناء، ولا قائمة بأغلب أسمائهم، غير أننا لا نعدم تسجيل أسماء أبرز وجوه الجهاد الذين سجنوا لأن المبرزين -عادة- لا يغفل الرواة ذكرهم:

- سليمان بن صرد الخزاعي: من كبار المجاهدين، حوصر في داره، وفرضت عليه إقامة إجبارية تحت حراسة مشدّدة، ثم نُقل الىٰ السجن فبقي عدة سنوات، لينطلق -بعدها- قائداً لـ«ثورة التوابين» المعروفة.
- المختار بن أبي عبيدة الثقفي: مجاهد كبير، قاد الفيلق ذو الراية الخضراء، ليلتحق بالمحاصرين للقصر، لكنه سمع بتفشي التخاذل وقد أُلقي القبض عليه فأُودع السجن، ومنه انطلق بثورته الشهيرة، وقد حاك أعداؤه حوله شبهات لإسقاط شخصيته.
- عبدالله بن نوفل بن الحارث: قائد الفيلق ذو الراية الحمراء وهو من المجاهدين الاجلّاء.
- الأصبغ بن نباته: مجاهد كبير معروف.

- العباس بن جعدة الجدلي: قائد من القواد الأربعة للحصار.
- عبيدالله بن عمرو بن عزيز الكندي: أحد القادة الأربعة للحصار.
- عبد الأعلىٰ بن يزيد الكلبي: من الشبّان الكوفيين المعارضين بشدة.
- عمارة بن صلخب الأزدي: من الشبّان المتحمّسين للثورة أيضاً.
- المسيّب بن نجبة الفزاري: قائد سابق للفيلق السابع في جيوش الامام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب «عليه السّلام»، سجن عدة سنوات و خرج ثائراً.
- رفاعة بن شداد البجلي: قائد سابق كالمسيّب، سُجن طويلاً.
- عبدالله بن والي الربيعي: قائد سابق كالمسيّب، سجن طويلاً.
- عبدالله بن سعد بن نفيل الأزدي: من القادة السابقين أيضاً.
- ميثم بن يحيىٰ التمّار: من المجاهدين العلماء الصالحين، عاد من الحجاز فأُلقي عليه القبض، ولم يدم سجنه كثيراً لأنه أُعدم ـ كما سنذكره في عداد الشهداء ـ.

اولئك هم من أشهر المجاهدين المبدئيين الكوفيين، الذي ضمّتهم جدران السجون الضيّقة. فيما اختفت أسماء آلاف السجناء الكوفيين الذين شملهم الاعتقال الواسع.

موكب الشهداء:

فيما يلي موجز عن جملة من شهداء الحركة في الكوفة:

- عبيدالله بن عمرو بن عزيز الكندي: كان تابعياً شجاعاً، من فرسان الكوفة ورؤسائها المبرزين. صحب الامام أمير المؤمنين طوال جهاده المتواصل. أُخرج من السجن ليقتل، سأله ابن زياد: ممن أنت؟ قال المجاهد البطل: من كندة. فسأله: أنت صاحب راية كندة وربيعة؟ أجابه دون وجل: نعم. فأمر شرطته بضرب عنقه، ومضىٰ البطل شهيد العقيدة والقضية.

● العباس بن جعدة الجدلي: كان تابعياً جليلاً، من أبطال الكوفة، يتمتع بشخصية فذة أهّلته لتسنّم منصب عسكري رفيع. قتله ابن زياد بعد سجن قصير الأمد.

● عبد الأعلىٰ بن يزيد الكلبي: تابعي جليل، و من شجعان الكوفة، لبس سلاحة ليلتحق بالحركة أثناء حصار القصر، وفي طريقه باتجاه محلّه «بني فتيان» أُلقي عليه القبض، من قبل كثير بن شهاب، وبعد سجن قصير الأمد، أُخرج للقتل، وجرىٰ بينه وبين ابن زياد كلام نفىٰ فيه التهم الموجّهة اليه، فقال ابن زياد: «انطلقوا بهذا الىٰ جبانة السبيع، فاضربوا عنقه».

● عمارة بن صلخب الأزدي: من التابعيين الكوفيين، و أحد وجوه الجهاد في المجتمع، ألقىٰ عليه القبض محمد بن الأشعث وجلاوزته قرب داره بعد ما تفرق الناس، أخرجوه بعد سجن قصير ليقتلوه سأله ابن زياد: ممن أنت؟ قال: من الأزد، فقال: انطلقوا به الىٰ قومه فاضربوا عنقه . تنكيلاً بالأزديين وإمعاناً بإذلالهم،والشهيد عمارة هو الذي قيل عنه بأن رأسه أُهدي الى يزيد مع رأسي الشهيدين «مسلم وهانئ».

● ميثم بن يحيىٰ التمّار: أحد حواريّ الامام أمير المؤمنين عليّ «عليه السّلام»، تتلمذ علىٰ يديه فحصل منه على علم جم ومعارف واسعة كتفسير القرآن الكريم، وأسرار تأويله وناسخه ومنسوخه.

كان المجاهد «ميثم التمّار» في مكة، و التقى بأُم المؤمنين السيدة «أُم سلمة»، ولدىٰ عودته الىٰ الكوفة، أمر ابن زياد بإلقاء القبض عليه ليودع في السجن، فالتقىٰ برفاق الجهاد العقائدي ممن سبقوه الىٰ السجن، كالبطل «المختار الثقفي» الذي دار بينه وبين ميثم أحاديث، أخبره ميثم خلالها عما أعلمه به الامام علي عن رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم» بأنه -أي المختار- سيخرج فيما بعد من السجن ثائراً يعاقب المنحرفين القتلة ويقضي علىٰ ابن

زياد، وهي بشرىٰ عزيزة مليئة بالثقة العالية احتفظ بها المختار للمستقبل الآتي، وفعلاً تحققت علىٰ يده ثورة كاسحة ـ كما أخبر النبيّ عليّاً ـ.

أُخرج «ميثم التمار» ليوقفوه أمام ابن زياد، الوالي المملوء غطرسة واستعلاء أمام ضحاياه العزّل، تساءل بسخرية لاذعة عما سمعه بأن الامام عليّ أخبر ميثم عن قاتله وكيفية مقتله، أجابه بالايجاب دون تردد، أن مولاي الصادق الصدوق أمير المؤمنين أخبرني بذلك، وأن يداه ورجلاه ولسانه ستقطع قبل مقتله علىٰ يد «العُتِلّ الزنيم ابن الأمة الفاجرة عبيدالله بن زياد»(١) قالها له علناً وجهاً لوجه بنبرة قوية، فاستشاط ابن زياد من هذهِ الجرأة والشجاعة غير المتوقعة بهذهِ الصراحة، فراح يرعد ويهدّد متهكّماً بالقول: «لأكذبنّ مولاك ! فأدع لسانك، واقطع يديك ورجليك». وأشار الى جلاوزته بالتنفيذ.

بعد قليل كان المجاهد الجليل مقطّع الأطراف وسط بركة من الدماء. ثم حملوه فصلبوه علىٰ جذع نخلة، وهو مازال رهن معنويّته العظيمة، حيث اتخذ من الجذع المصلوب عليه منبراً، راح يلقي من فوقه خطباً تميط اللثام عن حقائق الانحراف الأموي، ويُذكر الجمهور ـ الذين تحشدوا حول الخطيب المصلوب ـ بنظام العدالة العلوية، كي لا ينسوا حقائق حكم الامام علي «عليه السّلام». فلما رأته السلطة لا يفتأ يضاعف كشف فضائحها، اضطرت الى قطع لسانه، وقبل قطعه ضحك البطل الأريحي طالباً من الجلّاد ـ الذي جاء لقطع لسانه ـ تذكير ابن زياد بعجزه عن تكذيب نصّ الخبر الذي قاله الصدّيق الأعظم عن خاتم الأنبياء والمرسلين «صلّى الله عليه وآله وسلّم» ثمَّ ـ وبعد يومين ـ طعن ميثم التمار بحربة قاتلة ففاضت روحه الى بارئها «رضوان الله عليه وعلى رفاق قضيته»(٢).

---

(١) الارشاد: ص ١٧١، ونفس المهموم: ص ٨٠.

(٢) الارشاد: ص ١٧١، ونفس المهموم: ص ٨٠، وللمزيد راجع كتاب (ميثم التمار شهيد العقيدة ←

● محمد بن كثير الأزدي و ولده: وردت عنه رواية مفادها، أن «مسلم» قضى الليلة الاولى -عقب تفكك الحصار- في داره، ثم أمضى الليلة الثانية والأخيرة في دار «السيدة طوعة». إذ دعي محمد الأزدي الى القصر، فذهب مع ابنه وهما بسلاحهما واشتبكا في داخل القصر بقتال عنيف أسفر عن مصرعهما، والرواية تحتاج الى تأمّل لعدم شهرة مبيت مسلم عنده في تلك الليلة، ولعلّهما استدعيا بسبب ولائهما للحركة وأهل البيت، لا بسبب المبيت.

● حنظلة بن مرة الهمداني: قيل إنه فوجئ بالأحداث لدى عودته الى الكوفة من سفره، فرأى بنفسه جثتي الشهيدين «مسلم وهانئ» يسحبهما الشرطة في الشوارع، مما أثار حفيظته، ليصيح بهم مستنكراً شنيع فعلتهم المخزية، فسألهم عن صاحب الجثة الأولى -وكانت للشهيد مسلم- فقالوا له: «إنه خارجي! خرج على يزيد بن معاوية! فقال: ويلكم بالله عليكم ما يقال له وما اسمه؟ قالوا: هذا مسلم بن عقيل بن عمّ الحسين». فنزل حنظلة من دابته اليهم، مجرّداً سيفه بوجوههم، وهو يردّد كلامه مستاءً من البقاء: «لا خير في الحياة بعدك ياسيدي». فقاتلهم حتى قتل.

الشهداء من المراسلين:

مرّ بنا ذكر المجاهد سليمان بن رزين رسول الامام الحسين الى زعماء البصرة، والذي قبض و قتل فيها، أما شهداء الحركة من المراسلين في الكوفة فهما اثنان:

١ - عبدالله بن يقطر الحميري:

رجل جليل القدر و المنزلة، و يعدّ ممن لهم صحبة، نظراً لولادته في وقت

والايمان) للشيخ محمد حسين المظفر.

ولادة الإمام الحسين، لهذا عُرف بأنه لِدَة الحسين «عليه السّلام»، وكان والده «يقطر» خادماً للنبي «صلّى الله عليه وآله وسلّم» ووالدته «ميمونة» خادمة عند بنت النبي البتول سيدة نساء العالمين، فوالده إذن صحابي كبير، ورد ذكرهما هو و أبيه في الإصابة للعسقلاني، وأُسد الغابة للجزري وغيرهما. وقد رافق عبدالله الركب الحسيني ليجاهد، فرشحه الإمام لحمل رسالة خاصة الىٰ مبعوثه في الكوفة، فانفصل عن الركب في الطريق لتأدية مهمّته... وبما أن السلطة قد سيطرت على الوضع، وشدّدت الحراسة علىٰ الطريق، ووضعت المسالح والمراصد، فقد حوصر المراسل وقبض عليه، فاقتيد الىٰ داخل الكوفة، ثم أدخلوه علىٰ الطاغية الذي طلب منه أن يصعد المنبر ويعلن شتم الامام علي والحسين «عليهما السّلام» فصعد الأسير مرتقياً المنبر وأطلّ على الناس، فألفت انتباههم، ثم نطق برباطة جأش ماقاله مما سجله التاريخ بفخر واعتزاز:

«أيها الناس: إني رسول ابن فاطمة بنت رسول الله «صلّى الله عليه وآله وسلّم»، لتنصروه، وتوآزروه علىٰ ابن مرجانة ابن سمية، الدعي بن الدعي...»(١).

فالتفّ حوله الجلاوزة ليقطعوا عليه كلامه، فما كان ثابتاً لم يرتبك لا في كلماته ولا في نظراته، وشدّوه وكتفوه، وقد صدر حكم الأمير الذي لا يملك أن ينفي كونه دعي ابن دعي، بل يملك التكثيف والرمي من أعلىٰ القصر، فرموه مكتوفاً مشدود الوثاق. ولم يمت إذ بقي به رمق، فجاءه المدعو عبدالملك بن عمير اللخمي فأجهز عليه بمديته، فلما عيّروه وعابوا عليه، قال اللكع مبرّراً فعلته بأنه أراد أن يريحه. وهذا من قضاة العهد الأُموي في الكوفة!.

---

(١) الطبري ٤/٣٠٠.

٢ ـ قيس بن مسهر الصيداوي:

و قد مرّ ذكره عدة مرات في عدة مهام و أدوار، إذ حمل مجموعة رسائل من الكوفة الىٰ الامام بمكة، وحينما تجهّز المبعوث لبعثته كان بصحبته طوال رحلته حتى وصل الكوفة، ورافق المجاهد عابس الشاكري من الكوفة أيضاً الى مكة لإيصال رسالة المبعوث الى الامام السبط.

و بقي مع الامام بمكة حتى خرج منها باتجاه العراق، وهاهو يحمل رسالة الامام من الطريق الىٰ أهل الكوفة، يخبرهم فيها بمقدمه وأنه في الطريق إليهم، ويحثّهم علىٰ الثبات والصمود... ولم يكن قد وصل شيء ما من أخبار الكوفة الى الركب، وفيما كان المراسل الباسل يسعىٰ نحو هدفه لاحظه شرطة الحصين بن نمير وذلك قرب القادسية.

و قد تمكن المجاهد الأسير من تفويت الفرصة على العدو حينما خرّق الرسالة وأتلفها، وأرسلوه مخفوراً الىٰ الكوفة ليوقفوه أمام ابن زياد الذي قال: «من أنت؟ فأجابه قيس: أنا رجل من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابنه عليهما السّلام» فسأله بحدّة: فلماذا خرّقت الكتاب؟ أجابه بشجاعة: لئلّا تعلم مافيه. فجزع وصاح الأمير: ممن الكتاب والىٰ من؟ ردّ المجاهد بكفاءة: من الحسين بن علي الى جماعة من أهل الكوفة لا أعرف أسماءهم. فغضب وصرخ: والله لا تفارقني حتى تخبرني بأسماء هؤلاء القوم، أو تصعد المنبر وتلعن الحسين بن علي وأباه وأخاه وإلا قطعتك إرباً إرباً»(١).

فاختار موقفاً هامّاً حينما اتضح له حبّ العدو بالتشفّي من آل بيت محمّد العظيم «صلّى الله عليه وآله وسلّم»، لقد اختار الصيداوي ـ ظاهرياً ـ سبّ علي

---

(١) بحار الأنوار ٤٤/ ٣٧٠، والأعيان ج٤ ق١ ص ١٨١ ـ ١٨٢.

والحسين عليهما السّلام، فسمحوا له بارتقاء المنبر، بينما هو يرمي الىٰ إعلان بعض مضمون الرسالة وفضح الحكم، وما أن استوىٰ علىٰ المنبر حتى نادىٰ بالناس:

«أيها الناس: إن هذا الحسين بن علي خير خلق الله و ابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله اليكم، وقد فارقته بالحاجز (إسم منطقة في الطريق) فأجيبوه... ثم لعن عبيدالله بن زياد وأباه، واستغفر لعلي بن أبي طالب...»(١) فوقع الناس في ذهول كبير واندهاش شديد من عظمة شجاعة هذا البطل الجريء.

و يعقب أحد المؤلّفين معجباً مكبراً بقوله: «هل تستطيع كل فصاحة البشر، أن تعلّق على هذا الموقف بثناء، أو إطراء، أو تمجيد؟!». «كلّا». «فلنلق نظرة مزدرية على ابن زياد، لنرىٰ ما أنزله به موقف «قيس» العظيم من خزي و إذلال وسعار. لقد جن كالكلب المسعور، وراح يلعن ويرجم شياطينه لأنهم أمهلوه حياً حتى أكمل عبارته القاصمة...ثم أمرهم أن يُلقوا به حياً من أعلىٰ سوره القصر فقذف به، حيث اندقت عظامه، و غربت حياته!!»(٢).

نخبة المختفين:

أما البقية الباقية من المجاهدين المؤمنين، فقد اختفوا في بيوتهم أو بيوت غيرهم تجنّباً لمكر العدو وكيده، ورجاء الإسهام في الجولة الثانية مع الإمام الحسين «عليه السّلام» فمن غير الحكمة أن يظهروا فيعرّضوا أنفسهم الى خطر

---

(١) الطبري ٤/٢٩٧.

(٢) خالد محمد خالد بكتابه (أبناء الرسول في كربلاء).

محتوم لا يجدي قياساً لجدوىٰ ترقّب الإمام والتربّص بالعدو... ولعلّ هؤلاء المختفون هم النسبة الصغرىٰ من الأقلّية الملتزمة بخط الإمام الحسين وأهل البيت النبوي، وقد كانت عملية اختفائهم فردية أو ثنائية، أي لم يكونوا قد اتفقوا جميعهم علىٰ الإختفاء، بل لا يعرف بعضهم مكان البعض الآخر، عدا خمسة أو ستة اتفقوا بمكان واحد علىٰ الخروج من الكوفة سرّاً، لاستقبال الركب الحسيني القادم، وكان منهم مثلاً:

- المجاهد جابر بن الحارث السلماني.
- المجاهد مجمع بن عبدالله العائذي.وغيرهما(١).

و حينما وصل الركب بطحاء كربلاء و استقرّ هناك ، و سمع المختفون بذلك ، طفقوا يخرجون مثنىٰ وفرادىٰ، ومنهم من رافقته عائلته، فالتحقوا سرّاً ـ رغم المخاطر والصعاب ـ من الكوفة الى كربلاء مباشرة، وكان منهم مثلاً:

- المجاهد مسلم بن عوسجة الأسدي ، مع عائلته.
- المجاهد حبيب بن مظاهر الأسدي ، من حواري الإمام علي عليه السّلام.
- أبو ثمامة الصائدي ، المجاهد المعروف بجمع السلاح.
- المجاهد حنظلة بن أسعد الشبامي.
- المجاهدان قاسط بن زهير التغلبي، وأخيه كردوس بن زهير.
- المجاهد جنادة بن الحارث الأنصاري ، وعائلته وولده الذي جاهد حتى استشهد وغيرهم من الأحرار.

و فيما يلي نماذج من الأحرار الذين التحقوا بالإمام في كربلاء، وذلك بدخولهم في صفوف الجيش الأموي الموجّه لحرب الإمام، وهذه الطريقة في

---

(١) تناولنا المختفون جميعاً في كتاب (الدوافع الذاتية لأنصار الحسين) القسم الثالث، ـ طُبع بدار الكتاب اللبناني.

الإلتحاق توحي لنا عن مدىٰ الضيق والخطر لو لحقوا بمفردهم، فاختاروا هذه الطريقة لتأمين وصولهم، ثم قفزوا بشجاعة الىٰ جبهة جند الإمام، وكان منهم مثلاً:

- المجاهد جابر بن الحجاج الكوفي.
- المجاهد ضرغامة بن مالك.
- المجاهدان مسعود بن الحجاج التميمي، وولده عبدالرحمن.
- المجاهدان النعمان بن عمرو الراسبي، وأخيه الحلّاس بن عمرو وغيرهم

ممن نذروا أنفسهم لمواجهة الإنحراف الأُموي، وقد ثبتوا على ما آمنوا به وتبنّوه، وقد قاوموا بقوة ولم يتقهقروا حتىٰ قتلوا، وكل من المختفين في أنواع طرق إلتحاقهم بإمام المجاهدين الكرام قد تعرّضنا لهم في معرض دراستنا للبواعث الذاتية والدوافع العقائدية الرجال الإمام في كتاب (الدوافع الذاتية لأنصار الحسين)

فلم يتخاذل عقائديو الكوفة، ولم ينهزموا أو يهربوا بعد الذي جرى وحدث، كما توهّم البعض. بل هم بين سجين وشهيد، ومختفي يتربص وينتظر، وعليه فيمكن تصنيف المؤمنين الكوفيين المجاهدين كما يلي:

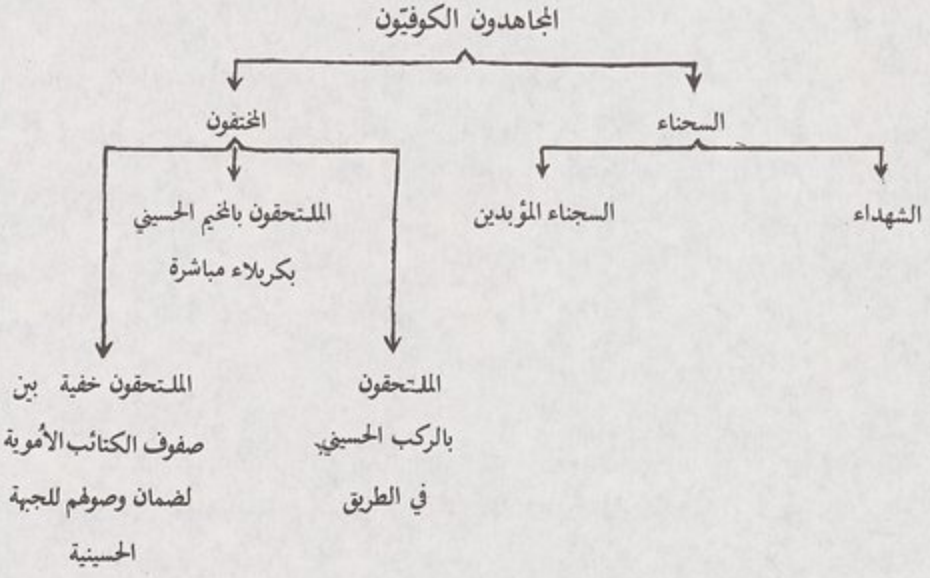

اولـئك هم طلائـع رجال الجهاد والمقاومة الدائمة للـنظام الأموي المنحرف.

و قد برزوا كلٌ حسب ظروفه ليستلم كل منهم درجة الشهادة في الكوفة وكربلاء... فكان منهم الشيب وكان فيهم الشبّان فضلاً عن الكهول... كان فيهم المراسل أوالجندي المجاهد والفارس القائد... كان فيهم الجدلي واليزدي وكان الهمداني والكندي، والحميري والصائدي... فهم يختلفون سنّاً ويتفاوتون رُتباً ويتباينون نسباً، بيدَ أنهم موحّدون ربّاً ومتوحّدون ديناً ومتّحدون هدفاً... «رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه».

تقدّموا، فضُربت أعناقهم في محراب المبادئ، «فمنهم من قضىٰ نحبه، ومنهم من ينتظر...» ممن اختفوا ثم خرجوا تباعاً الى كربلاء، كأنهم اليعاسيب «والطيور علىٰ أشكالها تقع» فتمورت الأرض بنقيع دمائهم، سقياً لشجرة العقيدة، فحرثوا التربة بأشلاء أجسادهم، تعبيداً لطريق الأجيال المتعاقبة. «وما بدّلوا تبديلا».

أول الشهداء

على منهاج المجاهدين

كان استشهاد المجاهد العظيم مسلم بن عقيل بن أبي طالب،الممثل الشخصيّ للإمام الحسينْ بن عليّ عليهم السّلام، قد صادف في يوم التروية، أي في الثامن من شهر ذي الحجة عام ٥٩ للهجرة النبوية الشريفة.

لقد مضىٰ «مسلم» صاحب الشخصية المشرقة، مضىٰ في مُحَيّاه الجميل المُرَحِّبْ بالمصير الأخير، مستقبلاً القدر المقدّس بلا ضجر أو تبرّم، كعادته طوال سيرته الأريحية خلال الفتوح وأثناء الكفاح، حسبما أكّدته الأخبار التاريخية التي أعطتنا صوراً عنه عكست سيرته الباسلة فارساً بطلاً منفتحاً على القدر المحتوم ـ انظر مواقفه وأشعاره خلال الصراع والمواجهة ـ منفتحاً على ساحة القتال مقتحماً مقام الموت، من شأنه الإستشهاد،يسعىٰ نحوه قدُماً.

و يعتبر المجاهد الجليل مسلم أول الشهداء في ثورة الحسين السبط، وهو اعتبار لابدّ من التوقف عنده لإعطائه حقه من النظر الفاحص، لأن هذه الأولوية تفرضها المتابعة التاريخية قياساً للفترة الزمنية الخاصة بتحرك سبط سيّد المرسلين «صلّى الله عليه وآله وسلّم» فلننظر مجمل دواعي أولويته في النقاط التالية:

أولاً: هو أول قائد هاشمي يتعرض لخذلان مبايعيه في تلك الحالة الرهيبة.

ثانياً: هو أول قـائد هاشمي يـنفرد بنفسه وفي غربته بصراع مصيري لوحده فقط.

ثالثاً: أول من أُسّر من سيوف الرسالة وفرسان هاشم، ليُوقَف أمام السلطة كمتّهم يخضع للمحاكمة.

رابعاً: أول بني هاشم العلىٰ يُقتل علناً أمام الناس.

خامساً: أول من سحبت جثته في الاسلام، كما أنه بتعبير المسعودي وابن الجوزي: «أول قتيل صُلبت جثته من بني هاشم»(١).

سادساً: و هو أول القـادة الهاشـميين الشهداء يُقطع رأسه ويُهدىٰ الى يزيد حفيد آكلة الأكباد، وبتعبير المسعودي وابن الجوزي: إن رأسه أول من حمل من رؤوس بني هاشم(٢).

فصفـة الأولـويـة هذهِ لم تـأت تـلقـائيـاً، وليست مـفـتـقـرة الى الـدعائم والاعتبارات الجليلة.

لقـد مضىٰ شهيد الاسلام والعقيدة في الكوفة، كما مضىٰ شهداء ثورة بدر المجيدة، حسبما يعبر نصّ زيارته في مرقده الشريف:

«... و أشهَدُ أنّكَ مَضَيتَ علىٰ مـا مَضىٰ عليه البَـدريُّـونَ المجاهِدُونَ في سَبيلِ الله الـمُـبالِغونَ في جهادِ أعدائهِ ونُصرَة أوليائِهِ...»

و هذا النص ـ باختصار ـ هـو عبارة عن فهم ثوري و ربط جهـادي بين ثورة بـدر بقيادة الـنبيّ الأعظم «صلّى الله عليه وآلـه وسلّم» وبين ثورة الطف في كربلاء بقيـادة سبطه الإمام الحسين «عليه السّلام»، سيا وأن من الضرورات الـفكرية والسلوكيـة ربط الحلقات في المسلسل الجهـادي الواحد عبر التاريخ، وصـولاً الى إدراك العدوّ المشترك، وتشخيص الخصم الواحـد الذي هو امتداد

---

(١) و(٢) مروج الذهب: ٢/ ١٠، وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ص٢١٩.

طبيعي للمشركين الجاهليين، منذ بدأت معركة التنزيل مروراً بمعارك التأويل.

و في نصّ آخر ضمن زيارة مرقد هذا البطل الطالبي الكبير، نجد معنىٰ عميق يحكي منهج حياة مسلم طوال عمره حتى يوم مقتله، بما هو منهج حافل بالجهاد:

«... أشهَدُ أنَّكَ قَد أقمتَ الصَّلاة وآتيتَ الزكاة، وأمرتَ بالْمَعرُوفِ وَ نَهَيتَ عَن المنكر، وجاهَدتَ في الله حَقَّ جهادِهِ، وقُتِلتَ على مِنهاج المُجاهِدينَ في سَبيلهِ حَتّىٰ لَقيتَ الله عَزَّوجلَّ وَهوَ عَنكَ راضٍ، وأشهَدُ أنّك وَفَيتَ بِعَهدِ الله، وبَذَلت نَفسَكَ في نُصرة حُجَّتِهِ وابن حُجَّتِهِ حَتّىٰ أتاك اليَقين...».

أجل، لقد مضىٰ هذا الإبن المخلص للقضية المقدّسة على «منهاج المجاهدين» في سبيل الله، ولا توجد درجة تعلو هذه الدرجه إذ يحظىٰ الأبطال الحقيقيون فقط علىٰ حيازة هذا الوسام الأسمىٰ في الاسلام، إنه وسام البقاء والموت على منهاج المجاهدين.

خاتمة المطاف

في نهاية هذهِ الدراسة المخصّصة للفترة التاريخية المعنية بالبحث وبعد إلقاء الأضواء الساطعة علىٰ الزوايا المعتمة والمظلمة من نفس الفترة، ورغم الانتهاء من استيفاء كافة جوانب القضية، لكننا نظيف ملاحظة كي نلفت النظر الى جانب من مجتمع الكوفة آنذاك الذي يحتاج الى دراسة خاصّة مستقلّة به، مسؤولة شرعاً عنه، لا تأتي وليدة أمزجة البعض ـ من مفكّرين أو كتّاب أو خطباء ـ ممن يستوي لديهم إطلاق الآراء كيفما كانت إنفعالية أو تحليلية أو مثالية. ونعتقد أن إنجاز هكذا دراسة مستقلّة سيصحّح مفاهيم أساسية موهومة.

و اذا قلنا أن للكوفة قيمة تاريخية للأُمة الاسلامية، لأن الكوفيين هم أول من جعلوا بلدهم مدرسة فتحت أبوابها على مصراعيها للشؤون الثورية والسياسية، فضلاً عن العلوم المتنوعة الأُخرىٰ، فإننا لا ننسىٰ مالها من قيمة روحية مشرّفة، الأمر الذي يفسّر كونها موضع اهتمام أهل بيت محمد «صلّى الله عليه وآله وسلّم» سواء في ميدان الادارة والحكم، أو التحرك الجهادي الثائر، أو ميدان العلم والمعرفة، أو ميدان التحرك لنشر الرسالة والمذهب الى غير ذلك من الميادين.

و نعتقد أن الحاجة الىٰ هذه الدراسة هي حاجة ماسّة لا يستغني عنها الفكر الثوري والتصور الحركي حيال التوثب والنكوص، أو التقدم والتراجع،

باعتبارها حالة تتحكم بالواقع وتؤثر على المستقبل.

كما نريدأن نختم البحث بإلفات النظر الى ظاهرة من أرقىٰ الظاهرات، عميقة المعاني رائعة الدلالات، موحية الى عظمة حسن العاقبة في آخر المطاف حتىٰ على الصعيد الدنيوي في هذه الحياة، ذلك أن الجسد الشريف لمسلم بن عقيل كان قد دفن في فسحة مجاورة للقصر الشامخ الذي أُلقي من أعلاه الى الأرض، أو دفن مقابل إحدىٰ أبواب القصر من خارجه ليبقىٰ قبره تحت أعين حراس القصر.

و دارت عجلة الزمن، واذا بالقبر يعلو في سماء المدينة ليطلّ علىٰ أنقاض القصر الذي أُلقي من فوقه، ثم يصبح مرقد الشهيد الهاشمي عامراً شامخاً متجدّد البنيان والعمران، كشاهد صدق ينطق بحقّ هذا البطل الطالبي الأبي، والمرقد هذا في شموخه واطلالته على أنقاض القصر ـ المهدّم بأيدي الأُمويين ـ يشهد على بطاله وبطلان جميع الأُمراء والحكام الذين اجرموا فيه، إن مرقد مسلم يقع بجانبه من الجهة الشرقية المسجد الجامع، وتقع خلفهما ـ أي المرقد والمسجد ـ الىٰ الناحية الجنوبية أنقاض القصر، فهما يمثلان موقعاً ثلاثي الشكل عميق المغزىٰ والمدلول(١).

---

(١) كان من المتعذر التقاط صور من الأعلىٰ لهذا الموقع الحسّاس إلا من قبل مؤسسات ذات إمكانيات ضخمة تعنىٰ بالآثار الحضارية، وفي الأيام الأخيرة ـ وقبيل الخروج من العراق ـ حاولنا التقاط بعض الصور لنخص بها خاتمة هذا الكتاب، فلم نقدر علىٰ انجاز ذلك بالدقة المتوخاة... علماً أن الدوائر الدولية المغرضة تقوم بتنفيذ عمليات إحياء الحضارة الأُموية البائدة في الكوفة، وذلك تحت عناوين علمية تقضي ـ حسب المزاعم ـ بالتنقيب عن آثار الماضي العريق!! وقد أضحىٰ القصر مركزاً لهذه «اللعبة» الجديدة، تشرف عليه دوائر التنقيب الأثري، ويمنع التقاط الصور، كما يُحضر المكوث طويلاً هناك ، وهو ما لم يشهده الناس قبل ذلك ، قبل السبعينات التي جدّ فيها الجد لدىٰ البعث الماسوني لإنعاش الروح الأُموية في العراق، في محاولة بليدة غاشمة لتبديل دين الشعب ودين الجماهير احتيالاً على الأصالة الحقة المقدسة بتقديم أصالة الباطل المدنسة.

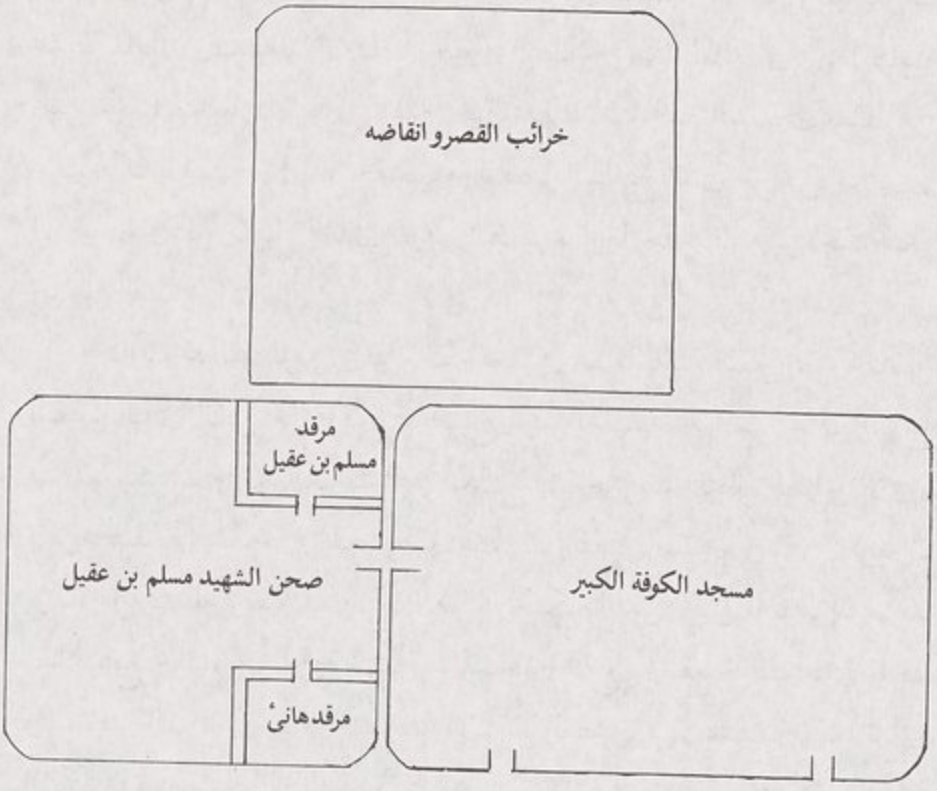

لم يهدمه الشيعة وانما غيرهم، فالشيعة قد لا يملكون يومذاك نفقه هدم قصر ضخم كهذا، لكن أُمراء الأُمويين هم بأنفسهم أمروا بهدمه لتشاؤمهم منه حين تحوّل الى رمز للاستبداد والاستهتار السياسي. فقد شوهد فيه رأس الحسين سبط الرسول «صلّى الله عليه وآله وسلّم» موضوع بين يدي ابن زياد ثم أصبح رأس ابن زياد بين يدي المختار الثقفي في نفس القصر، وفيه أيضاً جلس مصعب وبين يديه رأس المختار، وفيه أيضاً جلس الحجاج وبين يديه رأس مصعب، وحينما

قيل للحجاج بما جرىٰ من تسلسل القتل قام مرتبكاً وخرج منه متشائماً آمراً بهدمه، وأُعيد بناؤه في عهدهم ثم أُعيد هدمه وتخريبه، تكرّر ذلك في نفس النصف الثاني للقرن الهجري الأول.

و ما زال القصر لحدّ اليوم خربة ضخمة تأوي اليه الحيوانات،يحكي في انقاضه تحت عمارة مرقد القائد الأبي الذي أُلقي من فوقه، هذا الواقع الحي المتحرك يحكي أروع قصة لصلابة المبدأ الخالد في البقاء أبداً، ويحكي أروع قصة لصلابة العقيدة حين تتحدىٰ صروف الزمن وتهديدات الخصوم عبر التاريخ.

و لعلّه المرقد الوحيد لعصبة محمد العظيم «صلّى الله عليه وآله وسلّم» يعكس لنا حكايات ذات ايحاءات بالغة لمواقف سادات العقيدة، ويعكس صورة مليئة بالاشارات الحضارية لقضايا صراع المبادئ والأخلاق.

كان ذلك القصر رمزاً من أبرز رموز الاستبداد الدموي، ورموز الطغيان الأموي، وأضحىٰ خير دليل على أن حياة المبطلين طارئة مؤقتة: «أَوَلَم يَهدِ لَهُم كَم أَهلَكْنا مِن قَبلِهِم مِنَ القُرُونِ يَمشُونَ في مَسَاكِنِهِم، إنَّ في ذلك لآيات، أفلا يَسمَعُون»(١).

«فَتِلك مَساكِنُهُم لم تُسكن مِن بعدِهِم إلّا قَليلا»(٢). «ولَقَد تركنا مِنها آيةً بَيِّنَةً لِقَومٍ يَعقِلُون»(٣). «وَ قَد تبيَّنَ لَكُمْ مِن مَسَاكِنِهِم و زيَّنَ لَهم الشَّيطان أعمالَهُم فَصَدَّهُم عَن السَّبيل»(٤).

أجل، لقد أثار القرآن الكريم إنتباه المسلمين الىٰ عموم الآثار التي خلّفها

---

(١) سورة الأحزاب: ٢٦.

(٢) سورة القصص: ٥٨.

(٣) سورة العنكبوت: ٣٥.

(٤) سورة العنكبوت: ٣٨.

ويخلفها رجال الجرائم والفجور من الكافرين والمنحرفين، رجاء استلهام المعنوية واستمداد القوة على العدو، فالباطل مرهون بالزوال والحق قيد القوة لا محال، والآثار بادية للعيان، للذاهبين والآيبين: «وإنَّكُم لَتَمُرّونَ عَلَيهم مُصبِحينَ، وبالليل، أفلا تَعقِلُون»(١).

إنه مشهد يدعو الى التأمل بعقل وحكمة، لأن قصر النظام الأموي قد تحول الى أنقاض حين تقوضت أركانه بعد سنوات قليلة من تاريخ دخول رأس ابن رسول الله أو من تاريخ إلقاء مسلم من فوقه، ومسلم سلام الله عليه أصبح يرقد تحت قبة سامقة شامخة تشرف على تلك الخرائب والأطلال، فاذا أصبحت «بيوتهم خاوية بما ظَلَمُوا»(٢) فقد أصبح مسلم «في بُيُوتٍ أذِنَ اللهُ أن تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمُهُ»(٣).

فسلامٌ على «أول الشهداء» في المجاهدين
وسلامٌ عليه في الشهداء والصدّيقين
وسلامٌ على مسلم في العالمين
وآخر دعوانا أن الحمد لله
ربِّ العالمين

محمَّد علي عابدين
١٣٩٦هـ

---

(١) سورة الصافات: ١٣٧-١٣٨.
(٢) سورة النمل: ٥٢.
(٣) سورة النور: ٣٦.

محتويات الكتاب

الإهداء ٤

تقديم سماحة العلاّمة الشيخ القرشي ٥

مقدّمة المؤلّف ١١

الباب الأول

مسلم والكوفة

تمهيد: النسب الهاشمي لمسلم ١٩

الفصل الأوّل: المجاهد عقيل بن أبي طالب ٢٥

الفصل الثاني: مسلم بن عقيل ٤٣

الفصل الثالث: التركيب المعقّد لمجتمع الكوفة ٥٧

الباب الثاني

بدء الحركة الكوفية وطبيعة تجاوب الامام

الفصل الأوّل: كثرة الرسائل الملحّة ٦٩

الفصل الثاني: الإمام ينتدب ممثلاً عنه ٧٧

الفصل الثالث: أضواء في الطريق الى الكوفة ٨٧

الباب الثالث

التحضير والإعداد بإشراف المبعوث

الفصل الأوّل: البيعة والتكتل ٩٧

الفصل الثاني: موقف السلطة المحلّية ١٠٧

الفصل الثالث: النشاط الثوري للمبعوث ١١٩

الباب الرابع
معالم المواجهة

الفصل الأوّل: موقف السلطة المركزية ١٢٩
الفصل الثاني: الإجراءات الوقائية لمواصلة النشاط ١٤٣
الفصل الثالث: التجسّس واستدعاء الزعيم هانئ ١٥٥

الباب الخامس
المواجهة الفاصلة بين الضرورة والاضطرار

الفصل الأوّل: حملتان عسكريتان على القصر ١٧١
الفصل الثاني: في ضيافة قصيرة ١٨٩
الفصل الثالث: حرب الشوارع ٢٠١

الباب السادس
التصفيات الجسدية وأريحية التضحية

الفصل الأوّل: أوّل الشهداء ٢١٥
الفصل الثاني: إعدام المجاهد هانئ بن عروة ٢٢٧
الفصل الثالث: بقية المجاهدين الأحرار ٢٣٧
أوّل الشهداء على منهاج المجاهدين ٢٤٩
خاتمة المطاف ٢٥٢

VETVS &
NOVVM
TESTA-
MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

(Arab)
BP193
.13
.A243
1987

ثمن ٧٠٠ ريال